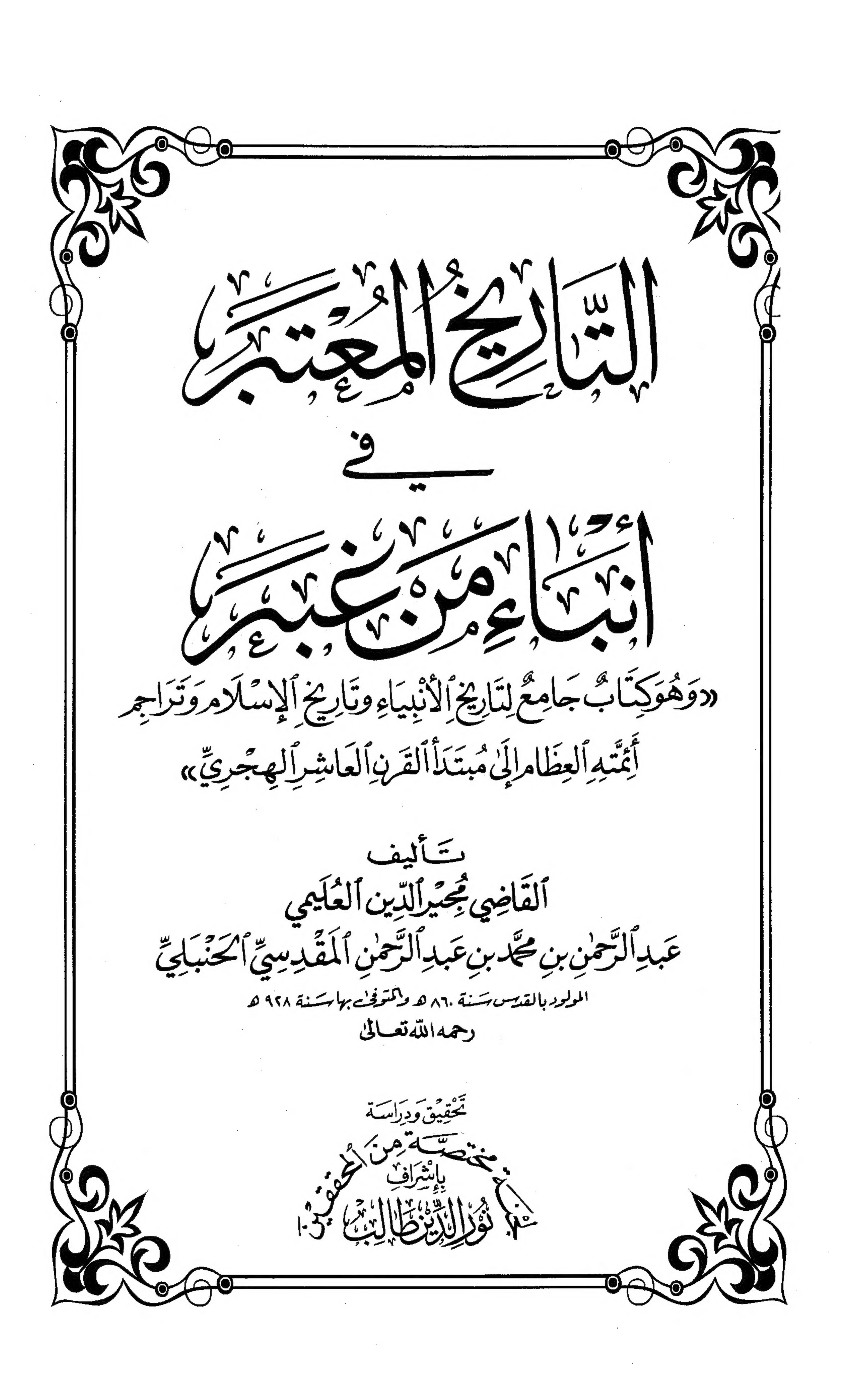


التاريخ المعتبر
في
أنباء من غبر

«وهو كتاب جامع لتاريخ الأنبياء وتاريخ الإسلام وتراجم أئمته العظام إلى مبتدأ القرن العاشر الهجري»

تأليف

القاضي مجير الدين العليمي

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المقدسي الحنبلي

المولود بالقدس سنة ٨٦٠ هـ والمتوفى بها سنة ٩٢٨ هـ

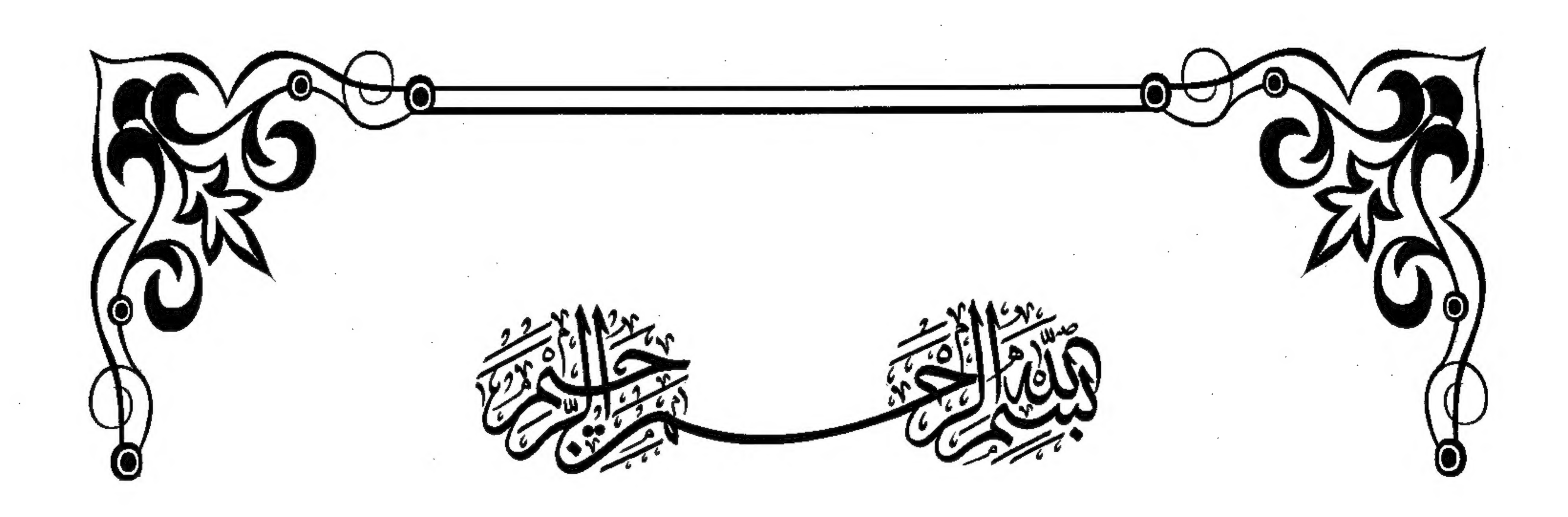
رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

لجنة مختصة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب



وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله على ما أنعم به علينا من جزيل آلائه، والصلاة والسلام على سيد رسله وخاتم أنبيائه.

أمّا بعد:

فهذه أوراق تتضمن طرفاً من ذكر التاريخ، ترتاح لسماعه القلوب، ويزول عن مطالعه ما يجده من الهم والكُروب، لخصته على سبيل الاختصار، وأوجزتُ ألفاظَه على وجه الاقتصار، وذكرت فيه بعضَ ما وقع في الزمان الأول، والله حسبي، وعليه في كلِّ الأمور المعوَّل.

* * *

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: الدنيا جُمعةٌ من جُمَع الآخرة، سبعةُ آلاف سنة، وقد مضى ستةُ آلاف سنة، [ومئتا سنة][1]، وليأتينَّ عليها مِئُون

---

(١) ما بين معكوفتين من «تاريخ الطبري».

من سنين ليس عليها مُوَحِّد[1].

وعن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: أنه قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»[2]؛ يعني: أنه أشار بين الوسطى والسبابة.

وأما ما مضى من الزمان ـ على ما دلت عليه **التوراة اليونانية** ـ، وهي التوراة التي اختارها المحققون من المؤرخين، وليس فيها ما يقتضي الإنكار من جهة الماضي من عمر الزمان، والذي تنبىء به هذه التوراة اليونانية: أنه ما بين هبوط آدم إلى الطوفان ألفان ومئتان واثنتان وأربعون سنة.

وما بين الطوفان ـ وكان لست مئة مضت من عُمُر نوح ـ وبين مولد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ألف وإحدى وثمانون سنة.

وبين مولد إبراهيم ووفاة موسى ـ عليه السلام ـ خمس مئة وخمس وأربعون سنة.

وبين وفاة موسى وابتداء ملك بُخْتَنَصَّر تسع مئة، وثمان وسبعون سنة، ومئتان وثمان وأربعون يوماً.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تاريخه» (١/ ١٥)، من طريق يحيى بن يعقوب، عن حماد بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، عنه.
ويحيى هذا هو أبو طالب القاص الأنصاري، قال البخاري: منكر الحديث، وشيخه هو فقيه الكوفة، وفيه مقال. انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٦١٣٩)، ومسلم (٢٩٥١).

وأما ما بين ابتداء ملك بختنصر وبين الهجرة، فهو ألف، وثلاث مئة وتسع وستون سنة، ومئة وسبعة عشر يوماً.

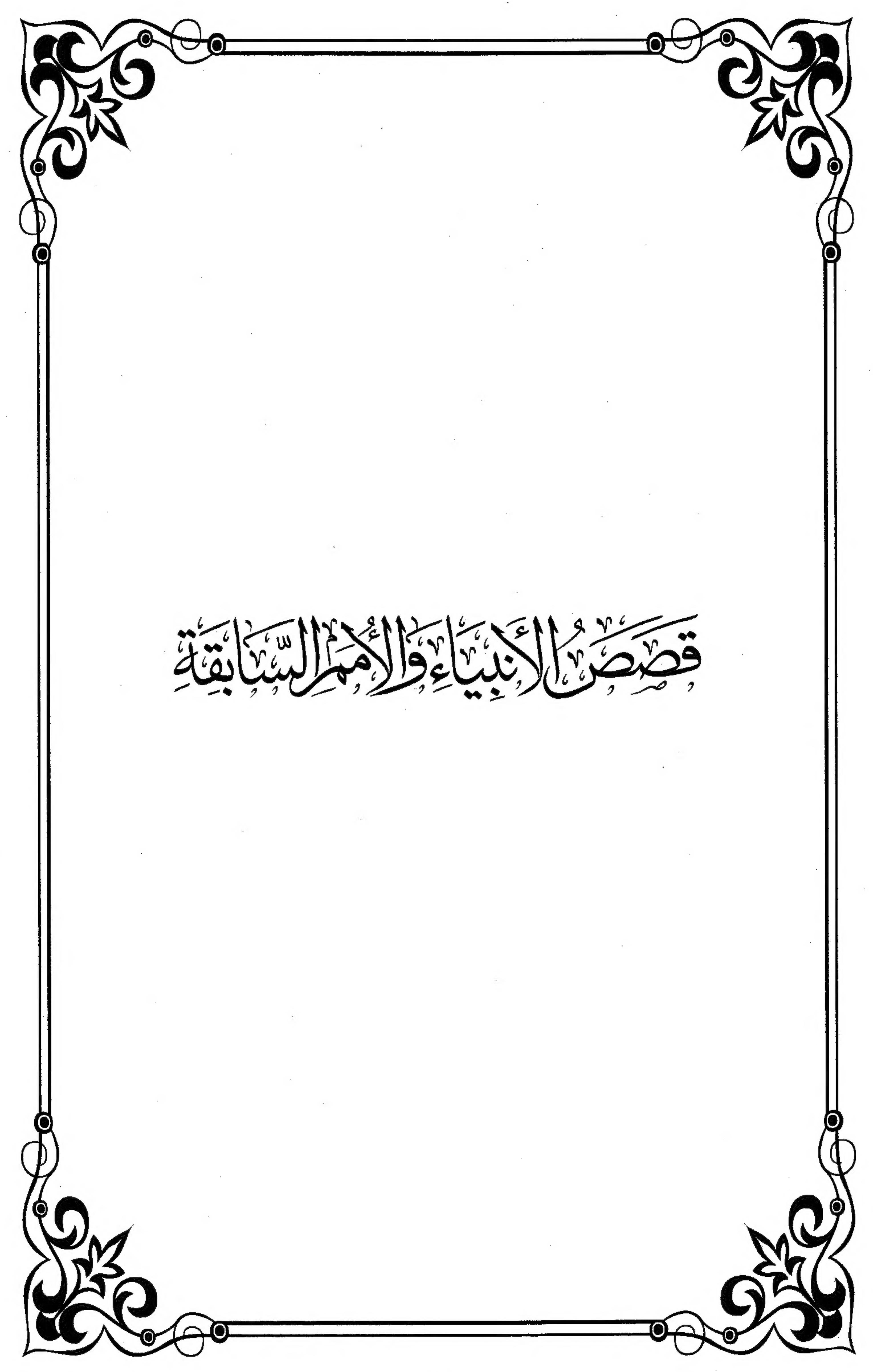
فيكون من هبوط آدم إلى الهجرة الشريفة الإسلامية ستة آلاف سنة، ومئتان وست عشرة سنة، وهذه التوراة هي المعتمدة عند المحققين من المؤرخين.

وأما **التوراة السامرية**، فتنبئ أنَّ من هبوط آدم إلى الهجرة خمسةَ آلاف، ومئةً وسبعاً وثلاثين سنة، وهذه التوراة مفسودة.

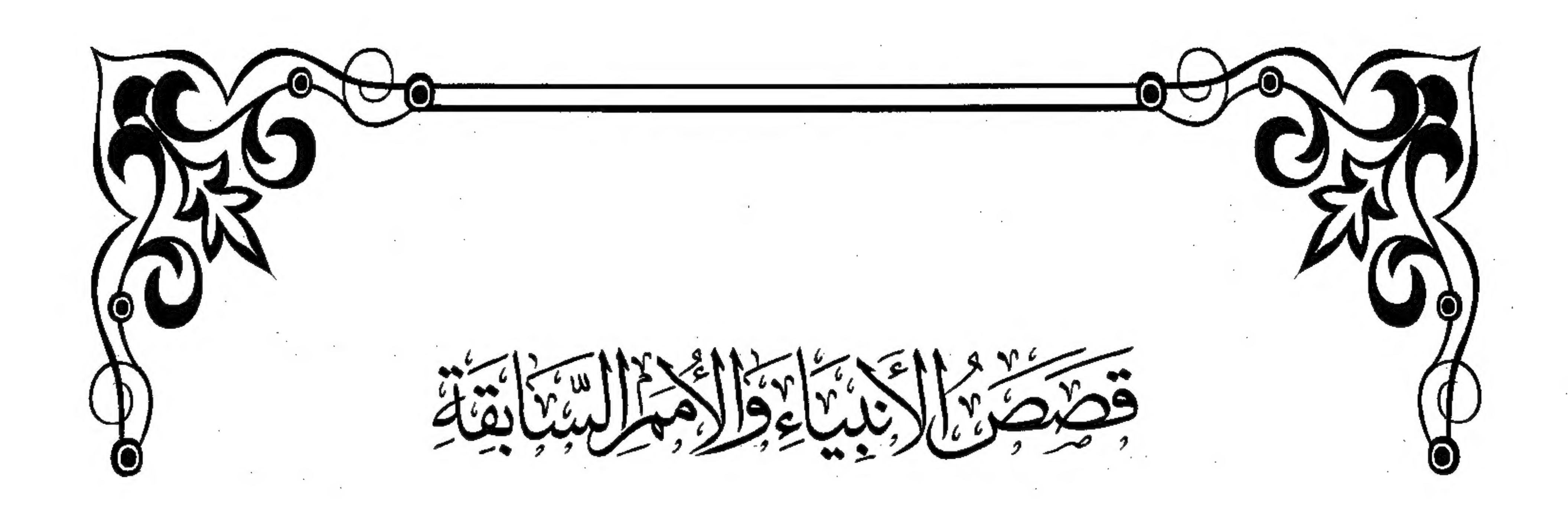
وأما **التوراة العبرانية**، فهي ـ أيضاً ـ مفسودة، وهي التي بأيدي اليهود، وهي تنبئ أن بين آدم وبين الهجرة أربعة آلاف، وسبع مئة وإحدى وأربعين سنة.

وجملة سِني هذه التوراة تنقص عن التوراة اليونانية ـ وهي التي عليها العلماء ـ ألفاً وأربع مئة وخمساً وسبعين سنة، وهذه الجملة هي القدر الذي نقصه اليهود من الماضي من سني العالم، والذي دعا اليهود إلى ذلك: أن التوراة وغيرها من كتب بني إسرائيل بشَّرت بالمسيح، وأنه يجيء في أواخر الزمان، وكان مجيء المسيح في الألف السادس، فلما فعلوا ذلك، صار المسيح في أول الألف الخامس، فيكون مجيء المسيح في وسط الزمان، لا في أواخره؛ بناء على أن عمر الزمان جميعه سبعة آلاف سنة، فنقص اليهود ما نقصوه؛ دفعًا لنبوة عيسى ـ عليه السلام ـ، وقالوا: لم يأت الوقت الذي وُقِّت له.

❑ ❑ ❑



قصص الأنبياء والأمم السابقة



قصص الأنبياء والأمم السابقة

١ ـ ذكر آدم عليه السلام

قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، [جَاءَ] مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَسْوَدُ وَالأَبْيَضُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمنهمُ السَّهْلُ وَالْحَزْنُ، [وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ]، وَبَيْنَ ذَلِكَ»[1]، وإنما سُمِّي آدمَ؛ لأنه خُلق من أديم الأرض، وخَلق الله تعالى جسدَ آدمَ، وتركه أربعين ليلةً، وقيل: أربعين سنة، مُلقًى بغير روح.

وقال الله تعالى للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر: ٢٩]، فلما نفخ فيه الروح، سجد له الملائكةُ كلُّهم أجمعون، إلا إبليس أبى واستكبر، وكان من الكافرين، ولم يسجد كِبْراً وبَغياً وحسداً، فأوقع الله تعالى على إبليس اللعنةَ والإياسَ من رحمته، وجعله شيطاناً رجيماً، وأخرجه من الجنة، بعد أن كان مَلِكاً على سماء الدنيا والأرض، وخازناً من خزَّان الجنة، وأسكن الله آدمَ الجنةَ، ثم

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

خلق الله من ضِلَع آدم حواءَ زوجتَـه، وسُميت حواء؛ لأنها خلقت من شيء حيٍّ، فقال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٣٥].

ثم إن إبليس أراد دخولَ الجنة؛ ليوسوسَ لآدم، فمنعـه الخزنـةُ، فعرض نفسـه على دواب الأرض أن تحملَه حتى يدخل الجنة؛ ليكلم آدمَ وزوجَه، فكلُّ الدواب أبى ذلك غيرَ الحيَّة؛ فإنها أدخلته الجنة بين نابيها، وكانت ـ إذّاك ـ على غير شكلها الآن، فلما دخل إبليس الجنة، وسوس لآدم وزوجه، وحسَّن عندهما الأكلَ من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وهي الحنطة، وقرر عندهما أنهما إن أكلا منها، خُلِّدا، ولم يموتا، فأكلا منها، فبـدت لهما سـوءاتهما، فقـال الله تعـالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾[البقرة: ٣٦]: آدم، وحواء، وإبليس، والحية، وأهبطهم الله من الجنة إلى الأرض، وسلب آدمَ وحواء كل ما كانا فيه من النعمة والكرامة.

فهبـط آدم بسَرَنْدِيب من أرض الهنـد على جبـل يقـال لـه: نَوذ، وحواء بجُدَّة، وإبليس بأَيْلَة، وقيل: بميسان بالبصرة على أميال، والحيـة بأصفهان.

قال الضحَّاك: فجَعل كلٌّ واحـد منهما يطلب صاحبـه، فاجتمعا بعرفات يومَ عرفةَ، وتعارفا، فسُمي اليومُ: عرفةَ، والموضعُ: عرفات.

وكان هبوط آدم من باب التوبة، وحواء من باب الرحمـة، وإبليس من باب اللعنة، والحية من باب السُّخط، وكان في وقت العصر.

ولما هبط آدم إلى الأرض، كان له ولدان: هابيل وقابيل، فقرَّبا قرباناً، فتُقبل قربان هابيل دون قابيل، فحسده على ذلك، وقتل قابيلُ هابيلَ، وقيل: إنه كان لقابيل أخت توءمة، وكانت أحسن من توءمة هابيل، وأراد آدم أن يزوِّج توءمة قابيل بهابيل، وتوءمة هابيل بقابيل، فلم يطب لقابيل ذلك، فقتل أخاه هابيل، وأخذ قابيل توءمته، وهرب بها.

وعاش آدم تسع مئة سنة، وثلاثين سنة، وقد بلغ عدد ولده وولد ولده لما توفي أربعين ألفاً، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ اثنتي عشرة مرة.

وبعد قتل هابيل، ولد لآدم **شيث**: وهو وصيُّ آدم، وتفسير شيث: هبة الله، عاش تسع مئة واثنتي عشرة سنة، وكانت وفاته لمضي ألف ومئة واثنتين وأربعين سنة لهبوط آدم، واسم شيث عند الصابئة: عاديمون، وإلى شيث تنتهي أنساب بني آدم كلهم.

ثم ولد لشيث **أنوش** عاش تسع مئة وخمسين سنة.

ثم ولد لأنوش **قينان** عاش تسع مئة وعشر سنين.

ثم ولد لقينان **مهلائيل** عاش ثماني مئة وخمساً وتسعين سنة.

ثم ولد لمهلائيل **يرد** ـ بالدال المهملة، والذال المعجمة أيضاً ـ عاش تسع مئة واثنتين وستين سنة.

[ثم ولد له] **حنُوخ** ـ بحاء مهملة ونون وواو وخاء معجمة ـ، وهو إدريس ـ عليه السلام ـ، رُفع لما صار له من العمر ثلاث مئة [وخمس]

وستون سنة، رفعه الله إلى السماء، وكان قد نبأه الله، وانكشفت له الأسرار السماوية.

ونزل عليه [جبريل عليه السلام] أربع مرات، وله صحف، منها: لا ترومـوا أن تحيطـوا بالله خبـرة؛ فإنـه أعظمُ وأعلى أن تـدركـه فِطَنُ [المخلوقين إلا] من آثاره.

ثم ولد لحنوخ: **متوشلح** ـ بتاء مثناة من فوقها، وقيل: بثاء مثلثة، وآخره حاء مهملة ـ عاش تسع مئة [وتسعاً وستين] سنة.

ثم ولد لمتوشلح **لامخ**، ويقال له: لامك.

ثم ولد للامخ وقد صار لـه من العمر مئـة وثمان و[ثمانون سنة: **نوح**]، وكانت ولادة نوح بعد أن مضى ألف وست مئة واثنتان وأربعون سنة من هبوط آدم.

* * *

٢ ـ ذكر نوح عليه السلام

أرسل الله نوحاً إلى قومه، وكانوا أهل أوثان، وصار نوح يدعوهم إلى طاعة الله، وهم لا يلتفتون إليه، وكانوا يخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق، قال: «اللهمَّ اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون»، وكانوا يضربونه حتى يظنوا أنه مات، فإذا أفاق، [اغتسل]، وأقبل عليهم يدعوهم إلى الله، فلما طال ذلك، شكاهم إلى الله، فأوحى الله إليـه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[هود: ٣٦].

فلما أيس منهم، دعا عليهم، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦]، فأوحى إليه أن يصنع السفينة، فصنعها من خشب السَّاج، فلما فار التنور ـ وكان هو الآية بين نوح وبين ربه ـ حمل نوح مَنْ أمرَهُ الله بحمله، ثم أدخل ما أمره الله من الدواب، وارتفع الماء، وجعلت الفُلك تجري بهم في موج كالجبال، وعلا الماء على رؤوس الجبال خمسة عشر ذراعاً، فهلك مَنْ على وجه الأرض من حيوان ونبات.

وكان بين أن أرسل الله الماء، وبين أن غاض: ستة أشهر، وعشر ليال.

وقيل: إن ركوب نوح في السفينة كان لعشر ليال مضت من رجب، وكان ذلك ـ أيضاً ـ لعشر ليال خلت من آب، وخرج من السفينة يوم عاشوراء من المحرم، وكان استقرار السفينة على الجُوديِّ من أرض الموصل.

فولد لنوح: **سام** عاش ست مئة سنة، وهو أبو العرب وفارس والروم.

وحام أبو السودان.

ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج، والفرنجُ والقبطُ من ولد قوطِ ابن حام.

وولد لسام **أرفخشذ**، عاش أربع مئة وخمساً وستين سنة.

وولد لأرفخشذ **قينان**، عاش أربع مئة وثلاثين سنة.

وولد لقينان **شالخ**، عاش أربع مئة وستين سنة.

ولما مضت سنة ثلاث مئة وخمسين للطوفان، توفي نوح ـ عليه السلام ـ، وعمره تسع مئة وخمسون سنة، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ خمسين مرة.

وولد لشالخ **عابر**، عاش أربع مئة وأربعاً وستين سنة.

ثم ولد لعابر **فالغ**، عاش ثلاث مئة وتسعاً وثلاثين سنة.

ثم ولد لفالغ **رُعون**(1)، عاش ثلاث مئة وتسعاً وثلاثين سنة، وعند مولد رُعون تبلبلت الألسن، وتقسَّمت الأرض، وتفرَّق بنو نوح، وهلك لمضي ست مئة وسبعين سنة للطوفان.

ثم وُلد لرعون **ساروغ**، واسمه في التوراة: سرور، عاش ثلاث مئة وثلاثين سنة.

ثم وُلد لساروغ **ناحور**، عاش مئتين وثمانياً وستين سنة.

ثم ولد لناحور **تارح**، وهو آزر، عاش مئتين وخمس سنين.

ثم ولد لتارح **إبراهيم الخليل** ـ عليه السلام ـ، وذلك لمضي ألف وإحدى وثمانين سنة للطوفان.

* * *

---

(1) في «الكامل» (1/ 73) وغيره: «أرغو».

٣ ـ ذكر هود وصالح عليهما السلام

وهما نبيان أُرسلا بعد نوح، وقيل: إبراهيم الخليل.

وأرسل الله هوداً إلى عاد، وكانوا أهل أصنام، وكان عاد وثمود جبارين طِوال القامات.

ودعا **هود** قوم عاد، فلم يؤمن منهم إلا القليل، فأهلك الله الذين لم يؤمنوا بريح سبع ليال وثمانية أيام حُسوماً، والحسوم: الدائم، فلم تَدَعْ غير هود والمؤمنين معه، فإنهم نزلوا في حضرموت، وبقي هود كذلك حتى مات، وقبرُ هود بحضرموت، وقيل: بالحِجر من مكة.

ويُروى: أنه كان من [عاد شخص] اسمه لُقمان، وهو غير لقمان الحكيم الذي كان على عهد داود النبي ـ عليه السلام ـ.

وأما **صالح**: فأرسله الله إلى ثمود، فدعاهم إلى التوحيد، وكان مسكنهم بالحِجْر، فلم يؤمن به إلا قليل مستضعفون، ثم إن كفارهم عاهدوه على أنه إن أتى بما يقترحونه عليه، آمنوا به، واقترحوا عليه أن يُخرج من صخرة معينةٍ ناقةً، فسأل اللهَ في ذلك، فخرج من تلك الصخرة ناقة، وولدت فصيلاً، فلم يؤمنوا، وعقروا الناقة، فأهلكهم الله بعد ثلاثة أيام بصيحة من السماء فيها صوتُ كلِّ صاعقة، فتقطعت قلوبهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وسار صالح إلى فلسطين، ثم انتقل إلى الحجاز يعبد الله إلى أن مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

* * *

٤ ـ ذكر إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه

وهو إبراهيم بن تارح، وهو آزر.

ولد إبراهيم بالأهواز، وقيل: ببابل، وهي العراق.

وكان آزر أبو إبراهيم يصنع الأصنام، ويعطيها لإبراهيم يبيعها، فكان إبراهيم يقول: من يشتري ما[1] يضره ولا ينفعه.

ثم لما أمر الله تعالى إبراهيم أن يدعو قومه إلى التوحيد، دعا أباه، فلم يجبه، ودعا قومه، فلما فشا أمره، واتصل بنمرود بن كوش، وهو ملك تلك البلاد، أخذ النمرود إبراهيمَ الخليل، ورماه في نار عظيمة، فكانت عليه برداً وسلاماً، وخرج من النار بعد أيام، ثم آمن به رجال من قومه على خوف من نمرود، وآمنت به زوجته سارة، وهي ابنة عمه هاران.

ثم إنه هاجر هو ومَنْ معه إلى حَرَّان، وأقاموا بها مدة، ثم سار إلى مصر، وصاحبُها فرعون، فذُكر جمالُ سارة لفرعون، فسأل إبراهيمَ عنها: فقال: هذه أختي ـ يعني: في الإسلام ـ، وهَمَّ فرعون بها، فأيبس الله يديه ورجليه، فلما تخلى عنها، أطلقه الله، وتكرر ذلك منه، فأطلقها، ووهبها هاجَرَ.

ثم سار إبراهيم من مصر إلى الشام، وأقام بين الرملة وإيليا، وكانت سارة لا تحمل، فوهبت هاجرَ لإبراهيم، فوقع عليها، فولدت إسماعيل.

---

(١) في الأصل: «من».

ومعنى إسماعيل بالعبراني: مطيع الله، وكانت ولادته لمضي ست وثمانين سنة من عمر إبراهيم، فحزنت سارة لذلك، فوهبها الله إسحاق، ولدتـه ولها تسعون سنة، ثم غارت سارة من هاجر وابنها، وطلبت من إبراهيم أن يخرجهما عنها، فسار بهما إلى الحجاز، وتركهما بمكة.

وبقي إسماعيل بها، وتزوج من جُرْهُم امرأةً، وماتت أمه هاجرُ، وقَدِمَ إليه أبوه إبراهيم الخليل، وبنى الكعبة، وهي بيت الله الحرام، ثم أمر الله إبراهيمَ أن يذبح ولده.

وقد اختلف في الذبيح: هل هو إسحاق، أم إسماعيل[1]؟ وفداه الله بكبش.

فمن زعم أن الذبيح إسحاق، فيقول: كان موضع الذبح بالشام على ميلين من إيليا، وهي بيت المقدس.

ومن يقول: إسماعيل، يقول: إن ذلك كان بمكة.

وفي أيام إبراهيم توفيت زوجتـه سـارة بعـد وفـاة هاجر، وتزوج إبراهيم امرأة من الكنعانيين، وولدت منه ستة نفر.

وأما مولد إبراهيم، فقد تقدم في ذكر نوح: أنـه ولـد لمضي ألف وإحدى وثمانين سنة من الطوفـان، وعـاش مئـة وخمساً وسبعين سنة، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ اثنتين وأربعين مرة.

---

(١) الذي رجحه الجمهور وعليه الأكثرون: أنه إسماعيل عليه السلام. وللسيوطي رسالة لطيفة في ذلك سماها: «القول الفصيح في تعيين الذبيح».

وولد له: **إسحاق**، وسيأتي ذكره.

ثم ولد لإسحاق **يعقوب**، عاش مئة وسبعاً وأربعين سنة.

ثم ولد ليعقوب **لاوي**، عاش مئة وسبعاً وثلاثين سنة.

ثم ولد للاوي **قاهث**، عاش مئة وسبعاً وعشرين سنة.

ثم ولد لقاهث **عمران**، عاش مئة وستاً وثلاثين سنة.

ثم ولد لعمران **موسى** ـ عليه السلام ـ، وسيأتي ذكره.

وقد اختلف في معنى الصحف التي أنزلها الله تعالى على إبراهيم:

وقد روى أبو ذر عن النبي ﷺ: «أنَّها أَمثالٌ، منها: أيُّها [الملِكُ المُبْتَلَى] المُسَلَّطُ المَغْرُورُ! لم أَبعثْكَ لتجمعَ الدنيا بعضَها على بعضٍ، ولكنْ بعثْتُك لتردَّ عني دعوةَ المظلومِ؛ فإنِّي لا أردُّها ولو كانَتْ من كافرٍ، وعلى العاقلِ أنْ يكونَ بَصيراً بزمانِه، مُقْبِلاً على شانِه، حافظاً لِلِسَانِه، مَنْ عَدَّ كلامَهُ من عملِه، قَلَّ كلامُه إلا فيما يعنيه»[1].

وإبراهيمُ أولُ من اختتن، وأضاف الضيفَ، ولبس السراويل.

* * *

٥ ـ ذكر لوط عليه السلام

هو ابن أخي إبراهيم الخليل، وهو لوطُ بن هارانَ بنِ آزرَ، وكان

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

ممن آمن بعمه إبراهيم، وهاجر معه إلى مصر، وعاد إلى الشام، وأرسله الله إلى أهل سَدُوم، وكانوا أهلَ كفر وفاحشة، يقطعون الطريق، وإذا مر بهم المسافر، أمسكوه، وفعلوا بـه اللواطَ، فنهاهم، فلم ينتهوا، فسأل اللهَ النصرةَ عليهم، فأرسل الله الملائكة لقلب سدوم وقُراها الخمس: وهي: صبغة، وعمرة، وأدما، وصبويم، وبالغ.

وكان الملائكة قد أعلموا إبراهيم الخليل بذلك، فقال لهم: إن[1] هناك لوطاً، فقالوا: نحن أعلم بمن فيها، فلما وصلت الملائكة إلى لوط، همَّ قومُه أن يلوطوا بهم، فأعماهم جبريل بجناحه، وقال الملائكة للوط: نحن رُسُل ربك، ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١]، فلما خرج لوط بأهله، قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: لم نؤمر إلا بالصبح، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[هود: ٨١]، فلما كان الصبح، قلبت الملائكة سدومَ وقُراها الخمس بمن فيها، وسمعت امرأةُ لوط الهدَّ، فقالت: واقوماه! فأدركها حجرٌ فقتلها، وأمطر الله الحجارة على من لم يكن بالقرى، فأهلكهم.

* * *

٦ ـ ذكر إسماعيل عليه السلام

قد تقدم في ذكر والده طرفٌ من أخبارِه ومولدِه وتوجُّهِه إلى مكة.

---

(١) في الأصل زيادة: «كان».

ولما أمر الله إبراهيم الخليل ببناء الكعبة، سار من الشام، وقَدِمَ مكة، وقال: يا إسماعيل! إن الله أمرني أن أبني لـه بيتاً، فقال إسماعيل: أطعْ ربَّك، فقال إبراهيم: وقـد أمرك أن تُعينني، فقال: إذاً أفعـل، فجعـل إبراهيمُ يبنيه، وإسماعيلُ يناوله الحجارة، وكانا كلما بنيا، دعوا فقالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وكان وقوف إبراهيم على حَجَر وهو يبني، وذلك الموضع هو مَقامُ إبراهيم، واستمر البيت على ما بناه إبراهيم إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله ﷺ، وبَنَوْه.

وكان بنـاء الكعبة بعـد مضي مئـة سنـة من عمـر إبراهيم، فيكون بالتقريب بين ذلك وبين الهجرة ألفان وسبع مئة ونحو ثلاث وتسعين سنة.

وأرسل الله إسماعيل إلى قبائـل اليمـن، وإلى العمـاليـق، وزوَّجَ إسماعيلُ ابنتـه من ابن أخيـه العيص بن إسحاق، وعاش إسماعيل مئة وسبعاً وثلاثين سنة، ومات بمكة، ودفن عنـد قبـر أمه هاجر بالحِجْر، وكانت وفاة إسماعيل بعد وفاة أبيه إبراهيم الخليل بثمان وأربعين سنة، والله أعلم.

* * *

٧ ـ ذكر إسحاق عليه السلام

قد تقدم مولد إسحاق عند ذكر أبيه إبراهيم الخليل.

ثم إن إسحاق تـزوج بنـتَ عمـه، فولـدت لـه العيص، ويعقوب ـ [وهو] إسرائيل ـ.

ورزق يعقـوب من زوجتـه ليا: روبيل ـ وهـو أكبر أولاده ـ، ثم شمعون، ولاوي، ويهوذا.

ثم تزوج أختَها راحيل، فرزق منها: يوسف، وبنيامين.

وولد له من سُرِّيَّتين ستة أولاد، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً هم آباء الأسباط.

وأقام إسحاق بالشام حتى توفي وعمره مئـة وثمانون سنة، ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل.

وأما أسماء آباء الأسباط الاثني عشـر، فهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهـوذا، ويسـاخر، وزبولون، ويوسـف، وبنيامين، ودان، ونفتالي، وكاذ، وآشر.

* * *

٨ ـ ذكر أيوب عليه السلام

وهو رجل من أُمَّة الروم؛ لأنه من ولـد العيص، وهو: أيوبُ بنُ موص بن رازح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وكانت له زوجة يقال لها: رحمة، وكان صاحب أموال عظيمة، وكان له البَثَنِيَّةُ جميعُها من أعمال دمشق ملكاً، فابتلاه الله بأن أذهبَ أموالـه حتى صار فقيراً، ثم ابتلاه في جسده حتى تجذَّم ودوَّد، وبقي مرمياً على مزبلة لا يطيق أحد

أن يشَمَّ رائحته، وزوجتُه صابرة تخدمه، فتراءى لها إبليس، وقال لها: اسجدي لي؛ لأردَّ مالكم، فاستأذنت أيوبَ، فغضب وحلف ليضربنها مئة، ثم عافاه الله تعالى، ورزقه، ورد على امرأته شبابها وحسنها، وولدت له ستة وعشرين ذكراً، ولما عُوفي، أمره الله تعالى أن يأخذ عُرْجوناً من النخل فيه مئة شِمْراخ، فيضرب به زوجته رحمة؛ ليبَرَّ في يمينه، ففعل[1].

وكان أيوب نبياً في عهد يعقوب، وعاش ثلاثاً وتسعين سنة.

ومن وَلَدِ أيوب: ابنُه بشر، وبعث الله بِشراً بعد أيوب[2]، وسماه: ذا الكفل، وكان مقامه بالشام.

* * *

٩ ـ ذكر يوسف عليه السلام

وُلد ليعقوبَ يوسفُ لما كان ليعقوبَ من العمر إحدى وتسعون سنة، ولما صار ليوسف من العمر ثماني عشرة سنة، كان فراقه ليعقوب، وبقيا مفترقين إحدى وعشرين سنة، ثم اجتمع يعقوب بيوسفَ في مصر، وليعقوبَ من العمر مئة وثلاثون سنة، وبقيا مجتمعين سبع عشرة سنة، فكان عمر يوسف لما توفي يعقوب ستاً وخمسين سنة، وعاش يوسف مئة وعشرين سنة، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ أربع مرات.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٠/ ٦٧)، عن وهب بن منبه.

(٢) في الأصل زيادة: «ابنه».

وسبب فراقه عن أبيه: حسد إخوته، وألقوه في الجُب، فكان في الجب ماء، وبه صخرة، فآوى إليها، وأقام في الجب ثلاثة أيام، ومرت به السيارة، فأخرجته وأخذوه، وجاء أخوه يهوذا إلى الجب بطعام ليوسف، فلم يجده، ورآه عند تلك السيارة، فأخبر يهوذا إخوتـه بذلك، فأتوا إلى السيارة، وقالوا: هذا عبدنا أَبَق منا، فاشتروه من إخوته بثمن بخس، قيل: عشرون درهماً، وقيل: أربعون درهماً، وذهبوا به إلى مصر، فباعه أستاذه للذي على خزائن مصر، واسمـه العزيـز، وكان فرعونُ مصر حين ذاك الريانَ بنَ الوليد، رجلاً من العماليق، والعماليق من ولـد عملاق بن سام ابن نوح، فهويته امرأته راعيل، وراودته عن نفسه، فأبى وهرب، فلحقته من خلفه، وأمسكته بقميصه، فانقـدَّ، ووصل أمرها إلى زوجها العزيز، وابنِ عمِّها تبيان، فظهر لهما براءة يوسف، ثم بعد ذلك ما زالت تشكو إلى زوجها وتقول: إنـه يقول للناس: إنِّي راودتـه، وفضحني، فحبسه زوجها سبع سنين، ثم أخرجه فرعونُ مصر بسبب تعبير الرؤيا التي رآها.

ثم لما مات العزيز، جعل فرعونُ يوسفَ موضعَـه على خزائنـه، وجعل القضاء إليه، ودعا يوسفُ الريانَ فرعونَ مصر إلى الإيمان، فآمن بـه، وبقي كذلك إلى أن مات الريان، وملك بعدَه مصرَ قابوسُ بنُ مصعب من العمالقـة ـ أيضاً ـ، ولم يؤمن، وتوفي يوسف ـ عليه السلام ـ في ملكه بعد أن وصل إليه أبوه وإخوته جميعهم من كنعان، وهي الشام.

ومات يعقوب، وأوصى إلى يوسف أن يدفنه مع أبيه إسحاق، فسار به إلى الشام، ودفنه عند أبيه، ثم عاد إلى مصر.

وتوفي يوسف بمصر، ودفن بها حتى كان زمنُ موسى وفرعون، فلما سار موسى من مصر ببني إسرائيل إلى التيه، نبش يوسف، وحمله معـه في التيه حتى مات موسى، فلما قدم يوشع ببني إسرائيل إلى الشام، دفنه بالقرب من نابلس، وقيل: عند الخليل.

* * *

١٠ ـ ذكر شعيب عليه السلام

ثم بعث الله شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأهلِ مدين.

وقد اختلف في نسب شعيب، فقيل: إنه من ولد إبراهيم، وقيل: من ولد بعض الذين آمنوا بإبراهيم، وكانت الأيكة من شجر ملتفٍّ، فلم يؤمنوا، فأهلك الله أصحابَ الأيكة بسحابة أمطرت عليهم ناراً يوم الظُّلَّة، وأهلك الله أهلَ مدينَ بالزلزلة.

* * *

١١ ـ ذكر موسى عليه السلام

ثم أرسل الله موسى بنَ عمرانَ بن قاهـث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل نبياً بشريعة بني إسرائيل، وكان من أمره: أنه لما ولدته أمه، كان قد أَمَرَ فرعونُ مصرَ الوليدُ بن مصعب بقتل الأولاد الأطفال، فخافت أمه عليـه، وألقى الله تعالى إليها أن تُلقيـه في النيل، فجعلته في تابوت، وألقته، والتقطته آسية امرأة فرعون، وربَّته، وكبر،

فبينا هو يمشي في بعض الأيام، إذ وجد إسرائيلياً وقبطياً يختصمان، فوكز القبطيَّ فقتله، وخاف موسى من فرعون، فهرب، وقصد نحو مدينَ، واتصل بشعيب، وزوَّجه ابنته صفورا، وأقام يرعى غنم شعيب عشر سنين.

ثم سار بأهله في زمن الشتاء، وأخطأ الطريق، وكانت امرأته حاملاً، فأخذها الطلق في ليلة شاتية، فأراد [أن] يقدح، فلم يظهر له نار، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص: ٢٩]، فلما دنا منها، رأى نوراً ممتداً من السماء إلى شجرة عظيمة من العَوْسَج، وقيل: من العناب، فتحير موسى، وخاف ورجع، فنودي منها، ولما سمع الصوت، استأنس، وعاد، فلما أتاها، نودي من جانب الوادي الأيمن من الشجرة: يا موسى! إني أنا الله ربُّ العالمين، ولما رأى تلك الهيبة، علم أنه ربه، فخفق قلبه، وكَلَّ لسانه، وضعفت مُنَّته، ثم شد الله قلبه، ولما عاد عقله، نودي أن اخلع نعليك ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[طه: ١٢]، وجعل الله عصاه ويده آيتين.

ثم أقبل موسى إلى أهله، فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً، واجتمع به هارون ـ عليه السلام ـ، وتعارفا فاعتنقا، ثم قال موسى: يا هارون! إن الله أرسلنا إلى فرعون، فانطلقا إليه، وأراه موسى عصاه ثعباناً، فخاف فرعون، وأحدث في ثيابه، ثم أدخل يده في جيبه، وأخرجها بيضاء لها نور، ثم ردها إلى جيبه، وأخرجها على لونها الأول.

ثم أحضر لهما فرعون السحرة، وعملوا الحيات، وألقى موسى

عصاه، فتلقفت ذلك، وآمن به السَّحَرة، فقتلهم فرعون، ثم أراهم الآيات من القمل، والضفادع، وصيرورةِ الماء دماً، ثم سار موسى ببني إسرائيل بإذن فرعون، ثم ندم فرعونُ، وسار بعسكره حتى لحقهم عند بحر القُلْزُم، فضرب موسى بعصاه البحرَ، فانشق، فدخل فيه هو وبنو إسرائيل، وتبعهم فرعون وجنوده، فانطبق البحر عليهم فغرقوا.

ومن جملة المعجزات: قصته مع قارون: وكان قارونُ ابنَ عمِّ موسى، وكان رُزق مالاً عظيماً يُضرب به المثل على طول الدهر، قيل: إن مفاتيح خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً، وبنى داراً، وصفَّحها بالذهب، وجعل أبوابها ذهباً، فتكبر بسبب كثرة ماله على موسى، وقذفَه، وخرج عن طاعته، وأحضر امرأة بَغِيّاً، وأمرها بقذف موسى بنفسها، ثم أتى موسى فقال: إن قومك قد اجتمعوا، فخرج إليهم موسى، وقال: من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنا رجمناه، فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: نعم، وإن كنتُ أنا، فأُحضرت المرأة، فقال لها موسى: أقسمت عليك بالذي أنزل التوراة إلا صدقْتِ، أنا فعلتُ بكِ ما يقول هؤلاء؟ قالت: كذبوا، فأوحى الله إلى موسى: مُرِ الأرضَ بما شئتَ تُطعْك، فقال: يا أرض! خذيهم، فجعل قارون يقول: يا موسى! ارحمني، وموسى يقول: يا أرضُ خذيهم، فابتلعتهم الأرض، ثم خسف بهم وبدار قارون.

ولما أهلك الله فرعونَ وجنوده، قصد موسى المسير ببني إسرائيل إلى مدينة الجبارين، وهي أريحا، فقال بنو إسرائيل: يا موسى! إن فيها

قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، يا موسى! اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فغضب موسى، ودعا عليهم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المائدة: ٢٥]، فقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، فبقُوا في التيه، وأنزل الله عليهم المَنَّ والسَّلْوى.

ثم أوحى الله إلى موسى أني متوفٍّ هارون، فأتِ به إلى جبل كذا، فانطلقا نحوه، فإذا هما بسرير، فناما عليه، وأخذ هارونَ الموتُ، ورُفع إلى السماء، ورجع موسى إلى بني إسرائيل، فقالوا له: أنت قتلتَ هارون بحُبنا إياه، قال: ويحكم! أفتروني أقتل أخي؟! فلما أكثروا عليه، سأل الله تعالى، فأنزل السرير عليه هارونُ، فقال لهم: إني متُّ، ولم يقتلني موسى.

ثم توفي موسى، وكانت وفاته في التيه في سابع آذار لمضي ألف وست مئة وست وعشرين سنة من الطوفان، وكان موته بعد هارون أخيه بأحد عشر شهراً، وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وولد موسى لمضي ألف وخمس مئة وست سنين من الطوفان، وكان عمره لما خرج ببني إسرائيل ثمانين سنة، وأقام في التيه أربعين سنة، فيكون عمر موسى مئة وعشرين سنة.

ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ أربع مئة مرة، وكان جملة مقام بني إسرائيل بمصر حتى أخرجهم موسى مئتين وخمس عشرة سنة.

* * *

١٢ ـ ذكر يوشع عليه السلام

ولما مات موسى ـ عليه السلام ـ قام بتدبير بني إسرائيل يوشعُ بنُ نون بن اليشاماع بن عميهوذ بن لعدان بن تاجن بن تايح بن راشف بن راغ ابن بريفا بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب، وأقام ببني إسرائيل في التيه ثلاثة أيام، ثم ارتحل إلى الشريعة، وهو النهر الذي بالغَوْر، واسمه الأُردُنّ في عاشر نيسان من السنة التي توفي فيها موسى ـ عليه السلام ـ، فلم يوجد للعبور سبيل، فأمر حاملي[1] صندوق الشهادة الذي فيه الألواح بأن ينزلوا إلى حافة الشريعة، فوقفت الشريعة حتى انكشفت أرضها، وعبر بنو إسرائيل، ثم عادت الشريعة إلى ما كانت عليه، ونزل يوشع ببني إسرائيل على أريحا محاصراً لها، وصار في كل يوم يدور حولها مرة، وفي اليوم السابع أمر بني إسرائيل أن يطوفوا حولها سبع مرات، وأن يصوتوا بالقرون، فلما فعلوا ذلك، هبطت الأسوار ورسخت، وتساوت الخنادق، ودخل بنو إسرائيل أريحا بالسيف، وقتلوا أهلها.

وبعد فراغه سار إلى نابلس إلى المكان الذي بيع فيه يوسف، فدفنَ عظامَ يوسفَ هناك، وكان موسى قد استخرج يوسفَ من نيل مصر، واستصحبه معه إلى التيه، فبقي معهم أربعين سنة، وتسلَّمه يوشع.

وملك يوشعُ الشامَ، وفرَّق عُمَّاله، واستمر يدبر بني إسرائيل ثمانياً وعشرين سنة، ثم توفي يوشع، ودفن في كفر حارس، وله من العمر مئة

---

(١) في الأصل: «فأمرهم حامل».

وعشر سنين، وكانت وفاته سنة ثمان وعشرين لوفاة موسى، وقيل: إنه مدفون في المَعَرَّة، ثم تولى على بني إسرائيل جماعـة من الملوك واحداً بعد واحد.

* * *

ثم تولى عليهم:

١٣ ـ شَمْويل النبي عليه السلام

ولد بقرية على باب القدس يقال لها: شيلوا، وتنبأ لما صار لـه من العمر أربعون سنة، فدبر شمويل بني إسرائيل إحدى عشرة سنة، ومنتهى هذه الإحدى عشرة سنة هي آخر سني [حكَّام] بني إسرائيل وقضاتهم، فيكون انقضاء سني حكامهم في سنة ثلاث وتسعين وأربع مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ.

ثم حضر بنو إسرائيل إلى شمويل، وسألوه أن يقيم فيهم ملكاً، فأقام فيهم: شاول، [وهو طالوت] بن قيش من سبط بنيامين، ولم يكن طالوت من أعيانهم، قيل: إنـه كان راعياً، وقيل: سَقَّاء، وقيل: دباغاً، فملك طالوتُ سنتين، واقتتل هو وجالوت، وكان جالوت من جبابرة الكنعانيين، وكان ملكه بجهات فلسطين، وكان من الشدة وطول القامة بمكان عظيم، فلما برز للقتال، طلب طالـوتُ داودَ ـ عليـه السلام ـ، وكان أصغر بني أبيه، وأمره بمبارزة جالوت بعد أن رأى فيه العلائم التي يُسْتَدل بها على أنه هو الذي يقتل جالوت، وهي دهن كان يستدير على رأس من يكون

فيه السر، وأحضر ـ أيضاً ـ تنوراً جديداً، وقال: الشخصُ الذي يقتل جالوتَ يكون ملء هذا التنور، فلما اعتبر داود، ملأ التنور، واستدار الدهنُ على رأسه، ولما تحقق ذلك بالعلامة، أمره طالوتُ بمبارزة جالوتَ، فبارزه، وقتل داودُ جالوتَ، وكان عمر داود آنذاك ثلاثين سنة.

ثم بعد ذلك مات شمويل، فدفنه بنو إسرائيل في الليل، وناحوا عليه، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

ثم إن طالوت قصد الفلسطينيين للغزاة، وقاتلهم حتى قُتل هو وأولاده في الغزاة، فيكون موته في أواخر سنة خمس وتسعين وأربع مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ.

ثم ملك بعده ولده أشر يوشت ثلاث سنين.

* * *

ثم ملك عليهم:

١٤ ـ داود عليه السلام

هو داود بن بيشا بن عوفيذ بن بوعز بن سلمون نحشون بن عميناذاب ابن رم بن حَصْرون بن بارص بن يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ.

وكان مقام داود بحبرون، فلما استوثق له الملك، ودخلت جميع الأسباط تحت طاعته، وذلك في سنة ثمان وثلاثين من عمره، انتقل إلى

القدس، ثم فتح في الشام فتوحات كثيرة، ثم أرض فلسطين، وحلب، وبلاد الأرمن، وغير ذلك، ولما صار لداود ثمان وخمسون سنة ـ وهي السنة الثانية والعشرون من ملكه ـ، كانت قصته مع أُوريا وزوجته، وهي مشهورة، وملك داود أربعين سنة، وكان لقمانُ الحكيمُ على عهد داود ـ عليه السلام ـ.

ولما صار له سبعون سنة، توفي، فتكون وفاته في أواخر سنة خمس وثلاثين وخمس مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ.

وأوصى قبل موته بالملك إلى سليمان ولـده، وأوصى بعمارة بيت المقدس، وعين لذلك عـدة بيـوت أموال تحتوي على جمل كثيرة من الذهب.

* * *

فلما مات داود، ملك:

١٥ ـ سليمان عليه السلام

وعمره اثنتا عشرة سنة، آتاه الله من الملك والحكمة ما لم يؤته لأحد سواه ـ على ما أخبر الله تعالى بـه في محكم كتابـه العزيز ـ، وفي السنة الرابعة من ملكه في شهر أيار، وهي سنة تسع وثلاثين وخمس مئة لوفاة موسى ـ عليـه السلام ـ، ابتـدأ سليمان ـ عليـه السلام ـ في عمارة بيت المقدس حسب ما تقدمت به وصية أبيه إليه، وأقام سليمان في عمارة بيت

المقدس سبع سنين، وفرغ منه في السنة الحادية عشرة من ملكه، فيكون الفراغ من عمارة بيت المقدس في أواخر سنة ست وأربعين وخمس مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ.

وكان ارتفاع البيت الذي عمره سليمان ثلاثين ذراعاً، [وطوله ستين ذراعاً]، في عرض عشرين ذراعاً، وعمل خارج البيت سوراً محيطاً به امتداده خمس مئة ذراع.

«ولما بنى سليمانُ بيتَ المقدس، سأل الله ثلاثاً: سأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسأله حكماً يوافق حكمَه، وسأله أنه لا يأتي أحدٌ هذا البيت لا يريد إلا الصلاة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه»[1]، ولهذا كان عبدالله بن عمر يأتي بيت المقدس، فيدخل فيصلي ركعتين، ثم يخرج ولا يشرب فيه، كأنه يطلب دعوة سليمان.

ولما فرغ سليمان من بنائه، شرع في بناء دار مملكته بالقدس، واجتهد في عمارتها وتشييدها، وفرغها في مدة ثلاث عشرة سنة، وانتهت عمارتها في السنة الرابعة والعشرين من ملكه.

وفي السنة الخامسة والعشرين من ملكه جاءته بلقيس ملكةُ اليمن ومن معها، وأطاعه جميع ملوك الأرض، وحملوا إليه نفائس أموالهم، واستمر سليمان على ذلك حتى مات وعمره اثنتان وخمسون سنة، فكانت

---

(١) رواه النسائي (٦٩٣)، وابن ماجه (١٤٠٨)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

مدة ملكه أربعين سنة، فتكون وفاة سليمان ـ عليه السلام ـ في أواخر سنة خمس وسبعين وخمس مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ، ثم ملك بعده جماعة من أولاده.

* * *

ثم تولى:

١٦ ـ بُخْتَنَصَّر

وكان ابتداء ولايته في سنة تسع وسبعين وتسع مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ، وفتح بلاداً، وملكها، ثم جهز الجيوش مع وزيره، واسمه نَبُوزَرَاذُون ـ بفتح النون وضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الزاي والراء المهملة وسكون الألف وضم الذال المعجمة وسكون الواو وفي آخره نون ـ جهزه إلى حصار صدقيا بالقدس، فسار الوزير المذكور بالجيوش، وحاصر صدقيا صاحبَ القدس مدة سنتين ونصف، أولها عاشر تموز من السنة التاسعة لملك صدقيا، وأخذ بعد حصاره المدة المذكورة القدسَ بالسيف، وأخذ صدقيا أسيراً، وأخذ معه جملة كثيرة من بني إسرائيل، وأحرق القدس، وهدم البيت الذي بناه سليمان، وأحرقه، وأباد بني إسرائيل قتلاً وتشريداً، فكانت مدة ملك صدقيا نحو إحدى عشرة سنة، وهو آخر ملوك بني إسرائيل.

وأما من تولى بعده من بني إسرائيل بعد إعادة عمارة بيت المقدس،

فإنما كان له الرياسة ببيت المقدس فقط، فيكون انقضاء ملوك بني إسرائيل وخراب بيت المقدس على يد بختنصر سنة عشرين من ولاية بختنصر ـ تقريباً ـ، وهي السنة التاسعة والتسعون بعد التسع مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ، وهي سنة ثلاث وخمسين وأربع مئة مضت من عمارة بيت المقدس، وهي مدة لبثه على العمارة.

واستمر بيت المقدس خراباً سبعين سنة، ثم عمره بعض ملوك الفرس، واسمه عند اليهود كُورش.

ولما عادت عمارته، تراجع إليه بنو إسرائيل من العراق وغيره، فكانت عمارته في أول سنة تسعين لابتداء ولاية بختنصر، ولما تراجع بنو إسرائيل إلى القدس، كان من جملتهم عُزَير، وكان بالعراق، وقدم معه من بني إسرائيل ما يزيد على ألفين من العلماء وغيرهم، وترتب مع عزير في القدس مئة وعشرون شيخاً من علماء بني إسرائيل، وكانت التوراة قد عدمت منهم إذ ذاك، فمَثَّلها اللهُ في صدر عزير ـ عليه السلام ـ، ووضعها لبني إسرائيل يعرفونها بحلالها وحرامها، فأحبوه حباً شديداً، وأصلح العزير أمرهم، وأقام بينهم على ذلك، ولبث مع بني إسرائيل في القدس يدبر أمرهم حتى توفي بعد مضي أربعين سنة لعمارة بيت المقدس، فتكون وفاته سنة ثلاثين ومئة لابتداء ولاية بختنصر.

واسم العزير بالعبراني عزرا، وهو من ذرية هارون بن عمران، ولما تراجع بنو إسرائيل إلى القدس بعد عمارته، صار لهم حكام منهم، وكانوا تحت حكم ملوك الفرس، واستمروا على ذلك حتى ظهر الإسكندر في

سنة خمس وثلاثين وأربع مئة لولاية بختنصر، وغلب اليونان على الفرس، ودخل حينئذ بنو إسرائيل تحت حكم اليونان، وأقام اليونان من بني إسرائيل ولاة عليهم، وكان يقال للمتولي عليهم: هرودوس، واستمر بنو إسرائيل على ذلك حتى خرب بيت المقدس الخراب الثاني، وتشتت منه بنو إسرائيل.

* * *

١٧ ـ ذكر يونس بن مَتَّى عليه السلام

ومَتَّى أُمُّ يونس، ولم يشتهر نبي بأمه غير عيسى، ويونس ـ عليهما السلام ـ، وكانت بعثته بعد مُوثَم بن غبرياهو أحدِ ملوك بني إسرائيل.

وبعث الله يونسَ إلى أهل نينوى، وهي قبالة الموصل، بينهما دجلة، وكانوا يعبدون الأصنام، فنهاهم، وأوعدهم العذاب في يوم معلوم إن لم يتوبوا، وضمن ذلك عن ربه ﷻ، فلما أظلَّهم العذاب، آمنوا، فكشفه الله عنهم، وجاء يونس لذلك اليوم، فلم ير العذابَ حلَّ، ولا علمَ بإيمانهم، فذهب مغاضِباً، ودخل في سفينة من سفن دجلة، فوقفت السفينة ولم تتحرك، فقال ريِّسها: فيكم من له ذنب، وتساهموا على من يلقونه في البحر، فوقعت المساهمة على يونس، فرموه، فالتقمه الحوت، وسار به إلى الأُبُلَّة[1]، وكان من شأنه ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز.

---

(١) في الأصل: «الأيكة».

وكانت وفاة يونس في سنة خمس عشرة وثماني مئة لوفاة موسى ـ عليه السلام ـ[1].

* * *

١٨ ـ ذكر أرمياء عليه السلام

كان أرمياء يأمر بني إسرائيل بالتوبة، ويتهددهم ببختنصر، وهم لا يلتفتون إليه، فلما رأى أنهم لا يرجعون عما هم فيه، فارقهم، واختفى حتى غزاهم بختنصر، وخرَّب القدس.

ثم إن الله تعالى أوحى إلى أرمياء: أني عامر بيت المقدس، فاخرج إليها، فخرج أرمياء، وقَدِمَ إلى القدس وهي خراب، فقال في نفسه: سبحان الله! أمرني الله أن أنزل هذه البلدة، وأخبرني أنه عامرها، فمتى يعمرها؟ ومتى يحييها الله تعالى بعد موتها؟ ثم وضع رأسه فنام، ومعه حمارُه وسلَّة فيها طعام، وكان من قصته ما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز في قوله: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ

---

(١) الذي في «المختصر» ذكر وفاة يوثم، وليس ذكر وفاة يونس ـ عليه السلام ـ، وقال: إن الله بعث يونس في تلك المدة. انظر: «المختصر» لأبي الفداء الحموي (١/ ٣٢).

يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٥٩].

وقد قيل: إن صاحب هذه القصة هو العزير، والأصح أنه أرمياء.

* * *

ولما مات الإسكندر، ملك بعده بطليموس بن لاغوس عشرين سنة، ثم ملك بعده بطليموس محب أخيه، وهو الذي نقلت له التوراة وغيرها من كتب الأنبياء من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية، فيكون نقل التوراة بعد عشرين سنة لموت الإسكندر، فنسخة التوراة المنقولة لبطليموس حينئذ أصح نسخ التوراة وأثبتها، وقد تقدمت الإشارة لذلك، والله أعلم.

* * *

١٩ ـ ذكر زكريا وابنه يحيى عليهما السلام

وزكريا من ولد سليمان بن داود، وكان نبياً، ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وكان نجاراً، وهو الذي كَفَلَ مريمَ أمَّ عيسى، وكانت مريم بنتُ عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود، وكانت أم مريم اسمها حَنَّة، وكان زكريا متزوجاً أختَ حنةَ، واسمها إيشاع، فكانت زوجُ زكريا خالةَ مريم، ولذلك كفل زكريا مريم.

فلما كبرت مريم، بنى لها زكريا غرفة في المسجد، وانقطعت فيها للعبادة، وكان لا يدخل عليها غيرُ زكريا فقط، وأرسل الله تعالى جبريل، فبشر زكريا بيحيى مصدقاً بكلمة من الله تعالى ـ يعني: عيسى بن مريم ـ، ثم أرسل الله جبريل، ونفخ في جيب مريم، فحملت بعيسى، وكانت قد حملت خالتها إيشاع بيحيى، فولد يحيى قبل المسيح بستة أشهر، ثم ولدت مريم عيسى، فلما علمت اليهود أن مريم ولدت من غير بعل، اتهموا زكريا بها، وطلبوه، فهرب، واختفى في شجرة عظيمة، فقطعوا الشجرة، وقطعوا زكريا معها، وكان عمره حينئذ نحو مئة سنة.

وكان قتْلُه بعد ولادة المسيح، وكانت ولادة المسيح لمضي ثلاث مئة وثلاث سنين للإسكندر، فيكون مقتل زكريا بعد ذلك بقليل.

وأما يحيى ابنه، فإنه نبئ وهو صغير، ودعا الناسَ إلى العبادة عبادةِ الله، ولَبِس يحيى الشعر، واجتهد في العبادة حتى نحل جسمُه، وكان عيسى بن مريم قد حرَّم نكاحَ بنتِ الأخ، وكان لهرودوس ـ وهو الحاكم على بني إسرائيل ـ بنتُ أخ، وأراد أن يتزوجها كما هو جائز في دين اليهود، فنهاه يحيى عن ذلك، فطلبت أم البنت من هرودوس أن يقتل يحيى، فلم يجبها إلى ذلك، فعاودته، وسألته البنت ـ أيضاً ـ، وألحَّتْ عليه، فأجابها إلى ذلك، وأمر بيحيى فذبح، وكان قتل يحيى قبل رفع المسيح بمدة يسيرة؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ إنما ابتدأ بالدعوة لما صار له ثلاثون سنة.

ولما أمره الله أن يدعوَ الناس إلى دين النصارى، غمسه يحيى في

نهر الأردن، ولعيسى نحو ثلاثين سنة، وخرج من نهر الأردن، وابتدأ بالدعوة، وجميع ما لبث المسيح بعد ذلك ثلاث سنين، والنصارى تسمي يحيى ـ عليه السلام ـ: يوحنا المَعْمَدان؛ لكونه عمَّد المسيح ـ كما ذكر ـ.

* * *

٢٠ ـ ذكر عيسى بن مريم عليه السلام

وأما مريم: فاسم أمها حَنَّة زوجُ عمران، وكانت حنة لا تلد، واشتهت الولد، فدعت بذلك، ونذرت إن رزقها الله ولداً، جعلته من سَدَنة بيت المقدس، فحملت حنة، وهلك زوجها عمران وهي حامل، فولدت بنتاً، وسمتها: مريم، ومعناه: العابدة، ثم حملتها، وأتت بها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار، وقالت: دونكم هذه المنذورة، فتنافسوا فيها؛ لأنها بنتُ عمران، وكان من أئمتهم، فقال زكريا: أنا أحقُّ بها؛ إن خالتها زوجتي، فأخذها، وضمها إلى إيشاع خالتها، فلما كبرت، أفرد لها غرفة ـ كما تقدم ـ، وولدت عيسى ـ عليه السلام ـ ببيت لحم، وهي قرية قريبة من القدس سنة أربع وثلاث مئة لغلبة الإسكندر.

ولما جاءت مريم بعيسى تحمله، قال لها قومها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[مريم: ٢٧]، وأخذوا الحجارة ليرجموها، فتكلم عيسى وهو في المهد مُعَلَّقاً في منكبها، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[مريم: ٣٠ ـ ٣١]، فلما سمعوا كلام ابنها، تركوها.

ثم إن مريم أخذت عيسى، وسارت بـه إلى مصر، ثم عاد عيسى وأمه إلى الشام، ونزلا الناصرة، وبها سميت النصـارى، وأقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة، فأوحى الله تعالى إليه، وأرسله إلى الناس، وصار إلى الأردن، وهو نهر الغور المسمى بالشريعة، فاعتمد، وابتدأ بالدعوة، وكان يحيى بن زكريا هـو الذي عمَّـدَه، وكان ذلك لستة أيام خلت من كانون الثاني لمضي سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة للإسكندر.

وأظهر عيسى المعجزات، فأحيا ميتاً، وجعل من الطين طائراً ـ قيل: هو الخفاش ـ، وأبرأ الأكْمَه والأبرص، وكان يمشي على الماء، وأنزل الله عليه المائدة، وأوحى الله إليه الإنجيل.

وكان الحواريون الـذين اتبعـوه اثني عشر رجـلاً، وهـم: شمعون الصفـا، وشمعون العتاني[1]، ويعقوب بن ربدي[2]، ويعقوب بن خلفي وقولوس[3]، ومارقوس، وأندرواس، وتمريلا، ويوحنـا، ولوقا، وتوما، ومتى.

وهؤلاء الذين سألوه نزول المائدة، فسأل عيسى ربه، فأنزل عليه سفرة حمراء مغطاة بمنديل، فيها سمكة مشوية، وحولها البقول ما عدا الكُرَّاث، وعند رأسها ملح، وعنـد ذنبها خل، ومعها خمسة أرغفة على

---

(١) في الأصل: «القناني».

(٢) في الأصل: «زيدي».

(٣) في الأصل: «وقوليس».

بعضها زيتون، وعلى باقيها رمان وتمر، فأكل منها خلق كثير ولم تنقص، ولم يأكل منها ذو عاهة إلا برِئ، وكانت تنزل يوماً، وتغيب يوماً، أربعين ليلة.

وكانت اليهود قد جاءت في طلبه، فحضر بعض الحواريين إلى هرودُوس الحاكم على اليهود، وإلى جماعة من اليهود وقال: ما تجعلون لي إذا دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها، ودلهم عليه، فرفع اللهُ المسيحَ إليه، وألقى شِبْهه على الذي دلَّهُم عليه.

وقد اختلف العلماء في موته قبل رفعه: قيل: رفع، ولم يمت.

وقيل: بل توفاه الله ثلاث ساعات.

وقيل: سبع ساعات، ثم أحياه الله.

وتأول قائل هذه المقالة قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥].

ولما أمسك اليهود الشخص المشبه به، ربطوه، وجعلوا يقودونه بحبل، ويقولون له: إن كنت تحيي الموتى، أفلا تخلص نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون في وجهه، ويلقون عليه الشوك، وصلبوه على الخشب، فمكث عليه ست ساعات، ثم استوهبه يوسفُ النجارُ من الحاكم الذي كان على اليهود، وكان اسمه فيلاطوس، ولقبه هرودوس، ودفنه في قبر كان يوسف المذكورُ أعدَّه لنفسه.

وأنزل الله المسيحَ من السماء إلى أمه مريم، وهي تبكي عليه، فقال

لها: إن الله رفعني إليه، ولم يصبني إلا الخير، وأمرها، فجمعت له الحواريين، فبعثهم في الأرض رسلاً عن الله، وأمرهم أن يبلغوا عنه ما أمره الله به، ثم رفعه الله إليه، وتفرق الحواريون حيث أمرهم.

وكان رفعُ المسيح لمضيٍّ ثلاث مئة وست وثلاثين سنة من غلبة الإسكندر على دارا، وكان بين رفع المسيح ومولد النبي ﷺ خمسُ مئة وخمس وأربعون سنة تقريباً.

وعاش المسيح إلى أن رُفِعَ ثلاثاً وثلاثين سنة، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ عشر مرات.

وأما أُمَّة عيسى، فهم النصارى.

وأما مريم أم عيسى، فإنها عاشت نحو ثلاث وخمسين سنة؛ لأنها حملت بالمسيح لما صار لها ثلاث عشرة سنة، وعاشت معه مجتمعة ثلاثًا وثلاثين سنة وكسراً، وبقيت بعد رفعه ست سنين.

* * *

٢١ ـ ذكر خراب بيت المقدس

الخراب الثاني، وهلاك اليهود، وزوال دولتهم زوالاً لا رجوع بعده.

قد تقدم ذكر عمارة سليمان بيت المقدس، وفراغه منه، وذكر غزو بختنصر القدس حتى خرَّبه، وشتت بني إسرائيل في البلاد، وأنه استمر خراباً سبعين سنة، ثم عُمِّر، فيكون ابتداء عمارته الثانية لمضي ألف وسبع

وستين، أعني: في ثمان وستين بعد الألف لوفاة موسى، ولمضي تسع وثمانين سنة من ابتـداء ملك بختنصر، فتكون عمارتـه في سنة تسعين من مُلك المذكور.

ثم تراجع إليه بنو إسرائيل، وصاروا تحت حكم الفرس، ثم صاروا تحت حكم اليونان ـ كما تقدم بعد ذكر بختنصر ـ، واستمر بنو إسرائيل كذلك حتى قتلوا زكريا بعد ولادة المسيح ـ كما تقدم ذكره ـ، ثم لما ظهر المسيح، ودعا الناس بما أمره الله بـه، أراد هرودوس قتله، وكان اسم هرودوس: فيلاطوس، فرفع الله عيسى إليه، وكان منه ما تقدم.

ثم تولى جماعة من الملوك واحداً بعد واحدٍ إلى أن ملك طيطوس، وفي السنة الأولى من ملكه قصد بيت المقدس، وأوقع باليهود، وقتلهم وأسرهم عن آخرهم، إلا من اختفى، وخرب بيـت المقدس، وأحرق الهيكل، وأحرق كتبهم، وخلا القـدس من بني إسرائيل، كـأنْ لم تَغْنَ بالأمس، ولم تعد لهم بعد ذلك رياسة ولا حكم، وكان ذلك بعـد رفع عيسى المسيح بنحو أربعين سنة، وثلاث مئة وست وسبعين سنة مضت من غلبة الإسكندر، ولثماني مئة وإحدى عشرة سنة مضت لابتداء ملك بختنصر، فيكون لبثُ بيت المقدس على عمارته الأولى إلى حين خربه بختنصر أربع مئة وثلاثـاً وخمسين سنة، ثم لبث على التخريب سبعين سنة، ثم عُمِّر، ولبث على عمارته الثانية إلى حين خربه طيطوس التخريب الثاني سبع مئة وإحدى وعشرين سنة، ثم بعد أن خربه طيطوس التخريب الثاني، تراجع إلى العمارة قليلاً قليلاً، وترمَّمَ شعثـه، واستمـر عامراً،

وهي **عمارته الثالثة** حتى سارت هيلانة أم قسطنطين إلى القدس في طلب خشبة المسيح التي زعم النصارى أن عيسى صلب عليها، ولما وصلت إلى القدس، بَنَتْ [كنيسة] قمامة على القبر الذي تزعُم النصارى أن عيسى دُفن به، وخربت هيكل بيت المقدس إلى الأرض، فأمرت أن يلقى في موضعه قمامات البلد وزبالاته، فصار موضع الصخرة مزبلة، وبقي الحال على ذلك حتى قدم عمر بن الخطاب ﷺ، وفتح القدس في سنة خمس عشرة من الهجرة الشريفة، فدَلَّه بعضهم على موضع الهيكل، فنظفه عمر من الزبايل، وبنى به مسجداً، وبقي ذلك المسجد إلى أن تولى الوليد بن عبد الملك الأموي، فهدم ذلك المسجد، وبنى على الأساس القديم المسجدَ الأقصى، وقبةَ الصخرة وبنى هناك قباباً ـ أيضاً ـ يسمى بعضها: قبة الميزان، وبعضها: قبة المعراج، وبعضها: قبة السلسلة، والأمر على ذلك إلى يومنا هذا.

وخلاصة ما ذكر: أن هيكل بيت المقدس عمره **سليمان بن داود**، وبقي عامراً حتى خربه بختنصر، وهو التخريب الأول، ثم عمره كورش، وهي **عمارته الثانية**، وبقي حتى خربه طيطوس التخريب الثاني، ثم تراجع إلى العمارة قليلاً قليلاً حتى خربته هيلانة أم قسطنطين **التخريب الثالث**، ثم عمره عمر بن الخطاب ﷺ، وهي **عمارته الرابعة**، ثم خرب ذلك، وعمره الوليد بن عبد الملك، وهي **عمارته الخامسة**، وهو على ذلك إلى يومنا هذا.

* * *

٢٢ ـ ذكر أُمَّة اليهود

قد تقدم ذكر موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وقد تقدم ـ أيضاً ـ ذكر يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليهم السلام ـ.

ويعقوب هو إسرائيل، وكان لإسرائيل المذكور اثنا عشر ابناً تقدم ذكرُهم عند ذكر إسحاق ـ عليه السلام ـ، وهم: روبيل، ثم شمعون، ثم لاوي، ثم يهوذا، ثم يساخر، ثم زبولون، ثم يوسف، ثم بنيامين، ثم دان، ثم نفتالي، ثم كاذ، ثم أشر، وهؤلاء الاثنا عشر كانوا أسباط بني إسرائيل، وجميع بني إسرائيل أولاد الاثني عشر المذكورين.

وأُمة اليهود أعمُّ من بني اسرائيل؛ لأن كثيراً من أجناس الفرس والعرب والروم وغيرهم صاروا يهوداً، ولم يكونوا من بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه الملة، وغيرهم دخيل فيها، فلذلك لا يقال لكل يهودي: إسرائيلي.

وأما اسم اليهود، فمعناه: هاد الرجل؛ أي: رجع وتاب، وإنما لزمهم هذا الاسم؛ لقول موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٥٦]؛ أي: رجعنا إليك، وتضرَّعْنا.

وكتابهم التوراة، وقد اشتملت على أسفار، فذكر في السِّفْرِ الأول: مبتدأ الخلق، ثم ذكر الأحكام والحدود والأحوال والقصص، والمواعظ والأذكار في سفر سفر.

وأنزل على موسى ـ عليه السلام ـ الألواح أيضاً، وهي ستة،

مختصر ما في التوراة.

وافترقت اليهود فرقاً كثيرة:

فالربانية منهم كالمعتزلة فينا، **والقراؤون** كالمجبرة والمشبهة فينا.

ومن فرق اليهود: **العانانية** نُسبوا إلى رجل منهم يقال له: عانان بن داود، فمن مذهب العانانية المذكورين: أنهم يصدقون المسيح في مواعظه وإشاراته، ويقولون: إنه لم يخالف التوراة البتة، بل قرَّرَها، ودعا الناس إليها، وهو من أنبياء بني إسرائيل المتعبدين بالتوراة، إلا أنهم لا يقولون بنبوته.

ومنهم من يدعي أن عيسى لم يدَّعِ أنه نبي مرسل، ولا أنه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى ـ عليه السلام ـ، بل هو من أولياء الله المخلصين، وأن الإنجيل ليس كتاباً منزلاً عليه وحياً من الله تعالى، بل هو جميع أحواله، جمعه أربعة من أصحابه، واليهود ظلموه أولاً حيث كذبوه، ولم يعرفوا بعد دعوته، وقتلوه آخراً، ولم يعلموا محله ومغزاه.

وقد ورد في التوراة ذكر المسيحا في مواضع كثيرة، وهو المسيح.

وأما **السامرة**، فمنهم فرقة يقال لها: الدستانية، وتسمى ـ أيضاً ـ: الغانية.

ومنهم فرقة يقال لها: كوشانية، ولهم أعياد واعتقادات لا حاجة إلى ذكرها.

* * *

٢٣ ـ ذكر أُمَّة النصارى

وهم أُمة المسيح.

واتفقت النصارى على أن المسيح قتله اليهود وصلبوه، ويقولون: إن المسيح بعد أن قُتل وصلب، ومات، عاش، فرأى شخصَه شمعونُ الصفا، وكلَّمَه، وأوصى إليه، ثم فارق الدنيا، وصعد إلى السماء.

وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وكبارهم ثلاث فرق: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية.

وأما **الملكانية**: فهم أصحاب مَلْكا الذي ظهر في بلاد الروم، واستولى عليها، فصار غالب الروم ملكانية.

وأما **النسطورية**: فهم أصحاب نسطورس، وهم عند النصارى كالمعتزلة عندنا.

وأما **اليعقوبية**: وهم أصحاب يعقوب البردعاني، وكان راهباً بالقسطنطينية.

ولهم أعياد واعتقادات فاسدة ـ لعنة الله عليهم أجمعين ـ.

فمن الأمم التي دخلت في دين النصارى: أمة الروم.

* **ومنها: الأرمن**، وكانت بلادهم أرمينية، وقاعدة مملكتها خلاط.

* **ومنها: الكرج**: وبلادهم مجاورة لبلاد خلاط.

* **ومنها: الجركس**: والغالب عليهم دين النصارى.

* ومنها: **الفرنج**: وهم أمم كثيرة، وأصل قاعدة بلادهم فرنجة، وهي مجاورة لجزيرة الأندلس من شمالها، ويقال لملكهم: فرنسيس، وهو الذي قصد ديار مصر، وأخذ دمياط، ثم أسره المسلمون، ومَنُّوا عليه بالإطلاق، وكان ذلك بعد موت الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد في سنة ثمان وأربعين وست مئة للهجرة، وقد غلب الفرنج على معظم جزيرة الأندلس.

* ومنها: **الجلالقة**: أشد من الفرنج، وهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زِيِّهم: أنهم لا يغسلون ثيابهم، بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بغير استئذان، وهم كالبهائم، ولهم بلاد كثيرة في شمال الأندلس.

وأمم كثيرة مختلفة لا حاجة إلى ذكرهم في هذا المحل.

* * *

٢٤ ـ ذكر أمم الهند

وهم فرق كثيرة:

ومن فرقهم: **الباسوية**، زعموا أن لهم رسولاً مَلَكاً روحانياً، نزل بصورة البشر، فأمرهم بتعظيم النار، والتقرب إليها بالطيب والذبائح.

ومنهم: **اليهودية**، ومن مذهبهم: أن لايعافوا شيئاً؛ لأن الأشياء جميعها صنعُ الخالق، ويحرمون الذبائح، والنكاح.

ومنهم: عبدة الشمس.

ومنهم: عبدة القمر.

ومنهم: عبدة الأصنام، وهو معظمهم.

ومنهم: عباد الماء ويقال لهم: الجلهلينية، ويزعمون أن الماء ملك، وهو أصل كل شيء، فإذا أراد الرجل عبادة الماء، تجرد، وستر عورته، ثم دخل الماء حتى يصل إلى وسطه، فيقيم فيه ساعتين وأكثر، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين، فيقطعها صغاراً، ويلقيها في الماء، وهو يسبح ويقرأ، وإذا أراد الانصراف، حرك الماء بيده، ثم أخذ منه، فنقط على رأسه ووجهه، ثم يسجد وينصرف.

ومنهم: عباد النار.

ومنهم: البراهمة: أصحاب الفكرة؛ وهم أهل العلم بالفلك والنجوم، وإنما[1] سُمُّوا أصحاب الفكرة؛ لأنهم يعظمون أمر الفكر، ويقولون: هو المتوسط بين المحسوس والمعقول، والبراهمة لا يقولون بالنبوات، وينفونها بالكُلِّية.

ولا يرون إرسالَ الريح من بطونهم قبيحاً، والسعال عندهم أقبحُ من الضراط، والجشاءُ أقبح من الفساء، والزنا في دينهم مباح.

* * *

---

(١) في الأصل: «مهما».

٢٥ ـ ذكر أُمَّة السِّنْد

وهم غربي الهند، وبلاد السند قسمان:

قسم إلى جانب البحر، والمسلمون غالبون على هذا القسم.

والقسم الثاني في البر إلى جانب الجبل، وهي في أيدي الكفار، وأهلها يعبدون الأوثان.

* * *

٢٦ ـ ذكر أُمم السودان

وهم من ولد حام، وأديانهم مختلفة، فمنهم مجوس، ومنهم من يعبد الحيات، ومنهم أصحاب أوثان.

فمن أعظم الأمم: **الحُبش**، وبلادهم تقابل الحجاز، وبينهم البحر، وهم الذين ملكوا اليمن قبل الإسلام.

وخصيانُ الحبشة أفخرُ الخصيان.

ويجاور الحبشة من الجنوب: الزيلع، والغالب عليهم دين الإسلام.

ومن أمم السودان: النوبة، وهم يجاورون الحبشة من جهة الشمال والغرب، وهم جنوب حدود مصر، ويقال: إن لقمان الحكيم الذي كان مع داود النبي ـ عليه السلام ـ من النوبة، ومنهم ذو النون المصري، وبلال بن حمامة.

ومن أممهم: البجا، وهم شديدو السواد، عراة، ويعبدون الأوثان،

وفي بلادهم الذهب، وهم أهل أمن وحسن مرافقـة للتجار، وهم فوق الحبشة إلى جهة الجنوب على النيل.

ومن أممهم: الدمادم، وبلادهم على النيل، وهم تتـر السودان، ولهم أوثان وأوضاع مختلـة، وفي بلادهم الزرافات، وفي أرض الدمادم يفترق النيل إلى جهة مصر، وإلى الزنج.

ومن أممهم: الزنج وهم أشد السودان سواداً، ويحاربون راكبين البقر، ويعبدون الأوثان، والنيل ينقسم فوق بلادهم عند جبل المقسم.

ومن أممهم: التكرور: وهم على غربي النيل، وببـلادهم يكون الذهب، وهم كفار مهملون، ومنهم مسلمون.

ومن أممهم: الكانم، وأكثرهم مسلمون، وهم على النيل، وهم على مذهب مالك ﷺ.

وأم عانـة، وهي من أعظم مدن السـودان، يسافـر إليهـا التجار، ولا يجلبون منها إلا الذهب العين.

* * *

٢٧ ـ ذكر أمم الصين

وهي بلاد طويلة عريضـة، وهم أحسن الناس سياسـة، وأكثرهم عدلاً، وهم أهل مذاهب مختلفة، فمنهم مجـوس وأهـل أوثان، وهم أحذق خلق الله بنقش أو تصوير؛ بحيث يعمل الرجل الصيني بيده ما يعجز

عنه أهل الأرض، وأخبارهم منقطعة عنا.

* * *

٢٨ ـ ذكر بني كنعان

هم أهل الشام، وإنما سمي الشام شاماً؛ لسكنى سام بن نوح به، وسام اسمه بالعبرانية: شام ـ بشين معجمة ـ، وقيل: تشامت به بنو كنعان، فسمي شاماً.

* * *

٢٩ ـ ذكر البربر

قبائل البربر كثيرة جداً.

فمنهم: **كتامة**: وبلادهم الجبال من المغرب الأوسط، وكتامة [هم] الذين أقاموا دولة الفاطميين.

ومنهم: **صنهاجة**: ومن صنهاجة ملوك إفريقية.

ومنهم: **زناتة**: ولهم الفروسية والشجاعة.

ومنهم: **المصامدة**، وسكناهم في جبل درن، وهم الذين قاموا بنصرة المهدي[١].

---

(١) هو المهدي بن تومرت.

ومنهم: **برغواطة**، ومنازلهم في تامسنا، وجهات سَلاً على البحر المحيط.

والبربر مثل العرب في سكنى الصحارى، ولهم لسان غير العربي، ولغاتهم ترجع إلى أصول واحدة، وتختلف في فروعها، حتى لا يفهم بعضُهم من بعض إلا بتَرْجُمان.

* * *

٣٠ ـ ذكر العمالقة

وهم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام، ولما تبلبلت الألسن، نزلت العمالقة صنعاء من اليمن، ثم تحولوا إلى الحرم، وأهلكوا من قاتلهم من الأمم، وكان من العمالقة جماعة بالشام، وهم الذين قاتلهم موسى ـ عليه السلام ـ، ثم يوشع بعده، فأفناهم، وكان منهم فراعنةُ مصر، وكان منهم مَنْ ملكَ يثرب، وخيبر، وتلك النواحي.

* * *

٣١ ـ ذكر أمم العرب وأحوالهم قبل الإسلام

العرب الجاهلية أصناف:

فصنف أنكروا الخالق والبعث، وقالوا: بالطبع المحيي، والدهر المفني.

وصنف اعترفوا بالخالق، وأنكروا البعث.

وصنف عبدوا الأصنام، وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل، فمنهم: وَدٌّ، وسُواعٌ، ويَغوثُ، ويَعوقُ، ونَسْرٌ، واللاتُ، والعُزَّى، ومناة، وكان هُبَلُ أعظمَهم على ظهر الكعبة، وكان إسافٌ ونائلةُ على الصفا والمروة.

وكان منهم من يميل إلى اليهودية.

ومنهم من يميل إلى النصرانية.

وإلى الصابئة.

ومنهم من يعبد الملائكة.

ومنهم من يعبد الجن.

وكانت علومُهم علومَ الأنساب، والتواريخ، وتعبير الرؤيا، وكان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فيها يد طولى، وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت شريعة الإسلام بها، منها: عدم نكاح الأمهات والبنات، والجمع بين الأختين، ويعيبون المتزوج بامرأة أبيه، ويسمونه: الضَّيزَنْ، وكانوا يحجون البيت، ويعتمرون ويطوفون ويسعون، ويقفون المواقف كلها، ويرمون الجمار، وكانوا يكبسون في كل ثلاثة أعوام شهراً، ويغتسلون من الجنابة، ويداومون على المضمضة والاستنشاق، وفرق الرأس، والسواك، والاستنجاء، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، ويقطعون يد السارق اليمنى.

* * *

٣٢ ـ ذكر بني حِمْيَرِ بن سبأ

فمنهم: التبابعة ملوك اليمن.

ومنهم: قضاعة بن مالك، وكان مالكاً لبلاد الشحر، وقبره في جبل الشحر.

ومن قضاعة: كلب، وهم بنو كلب بن وبرة، وكـان بنو كلب في الجاهلية ينزلون دُومة الجندل، وتبوك، وأطراف الشـام، ومن مشاهير كلب: زهير بن خباب الكلبي، ومنهم زهير بن شريك الكلبي، ومنهم: حارثة الكلبي: وهو أبـو زيد بن حارثـة مولى رسول الله ﷺ، وكان قد أصاب ابنـه زيداً سباء في الجاهلية، فصار إلى خديجة زوجِ النبي ﷺ، فوهبته للنبي ﷺ، ثم اجتمع بزيد أبوه حارثة وهو عند النبي ﷺ، فَخَيَّره رسول الله ﷺ، فاختاره على أبيه وأهله[1].

ومن قضاعة: بلي.

ومن قضاعة: جهينة، وهي قبيلة عظيمة، ينسب إليها بطون كثيرة، وكانت منازلهم بأطراف الحجاز الشمالي من جهة بحر جدة.

ومن قبائل قضاعة: بنو سليح، وبنو نهد.

ومن مشاهير بني نهد: الصقعب بن عمرو النهدي، وهو أبو خالد ابن الصقعب، وكان ريساً في الإسلام.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٩٤٦)، عن زيد بن حارثة رضي الله عنه.

ومن بطون حمير: الشَّعبيُّ الفقيه، واسمه عامر.

* * *

٣٣ ـ ذكر بني كهلان بن سبأ

وصار من بني كهلان المذكور أحياء كثيرة، والمشهور منها سبعة، وهي: الأزد، وطَيّ، ومَذْحِج، وهَمْدَان، وكِندة، ومراد، وأنمار.

فقبائل **الأزد منهم**: الغساسنة ملوك الشام، وهم بنو عمرو بن مازن ابن الأزد.

ومن الأزد: الأوس والخزرج أهل يثرب، والمسلمون منهم هم الأنصار رضي الله عنهم.

* * *

٣٤ ـ قصة الفيل

قال ابن الأثير في «الكامل»: إن الحبشة ملكوا اليمن بعد حمير، فلما صار الملك إلى أَبرهة منهم، بنى كنيسة عظيمة، وقصد أن يصرف حجَّ العرب إليها، ويُبطل الكعبة الحرام، فجاء شخص من العرب، وأحدثَ في تلك الكنيسة، فغضب أبرهةُ لذلك، وسار بجيشه، ومعه الفيل، وقيل: كان معه ثلاثة عشر فيلاً؛ ليهدم الكعبة، فلما وصل إلى الطائف، بعث الأسودَ بنَ مقصود إلى مكة، فساق أموالَ أهلها، وأحضرها إلى أبرهة، وأرسل أبرهةُ إلى قريش، وقال لهم: لست أقصد الحرب،

بل جئت لأهدم الكعبة، فقال عبد المطلب: والله! ما نريد حربه، هذا بيت الله، فإن منع عنه، فهو بيته وحرمه، وإن خلى بينه وبينه، فوالله! ما عندنا مِنْ دفع.

ثم انطلق عبد المطلب مع رسول أبرهة إليه، فلما استؤذن لعبد المطلب[1]، قالوا لأبرهة: هذا من أكابر قريش، فأذن له أبرهة وأكرمه، ونزل عن سريره، وجلس معه، وسأله عن حاجته، فذكر عبد المطلب أباعره التي أُخِذت له، فقال له أبرهة: إني كنت أظن أنك تطلب مني أن لا أخرب الكعبة التي هي دينك، فقال عبد المطلب: أنا ربُّ الأباعر فأطلبها، وللبيت ربٌّ يمنعه، فأمر أبرهة بردِّ أباعره عليه، فأخذها عبد المطلب، وانصرف إلى قريش.

ولما قاربَ أبرهةُ مكةَ، وتهيأ لدخولها، بقي كلما قَبَّلَ فيلَه مكة ـ وكان اسم الفيل محموداً ـ ينام، ويرمي بنفسه إلى الأرض، ولم يسر، فإذا قَبَّلوه غيرَ مكة، قام يهرول.

وبينما هم كذلك إذ أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل أمثالَ الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار في منقاره ورجليه، فقذفتهم بها، وهي مثل الحمص والعدس، فلم تصب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، ثم أرسل الله تعالى سيلاً، فألقاهم في البحر، والذي سلم منهم وَلَّى هارباً مع أبرهة إلى اليمن يبتدر الطريق، وصاروا يتساقطون بكل

---

(١) في الأصل: «فلما استأذن على عبد المطلب».

مَنْهَل، وأصيب أبرهةُ في جسده، وسقطت أعضاؤه، ووصل إلى صنعاء كذلك، ومات.

ولما جرى ذلك، خرجت قريش إلى منازلهم، وغنموا من أموالهم شيئاً كثيراً.

ولما هلك أبرهة، ملك بعده ابنه يكسوم، ثم أخوه مسروق بن أبرهة، ومنه أخذت العجم اليمن، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

* * *

٣٥ ـ ذكر التاريخ الإسلامي

أما التواريخ، فكانت الأمم السالفة تؤرخ بالأحداث العظام، وتَمَلُّكِ الملوك، وأرَّخوا بهبوط آدم، ثم ببعث نوح، ثم بالطوفان، ثم بنار إبراهيم.

وأرخ **بنو إسحاق** بنار إبراهيم إلى [مبعث] يوسف، ومن [مبعث] يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى ملك سليمان بن داود، ثم بما كان من الكوائن، ومنهم من أرخ بوفاة يعقوب ـ عليه السلام ـ، ثم بخروج موسى من مصر ببني إسرائيل، ثم بخراب بيت المقدس.

وأما **بنو إسماعيل**، فأرخوا ببناء الكعبة، ولم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقوا، وكان كل من خرج منهم من تهامة يؤرخ بخروجه، ثم أرخوا بعام الفيل، ثم أرخوا بأيام الحروب.

وكانت **حمير** يؤرخون بملوكهم التبابعة.

وأما **اليونانيون والروم**، فأرخوا بظهور الإسكندر.

وأما **النبط**[1]، فكانوا يؤرخون بملك بختنصر.

وأما **المجوس**، فكانوا يؤرخون بقتل دارا، وظهور الإسكندر، ثم بظهور أزدشير، ثم بملك يَزْدجرد.

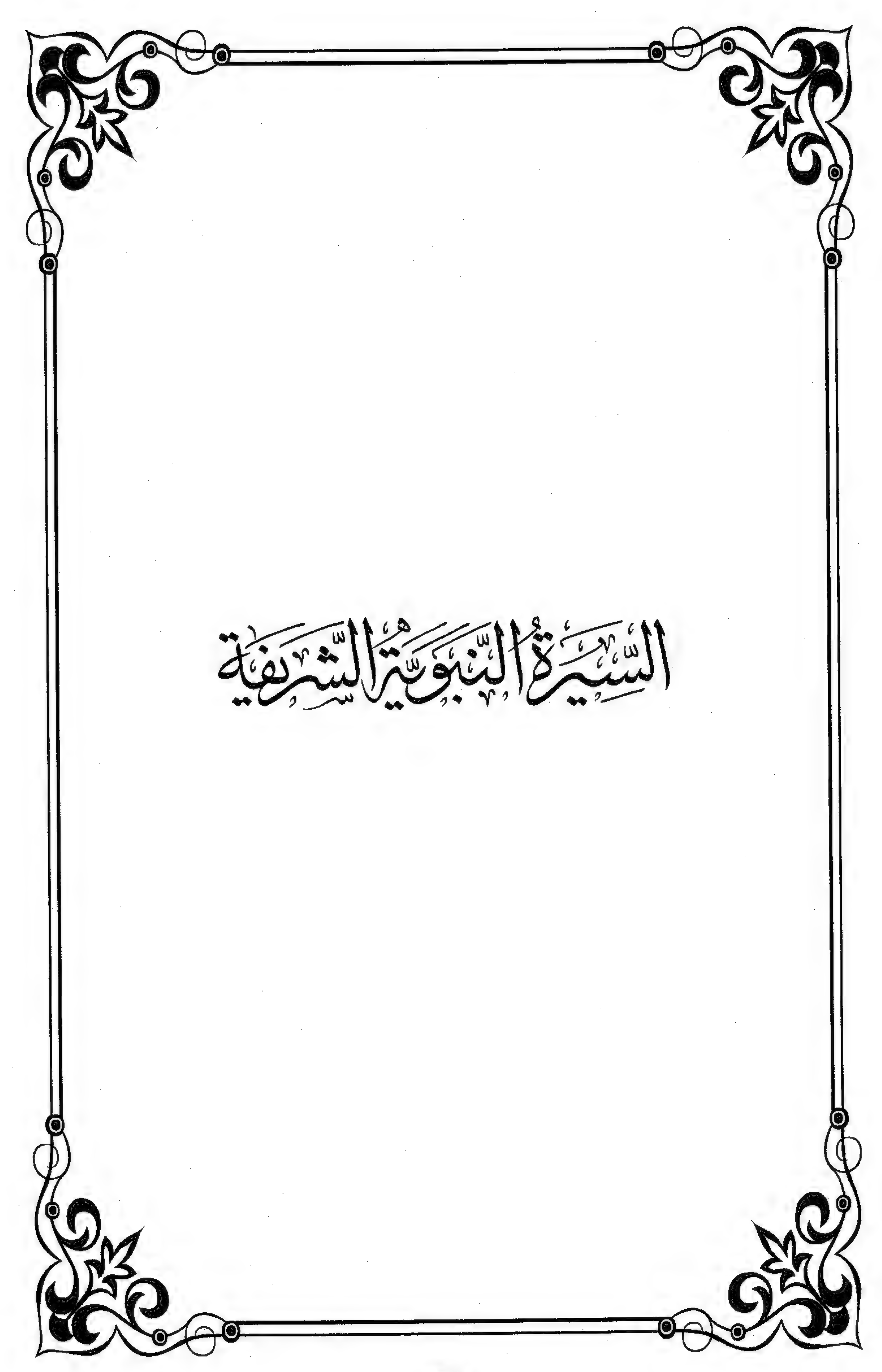
وولد سيدنا رسول الله ﷺ والعربُ تؤرخ بعام الفيل، ولم يزل التاريخ كذلك إلى أن ولي عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ الخلافةَ، فقرر الأمر على أن يؤرخوا بهجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، فجعلوا التاريخ من المحرم أول عام الهجرة[2].

❐ ❐ ❐

---

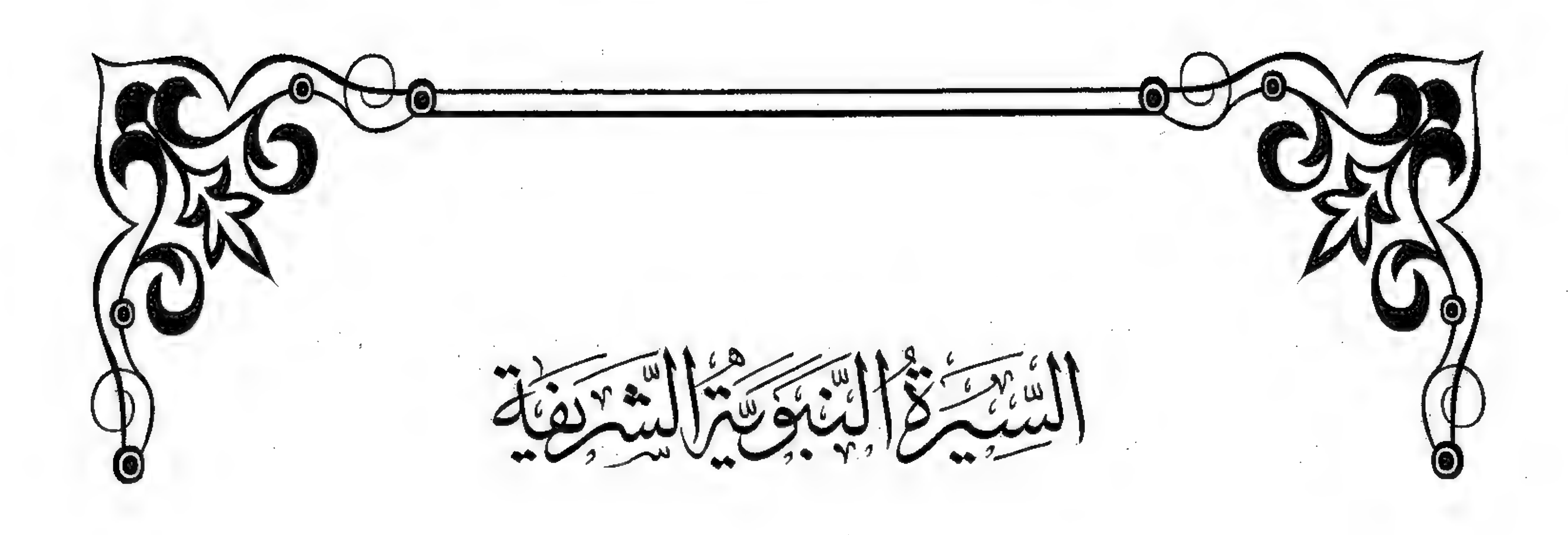
(١) في الأصل: «القبط».

(٢) انظر: «الأنس الجليل» للمؤلف (١/ ١٨٨).



السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ





ذكر سيد الأولين والآخرين
وخاتم الأنبياء والمرسلين وحبيب ربِّ العالمين
محمدٍ البشير النذير، الداعي إلى الله بإذنه السراج المنير ﷺ

هو أبو القاسم، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر.

ففهر المذكـور هو قريش، فكل من كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده، فليس قرشيًا.

وقيل: سمي قريشاً؛ لشدة شبهه بدابة من دواب البحر يقال لها: القِرْش، تأكل دواب البحر، وتقهرهم.

وقيل: إن قصي بن كلاب لما استولى على البيت، وجمـع أشتات بني فهر، سموا قريشاً؛ لأنه قَرَّشَ بني فهر؛ أي: جمعهم حول الحرم، فقيل لهم: قريش، فعلى هذا يكون لفظ قريش اسماً لبني فهر، لا لفهر نفسه.

وفهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركـة بن إلياس

ابن مُضر بن نزار بن مَعَدِّ بن عدنان، هذا هو المتفَقُ على صحته من غير خلاف.

وعدنانُ من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ من غير خلاف، ولكن الخلاف في عدة الآباء الذين بين عدنـان وإسماعيل ـ عليه السلام ـ، فعـدَّ بعضُهم بينهما نحـوَ أربعين رجلاً، وعدَّ بعضهم سبعة.

والمختار: أن عدنان بن أدد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبَت بن حمل بن قيذار، بن إسماعيل، بن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ابن تارح ـ وهو آزر ـ بن ناحور بن ساروغ بن رعون بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سـام بن نوح بن لامخ ـ ويقال: لامك ـ ابن متوشلح بن حنوخ ـ وهو إدريس ـ بن يرد، بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ـ عليه السلام ـ.

* * *

ذكر أسمائه ﷺ

فهي ثلاثـة وعشرون اسماً: محمد، أحمد، والماحي، والحاشر، والعاقـب، والمقفي، ونبي الـرحمـة، ونبي التـوبـة، ونبي الملاحم، والشاهد، والبشير، والنذير، والضحوك، والقَتَّال، والمتوكل، والفالح، والأمين، والخـاتم، والمصطفى، والرسول، والنبي والأمي، والقثم، قاله ابن الجوزي.

وذكر غيرُه أسماء كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية خشية أن تخرج عن حد الاختصار.

قال علماء السِّيَرِ والمؤرخون: كانت آمنة بنت وهب بن عبد مناف في حِجْر عمها وهيب بن عبد مناف، فمشى إليه عبد المطلب بن هاشم بابنه عبدالله، فخطب عليه آمنة بنت وهب، فعقد العقد، وأخذ الميثاق والعهد، ولم يُر مثل ذلك اليوم المشهود، الذي طلعت فيه نجوم السعود، وكملت المسرات وأضاء الوجود، ثم خطب عبدُ المطلب في مجلسه ذلك هالةَ بنتَ وهيب ابنةَ عم آمنة من أبيها لنفسه، فزَوَّجه إياها، فتزوج عبدُ المطلب وابنُه عبدالله في مجلس واحد.

فولدت هالةُ بنتُ وهيب لعبد المطلب: حمزةَ، والمقوم، وصفية أم الزبير.

ولما دخل عبدالله بآمنة، واجتمع شمله بشملها، ظهر صفاء يقينها، وطلع طالع سعد تمكينها، وحملت بسيد العالم، وأشرفِ بني آدم، وتلألأت الأنوار النبوية في غُرَّة آمنة التقية.

ثم خرج عبدالله بن عبد المطلب إلى الشام في عير من عيرات قريش يحملون تجارات، ففرغوا من تجارتهم، ثم انصرفوا، فمروا بالمدينة، وعبدالله بنُ عبد المطلب يومئذ مريض، فتخلف عند أخواله بني عَدِيٍّ بن النجَّار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، فتوفي ودُفِنَ في دار النَّابغة رجلٌ من بني عديٍّ بن النجار فأُخبر عبدُ المطلب بذلك، فوَجَدَ عليه عبدُ المطلب وإخوته وأخواته وَجْداً شديداً، ورسولُ الله ﷺ يومئذ ابنُ شهرين، وقيل:

كان حِمْلاً، ولعبدالله يوم توفي خمس وعشرون سنة.

وجميع ما خلَّفه عبدُالله: خمسة جمال، وجارية حبشية اسمها بركة، وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ.

ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين[1]، لعشر ليال خلون من ربيع الأول، وقيل: لاثنتي عشرة، وكان قدوم أصحاب الفيل قبل ذلك في النصف من المحرم، فبين الفيل وبين مولد رسول الله ﷺ خمس وخمسون ليلة[2]، وهي السنة الثانية[3] والأربعون من ملك كسرى أنوشروان، وهي سنة إحدى وثمانين وثماني مئة لغلبة الإسكندر على دارا، وهي سنة ألف وثلاث مئة وست عشرة لبختنصر، وهي سنة ستة آلاف ومئة وثلاث وستين من هبوط آدم على حكم التوراة اليونانية المعتمدة ـ على ما تقدم شرحه ـ.

ولد ﷺ مختوناً مسروراً، ففرح به عبد المطلب، وحظي عنده، وقال: لَيكونَنَّ لابني هذا شأن، فكان له شأن وأيُّ شأن ﷺ.

* * *

ذكر رضاع النبي ﷺ

أولُ من أرضع رسولَ الله ﷺ ثويبةُ بلبن ابنٍ لها يقال له: مسروح

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (١١٦٢).

(٢) انظر: «المسند» للإمام أحمد (٤/ ٢١٥).

(٣) انظر: «المختصر» (١/ ١١٠)، وفيه: «السنة الثامنة».

أياماً، قبل أن تقدم حليمة، وكانت قد أرضعت قبلَه حمزةَ بنَ عبد المطلب، وأرضعت بعدَه أبا سلمةَ بنَ عبد الأسد المخزومي، فحمزةُ عمُّ النبي ﷺ، وأبو سلمةَ أَخَوا رسولِ الله ﷺ من الرضاع.

ثم قدمت حليمة إلى مكة، وكانت المراضع يقدمْنَ من البادية إلى مكة يطلبن أن يُرضعن الأطفال، فقدمت عِدَّةٌ منهن، ولم تجد حليمةُ طفلاً تأخذه غيرَ رسول الله ﷺ، وكان يتيماً، فلذلك لم يرغبن في أخذه، فأخذته حليمةُ بنتُ أبي ذؤيبِ بنِ الحارث السعديةُ، وتسلَّمته من أمه آمنة، ومضت به إلى بلادها، وهي باديةُ بني سعد، فوجدت من الخير والبركة ما لم تعهده من قبل ذلك، ولما خرجت به حليمة إلى بلادها، قالت آمنة بنت وهب بن عبد مناف:

أُعِيذُهُ بِاللهِ ذِي الجَلالِ ... مِنْ شَرِّ مَا مَرَّ عَلَى الجِبَالِ
حَتَّى أَرَاهُ حَامِلَ الكَلالِ ... ويَفْعَلُ العُرْفَ إلى المَوَالي
وَغَيْرِهِمْ مِنْ حِشْوَةِ الرِّجَالِ[1]

يقال: من حشوة بني فلان ـ بكسر الحاء ـ؛ أي: من رذالتهم.

وبعد سنتين من مولده ﷺ: ولد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم قدمت به حليمةُ إلى مكة، وهي أحرصُ الناس على مكثه عندها، فقالت لأمه آمنة: لو تركتِ ابني عندي حتى يغلُظَ؛ فإني أخشى عليه وباءَ

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١١١).

مكة، ولم تزل بها حتى تركته معها، فأخذته، وعادت بـه إلى بلاد بني سعد، وبقي هناك.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع سنين: كان يغدو مع أخيه وأخته في البُهْم قريباً من الحي، فأتاه الملكان هناك، فشقا بطنه، واستخرجا عَلَقَة سوداء، فطرحاها، وغسلا بطنه بماء الثلج في طَسْت من ذهب.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في «مسنده» بسند متصل إلى عتبة بن عبد السلمي: إن رجلاً سأل رسول الله: كيف كان أولُ شأنك يا رسول الله؟ قال: «كانت حاضنتي من بني سعدِ بنِ بكرٍ، فانطلقتُ أنا وابنٌ لها في بُهْم لنا، ولم نأخذْ معنا زاداً، فقلتُ: يا أخي! اذهبْ فأْتِنا بزادٍ من عندِ أُمِّنا، فانطلق أخي، ومكثتُ عندَ البُهْم، فأقبل طائرانِ أبيضانِ كأنهما نَسْران، فقال أحدُهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يَبْتَدِراني، فأخذاني فأضجعـاني، وشَقَّا بطني، ثم استخرجـا قلبي، وأخـرجـا منـه عَلَقَتين سَوْداوينِ، فقالَ أحدُهما لصاحبه: ائتني بماءٍ وثلجٍ، فغسلا به جَوْفي، ثم قال: ائتني بماءِ بَرَدٍ، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسَّكِينة، فذراها في قلبي، وختما بين كتفيَّ بخاتمِ النبوة، وقال أحدُهما لصاحبـه: اجعلْه في كِفَّة، واجعل ألفـاً من أمتـه في كِفَّـة، فإذا أنا أنظرُ إلى الألفِ فوقي أُشفِقُ أن يَخِرَّ عَلَيَّ بعضُهم. ثم قال: لو أن أمته وُزِنَت به، لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وقد فرقْتُ فَرَقاً شديداً، ثم انطلقتُ إلى أمي، فأخبرتها بالذي لقيتُه، فأشفقتْ عليَّ، فقالت: أعيذُك بالله، وحملتني على الرحل، وركبَـتْ خلفي حتى بلغَـتْ إلى أمي، فقالـت: أَدَّيْـتُ أمانتي وذِمَّتي،

وحَدَّثتها بالذي لقيتُ، فلم يَرُعْها ذلك، وقالت: إني رأيتُ حينَ خرجَ مني نوراً أضاءتْ منه قصورُ الشام»[1].

ثم رجعت به حليمة ـ أيضاً ـ، فكان عندها سنة أو نحوَها، لا تَدَعُه يذهب مكاناً بعيداً، ثم رأت غمامة تُظِلُّه، إذا وقف، وقفت، وإذا سار، سارت، فأفزعها ذلك من أمره، فذهبت به إلى أمه لتردَّه وهو ابن خمس سنين، قالت: فبينما أنا ذاهبة به، وهو معي بمكة، إذ سمعت هَدَّة عظيمة، فالتفتُّ فلم أجد محمداً، فصرت كالوالهة، وأنا أنادي في الناس: من رأى لي ولداً كالبدر في تمامه، والغصن في قَوامه؟ فلقيني عبد المطلب جدُّه، فقال: مالك يا حليمة؟ فقلت: يا عبد المطلب! إن محمداً قد ذهب مني، فصعد على الصفا، ونادى: يا صباحاه! فاجتمعَتْ إليه رؤساء قريش، ففرقهم في أركان مكة وما حولها يطلبون محمداً، فلم يجدوه، فرجع عبد المطلب إلى بيته، فلبس أثوابه، وأتى إلى الكعبة، فطاف وهو يقول:

رُدَّ إِلَــيَّ وَلَــدِي مُحَمَّـــدَا ... ارْدُدْهُ رَبِّي وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

فلم يلبث أن جاء محمد، فلما رآه عبد المطلب، ضمه إلى صدره، وقال: يا بني! حزنت عليك حزناً لا يفارقني أبداً[2].

ثم قدمت حليمةُ على رسول الله ﷺ وقد تزوج خديجةَ بنتَ خويلد،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٨٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» (١/ ١٥٤).

فشكَتْ جدبَ البلاد، وهلاكَ الماشية، فكلَّم رسولُ الله ﷺ خديجةَ فيها، فأعطتها أربعين شاة وبعيراً، وانصرفت إلى أهلها.

ثم قدمت حليمةُ وزوجُها الحارثُ على رسول الله ﷺ بعدَ النبوة، فأسلمتْ هي وزوجُها الحارث[1].

وقال بعض المؤرخين: إنـه لا يُعرف لها صحبة ولا إسلام، وقد وَهَلَ فيها غير واحد، فذكروها في الصحابة.

وَهَلَ في الشيء؛ أي: غلط فيه.

وإخوة رسول الله ﷺ من الرضاع: عبدالله، وأنيسة، وجذامة ـ وهي الشيماء، غلب ذلك على اسمها ـ، وأمُّهم حليمةُ السعدية، وأبوهم الحارثُ ابنُ عبد العُزَّى السعدي، وهو أبو رسول الله ﷺ من الرضاع.

وفي سنة خمس من مولده قدم كاهن إلى مكة، فنظر إليه الكاهن مع جده عبد المطلب، فقال: يا معشر قريش! اقتلوا هذا الصبي؛ فإنـه يفرقكم، ويقتلكم، فهرب به عبد المطلب، فلم تزل قريش تخشى ما كان الكاهن حذَّرهم[2].

فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين: خرجت به أمه إلى أخواله بني عَدِيِّ بنِ النجَّار بالمدينة تزورهم به، ومعه أُم أيمن تحضنه، وهم على بعيرين، فنزلت به في دار النابغة، فأقامت به عندهم شهراً، ثم رجعت به

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١١٤).

(٢) انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (٢/ ٢٧١).

أمه إلى مكة، فلما كان بالأبواء، توفيت أمه آمنة، فَقَبْرُها هناك، فرجعت به أم أيمن إلى مكة، فضم عبدُ المطلب رسولَ الله ﷺ، ورَقَّ عليه رقةً لم يرقَّها على ولده، فلما حضرت عبدَ المطلب الوفاةُ، أوصى أبا طالب بحفظِ رسولِ الله ﷺ وحياطتهِ.

ولسبعة مضت من عمره: خرج به عبد المطلب يستسقي، وقد كانت تتابعتْ على قريش سنون أقحلَتِ الضرعَ، وأدقَّت العظمَ، فصعِدَ عبدُ المطلب أعلى ذروة الجبل، ومعه رسولُ الله ﷺ، فدعا الله، فتفجرت السماء بمائها، واكتظَّ الوادي بثجيجه، فهُنئ عبدُ المطلب من أكابر قريش[1].

وأنشدَ بعضُهم يمدح رسولَ الله ﷺ:

وَأَبْـيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمَالُ الأَيَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

وفي هذه السنة خرج عبدُ المطلب لتهنئة سيفِ بنِ ذي يزن بالظفر لمَّا ملكَ أرضَ اليمن، وقتلَ الحبشَ وأبادهم، وبشَّر سيفٌ عبدَ المطلب بأنه سيظهر رسولُ الله ﷺ من نسله.

وفي سنة ثمانية من مولده: كان موتُ عبد المطلب، وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل: مئة وعشر سنين، وقيل: مئة وعشرين سنة.

---

(١) انظر: «المنتظم» (٢/ ٢٧٣).

وسئل رسول الله ﷺ: أتذكر موتَ عبد المطلب؟ قال: «نعم، كنتُ ابنَ ثمانِ سنينَ»[1].

وضمه أبو طالب، وكان فقيراً لا مالَ له، وكان إذا أكل عيالُه جميعاً، أو فرادى، لم يشبعوا، فإذا أكل معهم رسولُ الله ﷺ، فَضَلَ من طعامهم، فيقول أبو طالب: إنه لمبارك، وأَحبَّه حباً شديداً.

وفي هذه السنة: كان هلاك حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس، وأمه عتبة بنتُ عفيف بن طيء، ويكنى: أبا سفانة، وكان حاتم الطائي شاعراً جواداً.

* * *

ولمّا صار لرسول الله ﷺ اثنتا عشرة سنة وشهران: ارتحل أبو طالب إلى الشام، فحمل معه النبيَّ ﷺ، فلما نزل الركبُ بِبُصْرى من أرض الشام، وبها راهبٌ يقال له: بَحيرا في صومعة له، وكان ذا علم في النصرانية، وكان كثيراً ما يمرون عليه، ولا يكلمهم، حتى إذا كان ذلك العام، ونزلوا منزلاً قريباً من صومعته، كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعاماً، ثم دعاهم، وكان قد رآهم حين طلعوا، وغمامةٌ تُظِلُّ رسولَ الله ﷺ من بين القوم، حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة قد أظلَّت تلك الشجرة، واخضرَّتْ أغصانُ الشجرة حين استظل

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١١٩).

تحتَها، فنزلَ بحيرا من صومعته، وأمر بذلك الطعام، فأُتي به، وأرسل إليهم، وقال: إني صنعـت لكم طعامـاً يا معشر قريش، وأنا أحـبُّ أن تحضروا كلكم، ولا يتخلف منكم صغير ولا كبير، ولا حر ولا عبد؛ فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لشأناً يا بحيرا.

ثم اجتمعوا إليه، وتخلَّفَ رسولُ الله ﷺ؛ لحداثة سنه، فلما نظر بحيرا إلى القوم، لم ير الصفة التي يجدها عنده، ورأى الغمامة متخلفةً على رسول الله ﷺ، فقال بحيرا: يا معشر قريش! ألم أقل لكم: لا يتخلف أحد عن طعامي؟ قالوا: ما تخلف إلا غلام حَدَث، قال: ادعوه فليحضُرْ طعامي، مع أني أراه من أنفَسكم، قالوا: هـو ـ والله ـ من أوسطنا نسباً، وهو ابنُ أخي هذا الرجل ـ يعنون: أبا طالب ـ، فقام إليه الحارث بن عبد المطلب، فاحتضنه، وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامةُ تسير على رأسه، فجعل بَحيرا يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدُها عنده من صفته.

فلما تفرقوا عن الطعام، قام إليه الراهب، وقال: يا غلام! أسألك باللات والعـزى إلا أخبـرتني عمـا أسـألك عنـه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَسْأَلْني بالَّلاتِ والعُزَّى، فَوَاللهِ! ما أبغضْتُ شَيْئاً بُغْضَهَا».

قال: فبالله! إلا أخبرتني عما أسـألك عنـه، قال: «سَلْني عَمَّا بَدَا لَكَ»، فجعل يسأله عن أشياء من حاله، ورسولُ الله ﷺ يخبره، فيوافقُ ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، فقبَّلَ موضعَ الخاتم.

وقال لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبوه حيّاً، قال: ابنُ أخي، قال: ما فعل أبوه؟ قال: هلك وأُمُّه حُبلى، قال: فما فعلَتْ أُمُّه؟ قال: توفيت قريباً، قال: صدقْتَ، ارجعْ بابن أخيك إلى بلده، واحذرْ عليه اليهود، فوالله! لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفتُ، ليَبْغِينَّهُ بغياً؛ فإن لابن أخيك شأناً عظيماً، واعلمْ أني قد أديت إليك النصيحةَ.

فرجع به أبو طالب بعد ما فرغوا من تجارتهم، وما خرج به سفراً بعد ذلك خوفاً عليه[1].

وشبَّ رسول الله ﷺ حتى بلغ، وكان أعظمَ الناس مروءة وحلماً، وأحسنَهم جواباً، وأصدقَهم حديثاً، وأعظمَهم أمانة، وأبعدَهم عن الفحش، حتى صار اسمُه في قومه: الأمين؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وحضر مع عمومته حربَ الفُجَّار وعمُره أربعَ عشرةَ سنة: وهي حرب كانت بين قريش وكنانة، وبين هوازن، وسميت بالفجار؛ لما انتهكت فيها هوازنُ حرمةَ الحرم، وكانت الكَرَّة في هذه الحرب أولاً على قريش وكنانة، ثم كانت على هوازن، وانتصرت قريش.

* * *

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٥٣).

وفي سنة خمس عشرة من مولده: كان قيام قُسِّ بنِ ساعدة الإياديِّ بسوق عكاظ: وهو سوق كانوا يبيعون فيه ويشترون، وكان قُسٌّ خطيباً بليغاً حكيماً.

روى ابن عباس رضي الله عنهما: لما وَفَدَ وَفْدُ إيادٍ على رسـول الله ﷺ، قال لهم: «ما فعلَ قُسُّ بنُ سـاعِدَةَ؟»، قالوا: مات، قال: «كَأَنِّي أنظُرُ إليـهِ بسوقِ عُكاظٍ على جملٍ أَوْرَقَ يتكلَّمُ بكلامٍ له حلاوةٌ، ما أجِدُني أحفَظُه»، فقال رجل من القوم: أنا أحفظه يا رسول الله، سمعته يقول: أيها الناس! احفظوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكـل ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، وسماءٌ ذات أبراج، وبحارٌ تزخر، ونجوم تزهر، وضوءٌ وظلام، وبرٌّ وآثام، ومطعمٌ ومشربٌ، وملبسٌ ومركبٌ، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أَرَضُوا بالمقامِ فأقاموا، أم تُركوا فناموا؟ وإلهِ قُسٍّ! ما على وجه الأرض دينٌ أفضل من دينٍ قد أَظَلَّكم زمانُه، وأدرككم أوانُه، فطوبى لمن أدركه فاتَّبعه، وويل لمن خالفه، ثم أنشأ يقول:

فـي الذَّاهِبِـيـنَ الأَوَّلِيـ ... ـنَ مِـنَ الْقُـرُونِ لَنَـا بَـصَائِرْ

لَمَّـا رَأَيْـتُ مَـوَارِداً ... لِلْمَـوْتِ لَـيْسَ لَهَـا مَـصَادِرْ

وَرَأَيْـتُ قَـوْمِي نَحْوَهَـا ... تَمْـضِي الأَصَـاغِرُ وَالأَكَـابِرْ

لا يَرْجِـعُ الماضِـي إِلَـيَّ ... وَلا مِـنَ البَـاقِينَ غَـابِرْ

أَيْقَنْـتُ أَنِّـي لاَ مَحَـا ... لَـة حَيْـثُ صَـارَ القَـوْمُ صَائِرْ

فقال رسول الله ﷺ: «يرحمُ اللهُ قُسّاً، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يبعثَهُ اللهُ أُمَّةً وَحْدَهُ»[1].

* * *

وفي سنة عشرين من مولده ﷺ: كان حِلْفُ الفُضول، وحضره رسولُ الله ﷺ، وسببه: أن قيسَ بنَ شيبة[2] السلميَّ باع متاعاً من أُبَيِّ بنِ خَلَفٍ الجُمَحِيِّ، فلواه، وذهبَ بحقه، فاستجار برجل من بني جُمَح، فلم يقم بجواره، فقال قيس:

يَالَ قُصَيٍّ كَيْفَ هَذَا فِي الحَرَمْ وَحُرْمَةِ البَيْتِ وَأَخْلاقِ الكَرَمْ
أُظْلَمُ وَلاَ يُمْنَعُ مِنِّي مَنْ ظَلَمْ

فقام إليه العباسُ وأبو سفيان حتى ردّا عليه ظلامته، فاجتمعت قريش في دار عبدالله بن جدعان، وتحالفوا على ردِّ المظالم بمكة، وأن لا يُظلم أحدٌ إلا منعوه.

قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفاً في دارِ ابنِ جُدْعَانَ ما أُحِبُّ أَنَّ لي به حُمْرَ النَّعَمِ، ولو دُعِيتُ به لأَجَبْتُ»[3].

* * *

(١) رواه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٦/ ١٤٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٥٦١)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٨١)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٥٢)، وهو حديث منكر، آفته محمد بن الحجاج اللخمي.

(٢) في الأصل: «شبيبة».

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٢٩)، عن جبير بن مطعم.

وفي سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ: كان خروجه في تجارة خديجة، وتزويجه بها، وذلك أن خديجة كانت ذات شرف ومال، فلما بلغها صدقُ رسول الله ﷺ وأمانتُه، عرضت عليه الخروج في تجارتها إلى الشام، فأجاب إلى ذلك، وخرج ومعه غلامها مَيْسَرَة، وجعل عمومتُه يوصون به أهلَ العير، وساروا حتى وصلوا بُصْرى من أرض الشام، فنزلا في ظل شجرة، فرآه راهبٌ يقال له: نَسْطورا، فعرفه بالعلائم، وقال لميسرة: هذا ـ والله ـ الذي تجده أحبارُنا منعوتاً في كتبهم.

فلما رجعوا، ودخل عليها رسول الله ﷺ، فخبرها بما ربحوا، فسرَّتْ بذلك، ودخل عليها ميسرةُ، وأخبرها بما رأى منه، وبما قال له الراهب نسطورا، فأرسلَتْ دسيساً إلى رسول الله ﷺ، وتحدّث له في تزويجها.

وقدم رسول الله ﷺ، ومعه حمزةُ بنُ عبد المطلب، وأبو طالب، وغيرُهما من عمومته، حتى دخل على خُوَيْلِدِ بنِ أَسَدٍ، فخطبها إليه، فزوَّجها منه، وهو ابنُ خمسٍ وعشرين سنة، وخديجةُ يومئذ ابنةُ أربعين سنة، وأصدَقَها عشرين بكرةً، وهي أولُ امرأة تزوجها، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، ولم يتزوج بِكْراً غيرَ عائشة.

وولدت له خديجة أولاده كلَّهم إلا إبراهيم؛ فإنه من مارية القِبْطية، وبقيةُ الأولاد من خديجة، وهم: زينب، ورُقَية، وأم كلثوم، وفاطمة الزهراء، والقاسم، وبه كان يُكنّى، وعبدالله، والطاهر، والطيب.

فأما القاسم والطاهر، فماتا قبل الإسلام، وقيل: إن عبدالله وُلِد في

الإسلام، وهو الطيب، وأما بناتـه، فكلهن أدركْنَ الإسلام، فأسلَمْن، وهاجرن معه، وكان الرسولُ بين خديجة والنبي ﷺ نفيسةَ بنت مُنْيَة ـ أخت يعلى بن مُنْية ـ أسلمت يوم الفتح، فبرّها رسول الله ﷺ، وأكرمها.

ومنيـة ـ بالنون الساكنة، والياء المثنّاة من تحتها ـ، وهي أمُّها، والله أعلم.

* * *

وفي سنة خمس وثلاثين من مولده ﷺ: هدمَتْ قريشٌ الكعبـة، وكان سببُ هدمهم إياها: أنها كانت رضمة فوقَ القامة، فأرادوا رفعَها وسَقْفَها، فلما أرادوا هدمَها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم، فتناول حجراً من الكعبـة، فوثـب من يده حتى رجـع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش! لا تُدخلوا في بنـائهـا إلا طيّباً، ثـم إن الناس هابوا هدمَها، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم به، فأخذ المعول فهدَم، وتربَّص الناسُ تلك الليلة، وقالوا: ننظر؛ فإن أُصيب، لم نهدم منها شيئاً، فأصبح الوليد سالماً، وغدا إلى عمله، فهدم الناسُ معه حتى انتهى الهـدم إلى الأساس، ثم أَفْضَـتْ إلى حجـارة خُضْرٍ آخـذٍ بعضُها ببعض، فأدخل رجل من قريش عتلتين بين حجرتين منها؛ ليقلع أحدهما، فلما تحرك الحجر، انتفضت مكةُ بأسرها، فتركه، ثم جمعوا الحجارة لبنائها، وبنوا حتى بلغ البنيانُ موضعَ الحَجَر الأسود، فأراد كلُّ قبيلة رفْعَه إلى موضعه، حتى تخالفوا وتواعدوا القتال، فقرَّبَتْ بنو عبد الدار جَفْنَةً

مملوءةً دماً، ثم تعاقدوا هم وبني عَدِيٍّ على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، فسُمُّوا: لَعَقَةَ الدم؛ بذلك، فمكثوا على ذلك أربع ليال، ثم تشاوروا، فقال أبو أمية بنُ المغيرة، وكان أسنّ قريش: اجعلوا بينكم حَكَماً أولَ من يدخل من باب الحرم يقضي بينكم، فكان أولُ من دخلَ رسولُ الله ﷺ، فلما رأوه، قالوا: هذا الأمين، رضينا به، وأخبروه الخبر، فقال: «هَلُمُّوا لي ثوباً»، فأُتي به، فأخذ الحجر، فوضعه فيه بيده، ثم قال: «ليأخُذْ كلُّ قبيلةٍ بناحية من الثوبِ، ثُمَّ ارْفَعوه جميعاً»، ففعلوا، فلما بلغوا به موضعه، وضعه بيده ﷺ، ثم بني عليه.

وكانت تُكْسى القَباطِيَّ، ثم كُسيت البُرودَ، وأولُ من كساها الديباجَ الحجاجُ بنُ يوسف.

* * *

ذكر مبعثه ﷺ وابتداء الوحي

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بُعِثَ النبي ﷺ، وأُنزِلَ عليه الوحيُ وهو ابن أربعين سنة[1]، وقيل: ابن ثلاث وأربعين، وكان يوم الاثنين بلا خلاف، لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان.

قالت عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فَلَق

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٢)، ومسلم (٢٣٥١).

الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِرَاء، فيتحنّث فيه ـ وهو التعبُّدُ ـ اللياليَ ذوات العـددِ قبلَ أن ينزعَ إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حِرَاء، فجاءه الملك، فقال: اقرأْ، فقال: قُلْتُ: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فَغَطَّني حتى بلغَ مني الجهـد، ثم أرسلَني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنـا بقارئ، فأخذني فغطني الثانيةَ حتى بلغَ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١ ـ ٣]، فرجع بها رسولُ الله ﷺ يرجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجـةَ بنتِ خُوَيلد، فقال: «زمّلوني زمّلوني»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، قال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقدْ خَشِيتُ على نفسي»، فقالت خديجـة: كلا، والله! ما يُخزيك الله أبداً، إنك لَتصلُ الرحم، وتَحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدومَ، وتَقْري الضيفَ، وتُعين على نوائب الحقِّ.

فانطلقت به خديجةُ حتى أتت بـه ورقـةَ بنَ نوفلِ بنِ أسدِ بنِ عبـدِ العُزَّى ابنَ عمّ خديجة، وكان امرأً قـد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بنَ عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا بنَ أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هـذا الناموسُ الذي أنزل الله على موسى، يا ليتني فيهـا جذعـاً، ليتني أكون حيّـاً إذ يُخرجك قومُك، فقال رسول الله ﷺ: «أو

مخرجيّ هم؟»، قال: نعم، لم يأت رجل قطُّ بمثلِ ما جئت به، إلا عوديَ، وإن يدركْني يومُك، أنصُرْك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي[1].

ثم كان أول ما أُنزِل عليه من القرآن بعد ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق: ١]: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[القلم: ١]، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[المدثر: ١]، ثم ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[الضحى: ١].

قالت خديجة لرسول الله ﷺ: يا بن عم! هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاء؟ قال: «نعم»، فجاءه جبريل، فأعلمها، فقالت: قم فاجلسْ على فخذي اليسرى، فقام رسول الله ﷺ، فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: «نعم»، فتحَسَّرَتْ، وألقت خِمارها، ورسولُ الله ﷺ في حِجْرِها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: «لا»، قالت: يا بن عم! اثْبُتْ وأبشر، فوالله! إنه لَمَلَكٌ، وما هو شيطان[2].

وقال الزهري: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزن حزناً شديداً، فجعل يغدو إلى رؤوس الجبال ليتردّى منها، فكلما أوفى بذروة جبل، تبدّى له جبريل ـ عليه السلام ـ، فيقول له: إنّك رسولُ الله حقاً، فيسكن لذلك جأشُه، وترجع نفسه[3].

---

(١) رواه البخاري (٣).

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٧٥).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ١٤٣).

فلما أمر الله نبيه ـ عليه السلام ـ أن يُنْذِر قومَه عذابَ الله على ما هم فيه من عبادة الأصنام دون الله تعالى الذي خلقهم ورزقهم، وأن يُحَدّث بنعمة ربه عليه، وهي النبوة.

فكان أول من آمن به وصدّقه: خديجة زوجته.

ثم كان أول شيء فرض من شرائع الإسلام بعد الإقرار بالتوحيد، والبراءة من الأوثان: الصلاة: أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت فيه عين، فتوضأ جبريل، ورسولُ الله ﷺ ينظر إليه؛ ليُريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسولُ الله ﷺ، ثم قام جبريلُ فصلى به، وصلَّى النبي ﷺ بصلاته، وانصرف جبريل، وجاء رسول الله ﷺ إلى خديجة، فعلَّمها الوضوءَ، ثم صلَّى بها، فصلَّت بصلاته.

* * *

ذكر رمي الشياطين بالشهب لمبعثه ﷺ

قال العلماء بالسِّيَر: رأت قريش النجومَ تُرْمى بعد عشرين يوماً من مبعث رسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: انطلق رسولُ الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهبُ، فرجعت الشياطينُ إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، [وأرسلت علينا الشهب]،

قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء[1] حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

قال: فانطلَقَ الذين اتجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلةَ وهو عائدٌ إلى سوق عُكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآن، تسمَّعوا لـه، فقالوا: هـذا الذي حالَ بينكم وبين خبـر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[الجن: ١ ـ ٢]، فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[الجن: ١]، أخرجاه في «الصحيحين»[2].

وعن سعيدِ بنِ جُبير، عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة، فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً، وما زادوه باطلاً، وكانـت النجوم لا يُرمى بهـا قبـل ذلـك، فلما بُعِـثَ النبي ﷺ، كان أحدهم لا يقعد مقعده إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هـذا إلا من أمـرٍ قـد حـدث، فبـثَّ جنودَه، فإذا هم بالنبي ﷺ يصلي بين جبلَي نخلةَ، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدثُ الذي حدث في الأرض.

قال ابن الجوزي: قلت: وهذا الحديث يدل على أن النجوم لم يُرم بها إلا لمبعث نبينا ﷺ.

---

(١) في الأصل: «ما».

(٢) رواه البخاري (٤٦٣٧)، ومسلم (٤٤٩).

ثم قال: وقد روينا عن الزهري: أنه قال: قد كان يُرمى بها قبل ذلك، ولكنها غلظت حين بُعِث النبي ﷺ[1].

* * *

ذكر الاختلاف في أول من أسلم

اختلف العلماء في أول من أسلم، مع الاتفاق: أن خديجة أولُ خلقِ الله إسلاماً، وهي أول من آمن به وصدَّقه.

قال الكلبي: أولُ من أسلم: عليٌّ، وكان عمره تسع سنين.

وقال ابن إسحاق: أولُ من أسلم: عليٌّ، وكان عمره إحدى عشرة سنة.

وروي عن عليٍّ رضي الله عنه: أنه قال: أنا عبدُالله، وأخو رسوله، وأنا الصدِّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذب مفترٍ، صليت مع النبي ﷺ قبل الناس[2].

وقال ابن عباس: أولُ من صلَّى: عليٌّ.

و قيل: أول من أسلم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقال ابن إسحاق: أول ذَكَرٍ أسلم بعد عليٍّ: زيدُ بن حارثة، ثم أسلم أبو بكر رضي الله عنه، وأسلم على يده عثمان بن عفان، والزبير بن العوام،

---

(١) انظر: «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٨٧).

(٢) رواه ابن ماجه في «مقدمة سننه» (١٢٠).

وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا، وصلَّوا، وكان هؤلاء النفر هم الذين سبقوا للإسلام، فأسلم مِنْ بَعْدِهِم مَنْ أسلم.

* * *

ذكر أمر الله تعالى نبيه بإظهار دعوته

أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما يؤمر، وكان قبل ذلك في السنين الثلاثة مستتراً بدعوته، لا يُظهرها إلا إلى من يثق إليه، وكان أصحابه إذا أرادوا الصلاة، ذهبوا إلى الشِّعاب، فاستَخْفَوا، ثم إن رسول الله ﷺ صدع بأمر الله تعالى، وبادأ قومه بالإسلام.

* * *

ذكر تعذيب المستضعفين من المسلمين

وهم قوم سبقوا إلى الإسلام، لا عشائر لهم تمنعهم، ولا قوة لهم يمتنعون بها، فأما من كانت لـه عشيرة تمنعه، فلم تصلِ الكفار منه إلى ما يريدون، ومِمَّنْ لا عشيرة له تمنعه؛ **بلال بن رباح الحبشي** مولى أُمية ابنِ خَلَف ـ وكان أبوه من سبي الحبشة، وأمه حمامة أيضاً سبية ـ كان الكفار يعذبونه بإلقائه في الرَّمْضاء على ظهره وقتَ الظهيرة، وبإلقاء الصخرة العظيمة على صدره، ويقال لـه: لا تزال هكذا حتى تموت، أوتكفرَ بمحمد، وتعبدَ اللاتَ والعزى، ثم صار إلى مُلك أبي بكر رضي الله عنه،

فأعتقه، فهاجر، وشهد المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ.

ومنهم: **عمار بن ياسر أبو اليقظان العنسي** ـ بالنون ـ: أسلم عمار هو وأبوه ياسر، وأمه سمية، فكانوا يُخرِجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الشمس، يعذبونهم بحرِّ الرمضاء، فمات ياسرٌ في العذاب، وأغلظَتْ سميةُ القولَ لأبي جهل، فطعنها في فرجها بحربة، فماتت، فهي أول شهيدة في الإسلام، وشدّدوا العذاب على عمار حتى فعل ما أمروه به، فتركوه، فأتى النبيَّ ﷺ، فأخبره بما كان. قال: «فكيفَ تَجِدُ قلبَكَ؟»، قال: أجده مطمئنّاً بالإيمان، فقال: «يا عَمَّارُ! فإنْ عَادُوا، فَعُدْ»[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[النحل: ١٠٦].

وشهد عمارٌ المشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ، وقُتِل بِصِفِّين مع عليٍّ رضي الله عنه، وعمره نيِّفٌ وتسعون سنة.

ومنهم: **خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ**: وكان أبوه سوادياً من كسكر، وكان إسلامه قديماً، قيل: سادس ستة، فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً، فكانوا يُعرونه، ويُلصقون ظهره بالرمضاء بالرَّضْف، وهي الحجارة المحمَّاة بالنار، ثم كووا رأسه، فلم يُجبهم إلى شيء مما أرادوا.

ومنهم: **صُهَيْب بنُ سنانٍ الروميُّ**: كان ممن يُعَذَّب في الله، فلم يرجع عن دينه.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٠٨).

ومنهم: **عامرُ بنُ فُهَيْرَةَ**: مرَّ به أبو بكر وهو يُعَذَّب، فاشتراه وأعتقه.

ومنهم: **أبو فُكَيْهَة**: واسمه أفلح، وكان عبداً لصفوانَ بنِ أمية، مرّ به أبو بكر وهو يُعَذَّب، فاشتراه وأعتقه.

ومنهم: **النَّهْدِيَّةُ** [مولاة] لبني نهد، فصارت لامرأة من بني عبد الدار، فأسلمت، فكانت تعذبها، فابتاعها أبو بكر، وأعتقها.

ومنهم: جماعة غير هؤلاء.

* * *

ذكر المستهزئين، ومن كان شديد الأذى للنبي ﷺ

فمنهم: **أبو لهب عبدُ العزى بنُ عبدِ المطلب**: كان شديد الأذى للنبيِّ ﷺ، وكان جاره، وكان يطرح العَذِرَةَ والنتن على بابه، فكان النبيُّ ﷺ يقول: «أَيُّ جِوارٍ هَـذَا يا بَني عبدِ المُطَّلِبِ؟!»[1]، فرآه يوماً حمزةُ رضي الله عنه، فأخذ العَذِرة وطرحها على رأس أبي لهب، فجعل ينفضها عن رأسه، ويقول: صابئ أحمق، وأقصرَ عما كان يفعل.

مات أبو لهب بمكة عند وصول الخبر بانهزام المشركين ببدر، بمرض يُعرَف بالعدسة.

ومنهم: **الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ بنِ وهبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زهرةَ**: وهو ابنُ خال النبي ﷺ، وكان من المستهزئين، وكان يقول للنبي ﷺ:

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢١)، عن عائشة رضي الله عنها.

أما كُلِّمتَ اليومَ من السماء يا محمد؟ فخرج من عند أهله، فأصابه السموم، فاسودَّ وجهه، فلما عاد إليهم، لم يعرفوه، وأغلقوا الباب دونه، فرجع متحيراً حتى مات عطشاً.

ومنهم: **أُميّة وأُبَيٌّ ابنا خَلَفٍ**: وكانا من شَرِّ الناس على النبي ﷺ، قُتِل أُبيّ يوم بدر كافراً، وأما أخوه أُميّة، فقتله النبي ﷺ يوم أُحُد.

ومنهم: **عُقْبَة بنُ أَبي مُعَيْط**: واسمُ أبي معيط: أبانُ بنُ أبي عمرِو ابنِ أميةَ بنِ عبدِ شمس، أُسِر ببدر، قتله عاصمُ بن ثابتِ بنِ أبي الأفلح الأنصاريُّ بالصفراء، وصُلِب، وهو أول مصلوب صُلِب في الإسلام.

ومنهم: **أبو قَيْسِ بنُ الفاكِهِ بنِ المغيرة**: كان ممن يُعين أبا جهل على أذاه، قتله حمزةُ رضي الله عنه يومَ بدر.

ومنهم: **العاصُ بنُ وائلٍ السهميُّ**: والدُ عمرِو بنِ العاص، وهو القائلُ ـ لما مات عبدالله بن رسول الله ﷺ ـ: إنّ محمداً أبتر، لا يعيش له ولد ذَكَر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[الكوثر: ٣]، فركب حماراً له، فربض به، فلُدِغ في رجله، فانتفخت حتى صارت كعنق البعير، فمات منها بعد الهجرة، وهو ابن خمس وثمانين سنة.

ومنهم: **النَّضْر بنُ الحارثِ بنِ كَلَدَةَ بنِ عبدِ منافِ بنِ عبدِ الدار**: كان يقول: إنما يأتيكم محمدٌ بأساطير الأولين، فنزلت فيه عدة آيات، أسره المقدادُ يومَ بدر، فأمر رسولُ الله ﷺ بضرب عنقه، فقتله عليٌّ رضي الله عنه بالأُثيل.

ومنهم: **أبو جَهْل بنُ هشامٍ المخزوميُّ**: واسمه عمرو، وكنيتـه أبو الحكم، وأما أبـو جهل، فالمسلمون كنـوه بذلك، قُتِل ببدر، قتله ابنا عَفْراء.

ومنهم: **رُكانَة بنُ عبدِ يزيدَ بنِ هاشمٍ**.

فهؤلاء أشدُّ عداوةً لرسول الله ﷺ، ومَنْ عداهم من رؤساء قريش كانوا أقلَّ عداوة من هؤلاء؛ كعُتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، وغيرِهما.

وكان جماعة من قريش من أشدِّ الناس عليه، فأسلموا، منهم: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبدُالله بنُ أبي أميةَ المخزوميُّ أخو أمِّ سلمةَ، وأبو سفيان صخرُ بنُ حربٍ، والحكمُ بنُ أبي العاص، وغيرُهم، أسلموا يوم فتح مكة.

* * *

ذكر إسلام حمزة

عن ابن إسحاق روى: أن أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، فلم يُكلمه رسولُ الله ﷺ، ثم انصرف أبو جهل ـ لعنه الله ـ، فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمـزةُ بنُ عبد المطلب أن أقبل متوشِّحاً بقوسه، راجعاً من قَنْصٍ له، وكان أعزّ فتى في قريش، وأشدَّهم شكيمةً، فأُخبر بما لقيه النبيُّ ﷺ من أبي الحكم بن هشام، وهو أبو جهل، فاحتمل حمزةَ الغضبُ؛ لما أراده الله من كرامته، فخرج يسعى متعمداً لأبي جهل، فلما دخل الحرم، نظر إلى أبي جهل

جالساً في القـوم، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسـه، رفـع القوس، وضربـه، فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه[1] وأنا على دينـه أقـول ما يقول؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعتَ، فقـام رجال من بني مخـزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني ـ والله ـ قـد سببتُ ابنَ أخيـه سباً قبيحاً، فلمـا أسلم حمـزة، عرفـتْ قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[2].

* * *

ذكر إسلام عمر بن الخطاب

كان شديد البأس والعداوة لرسول الله ﷺ، فروي: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بعمرَ بنِ الخطابِ، أو بأبي الحكمِ بنِ هشامِ»[3]، وهو أبو جهل، فهدى الله تعالى عمر.

وكان سبب إسلامه: أن أختـه فاطمـةَ بنتَ الخطـاب أسلمت هي وزوجُها سعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفيلٍ، وكانـا يخفيان إسلامهمـا من عمر، فلما علم عمر، دخل على أخته، وقد سمع قراءة خبّاب عندها، فلما دخل، قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها؟ قالت: ما سمعتَ شيئاً،

---

(١) في الأصل زيادة: «ويلك».

(٢) انظر: «المستدرك» (٣/ ٢١٣).

(٣) رواه الترمذي في «سننه» (٣٦٨١)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

قال: بلى والله! لقد أُخبِرتُ أنكما تابعتما محمداً، وبطشَ بسعيد بن زيد، فقامت أختُه لتكفَّه عنه، فضربها فشجَّها، فلما فعل ذلك، قالت أخته: نعم، والله! قد أسلَمْنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنعْ ما شئتَ، فندم، وطلب الصحيفة التي يقرؤونها، قالت: إنك نجس على شركك، فلا تمسها، فكان عمر يقول: ما عرفتُ ذُلّ الشرك إلا ذلك اليوم، فقام واغتسل، فأعطته الصحيفة فقرأها، وفيها: ﴿طه﴾[طه: ١]، فلما قرأ بعضها، قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه! ثم أتى النبيَّ ﷺ وهو بدارٍ عندَ الصفا، وعنده قريبُ أربعين نفساً، ما بين رجال ونساء، منهم: حمزة، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، فقصدهم عمر وهو متوشِّح بسيفه، واستأذن في الدخول، فأذن له رسولُ الله ﷺ، فلما دخل، نهض إليه رسولُ الله ﷺ حتى لقيه، وأخذ بمجمع ردائه، ثم جذبه جذبة شديدة، وقال: «ما جاءَ بكَ يا بنَ الخَطَّاب؟ ما أراكَ تنتهي حتى تَنْزِلَ بكَ قارعَةٌ»، فقال عمر: يا رسول الله! جئت لأومن بالله ورسوله، فكبّر رسولُ الله ﷺ تكبيرة، علم مَنْ في البيتِ أن عمر قد أسلم، ثم قال عمر: يا رسول الله! ألسنا على الحق؟ قال: «إي والذي بعثني بالحقِّ نبياً»، قال: أما والذي بعثك بالحق نبياً! لا يُعبد الله بَعدَ اليوم سِرّاً.

* * *

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

لما رأى رسولُ الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من

العافية؛ بمكانه من الله ﷻ، وعمّه أبو طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم، قال لأصحابه: «لو خَرَجْتُم إلى أرضِ الحبشة؛ فإنَّ بها ملكاً لا يُظلَم أحدٌ عندَه، حتى يجعلَ اللهُ لكم فَرَجاً ومَخْرَجاً مما أنتمْ فيه»[1].

فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافةَ الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، فخرج عثمان بن عفان، وزوجته رقيـةُ بنتُ النبي ﷺ معه، وأبو حذيفة بنُ عتبةَ بنِ ربيعة، وزوجتُه سهلَةُ بنتُ سهيلِ بنِ عمرٍو معه، والزبيرُ بن العوام، وتمامُ الأحدَ عشرَ رجلاً، وأربعُ نسوة، وكان مسيرُهم في رجـب، سنة خمس من النبوة، فأقاموا شعبان، وشهر رمضان، ثم بلغهم أن قريشاً أسلموا، فقدِموا في شوال، فلما قربوا من مكة، بلغهم أن قريشاً على ما هم عليـه، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوارٍ، أو مستخفياً.

وأقام المسلمون بمكة يُؤْذَون، فلما رأوا ذلك، رجعـوا مهاجرين إلى الحبشة ثانية، فخرج جعفر بن أبي طالـب، وتتابـع المسلمون إلى الحبشة، فكمل بها اثنان وثمانون رجلاً، ورسولُ الله ﷺ مقيم بمكة يدعو إلى الله سراً وجهراً.

ولما رأت قريش أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وأمِنـوا، وأن النجاشي قـد أحسن إليهم، ائتمـروا بينهم، فبعثـوا عَمْـرَو بنَ العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة، ومعهما هديةٌ إلى النجاشي وإلى أصحابه؛ ليردَّ

---

(١) انظر: «السيرة» لابن إسحاق (٢/ ١٥٤).

المهاجرين إليهم، فلم يفعل، وقال للمسلمين: اذهبوا، فأنتم آمنون، وردَّ هديةَ قريش، وقال: ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذَها منكم، ولا أطاع الناسَ حتى أُطيعهم فيه.

وأقام المسلمون بخيرِ دارٍ عند النجاشي، فظهر ملكٌ من ملوك الحبشة، ونازع النجاشيَّ في ملكه، فظفر النجاشيُّ بعدوِّه، فما سُرَّ المسلمون بشيء سرورَهم بظفره، ثم أسلم النجاشِيُّ بعد ذلك، ولما مات النجاشي، كانوا لا يزالون يرون على قبره نوراً ـ رحمه الله، وعفا عنه ـ.

* * *

ذكر أمر الصحيفة

فلما رأت قريش أن الإسلام يفشو ويزيد، وأن المسلمين قَوُوا بإسلام حمزةَ وعمرَ رضي الله عنهما، وعاد إليهم عمرُو بنُ العاص، وعبدُالله بن أبي ربيعة من النجاشي بما يكرهون من أمر المسلمين، وأمنهم عنده، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً، يتعاقدون فيه على:

أن لا يُنكِحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا يَنكحوا منهم، ولا يبيعوهم، ولا يبتاعوا منهم، فكتبوا بذلك صحيفة، وتعاهدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم.

وانحازت بنو هاشم كافرُهم ومسلمُهم إلى أبي طالب، ودخلوا معه

في شِعْبه، وخرج من بني هاشم أبو لهبٍ عبدُ العزَّى بنُ عبدِ المطلب إلى قريش مضارّاً لهم، وكانت امرأته أمُّ جميل بنتُ حربٍ ـ وهي أختُ أبي سفيان ـ على رأيه في عداوة رسول الله ﷺ، وهي التي سماها الله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[المسد: ٤]؛ لأنها كانت تحمل الشوك، فتضعه في طريق رسول الله ﷺ.

وأقامت بنو هاشم في الشِّعْب، ومعهم رسولُ الله ﷺ، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، هذا ورسولُ الله ﷺ يدعُو الناس سراً وجهراً، والوحُي متتابع إليه.

* * *

ذكر نقض الصحيفة

وقام في نقض الصحيفة نفَرٌ من قريش، فاجتمعوا بمكان، وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة، ووقع بين القوم خلاف، فقام مُطْعِم بنُ عديٍّ إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرضَةَ قد أكلتها، إلا ما كان من: (باسمك اللهم)، كانت قريش تستفتح بهذا كتابها، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة من بني عبد الدار، فشلّت يده، وكان الله تعالى أرسل الأَرَضَةَ، فأكلت ما فيها من ظلمٍ وقطعِ رحم، وتركتْ ما فيها من أسماء الله تعالى، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ، وأعلمه بذلك، فتكلم رسولُ الله ﷺ بذلك، فاجتمع الملأ من قريش، وأحضروا الصحيفة، فوجدوا الأمر كما قاله رسول الله ﷺ، فنكسوا رؤوسهم، فاتفق جماعة من قريش، ونقضوا

ما تعاهدوا عليه في الصحيفة؛ من قطيعة بني عبد المطلب.

* * *

ذكر المعراج

اختلف الناس في وقت المعراج، فقيل: كان قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل: بسنة واحدة.

واختلفوا في الموضع الذي أُسري برسول الله ﷺ منه، فقيل: كان نائماً في المسجد الحرام، فأُسري به منه.

وقيل: كان في بيت أم هانئ بنت أبي طالب.

وقد روى جماعة من الصحابة حديثَ المعراج بأسانيد صحيحة، قالوا:

قال رسول الله ﷺ: «أَتاني جبريلُ ـ عليه السلام ـ ومعه البُراقُ، وهي دابةٌ فوقَ الحمارِ ودونَ البَغْل، يضعُ خَطْوَهُ عندَ مُنْتَهى طَرْفه، فلما وضعتُ يدي عليه تَشَامَسَ، واستَصْعَبَ، فقال جبريل ـ عليه السلام ـ: يا بُراقُ! ما ركبكَ نبيٌّ أكرمُ على الله تعالى من محمد، فانصبَّ عَرَقاً، وانخفضَ لي حتى ركبتهُ، وسار بي جبريلُ نحوَ المسجدِ الأقصى، فأُتيت بإناءَيْنِ، أحدُهما لبنٌ، والآخرُ خمرٌ، فقيل: اخترْ أحدَهما، فأخذتُ اللبنَ فشربتُه، فقال لي: أصبتَ الفطرة، أما إنَّك لو شربتَ الخمرَ، لَغَوَتْ أمتك بعدَك، ثم سرْنا، فقال لي: انزلْ، فصلِّ، فصلَّيتُ، فقال لي: هذه طَيْبَةُ، وإليها المهاجَرُ، ثم سرْنا، فقال لي: انزلْ فَصَلِّ، فنزلتُ فصلَّيت فقال لي: هذا

طورُ سيناءَ، حيثُ كلَّمَ الله موسى ـ عليه السلام ـ، ثم سرْنا، فقال لي: انزلْ فصلِّ، فنزلتُ فصلَّيت، فقال لي: هـذا بيتُ لحم حيثُ وُلد عيسى ـ عليه السلام ـ، ثم سرنا حتى أتينا البيتَ المقدَّس، فلما انتهينا إلى باب المسجد، أنزلني جبريلُ، وربط البراقَ بالحَلْقة التي كانت تربط بها الأنبياءُ ـ عليهم السـلام ـ، فلما دخلت المسجد، إذا أنا بالأنبياء ـ وقيل: بأرواح الأنبياء ـ الذين بعثهم الله تعالى قبلي، فسلَّموا عليَّ، فقلت: يا جبريلُ! من هـؤلاء؟ قال: إخوتك من الأنبيـاء، زعمـتْ قريشٌ أنّ لله شـريكاً، وزعمـتِ النصارى أنّ لله ولـداً، اسأل هؤلاء النبيين: هـل كـان لله ﷻ شريك؟ فذلك قوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴾[الزخرف: ٤٥]، فأقـروا، بالوحدانيـة لله ﷻ، ثم جمعهم جبريل، وقدّمني، فصليت بهم ركعتين.

ثم انطلق بي جبريل إلى الصخرة، فصعِدَ بي عليها، فإذا معراجٌ إلى السماء، لا ينظر الناظرون إلى شيء أحسنَ منه، ومنه تعرجُ الملائكـة، أصلُه في صخرة بيتِ المقدس، ورأسُه ملتصقٌ بالسماء، فاحتملني جبريل، ووضعني على جناحه، وصَعِدَ بي إلى سماء الـدنيـا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمـد، قيل: أقد بُعِث؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، ففتح، فدخلنا.

فإذا أنا برجل تام الخَلْق، عن يمينه بابٌ يخرج منه ريحٌ طيبة، وعن شماله بابٌ تخرج منـه ريحٌ خبيثة، فإذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه، ضحك، وإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله، بكى، فقلت: من هذا؟

وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم، والباب الذي عن يمينه الجنة، إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته، ضحك، والباب الذي عن يساره جهنم، إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته، بكى وحزن.

ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بُعِث؟ قال: نعم، قيل: مرحباً [به]، ونعم المجيء جاء، ففتح لنا، فدخلنا، فإذا بشابّين، قلت: يا جبريل! من هذان؟ قال: هذا عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا.

ثم صعد [بي] إلى السماء الثالثة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا برجل قد فَضَل الناسَ بالحسن، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف.

ثم صَعِدَ بي إلى السماء الرابعة، واستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِث؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا برجل، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك إدريس، رفعه الله مكاناً عليّاً.

ثم صَعِدَ بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِث؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، ونعم المجيء جاء، فدخلنا، وإذا رجل جالس، وحوله قومٌ يقصُّ عليهم، قلت: من هذا؟ قال: هارون، والذين حوله بنو إسرائيل.

قال: ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فاستفتحَ، قيل: من هـذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: مرحباً بـه، ونعمَ المجيءُ جاء، فدخلنا، فإذا برجل جالس، فلما جاوزناه، بكى، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى، قلت: فما له يبكي؟ قال: تزعمُ بنو إسرائيل أنه أكرمُ على الله من آدم، وأنت من بني آدم قد خَلَّفته وراءك.

قال: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِث؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه، ونعم المجيء جاء، فدخلنا، فإذا برجل أشمطَ جالس على كرسيٍّ على باب الجنـة، وحولـه قومٌ بيضُ الوجوه، أمثال القراطيس، وقومٌ في ألوانهم شيء، فقام الذين في ألوانهم شيء، فاغتسلوا في نهر، وخرجوا، وقد صارت وجوههم مثل وجوه أصحابهم، فقلت: من هذا؟ فقال: أبـوك إبراهيم، وهؤلاء البِيضُ الوجوهِ قومٌ لم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم، وأما الذين في ألوانهم شيء، فقوم خَلَطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً، وتابوا، فتاب الله عليهم.

وإذا إبراهيم مستند إلى بيت، فقال: هذا البيتُ المعمور، يدخلُه كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة، لا يعودون إليه.

وأخذني جبريل، فانتهينا إلى سِدرة المنتهى، وإذا نَبْقُها مثلُ قِلال هَجْر، يخرج من أصلها أربعةُ أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فأما الباطنان، ففي الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، قال: وغشيَها من نور الله تعالى ما غشيَها، فقال جبريل: تقدم يا محمد، فتقدمت، وجبريل

معي إلى حجاب، فأخذني الملك، وتخلف عني جبريل، فقلت: إلى أين؟ فقال: وما منّا إلا له مقام معلوم، وهذا منتهى الخلائق.

فلم أزل كذلك، حتى وصلت إلى العرش، فاتّضع كلُّ شيء عند العرش، وكَلَّ لساني من هيبة السلطان، ثم أطلقَ الله لساني، فقلت: التحيات المباركات، والصلوات الطيبات لله.

وفرض الله عليَّ، وعلى أمتي في كل يوم وليلة خمسين صلاة.

ورجعت إلى جبريل، فأخذني وأدخلني الجنة، فرأيت القصور من الدرّ والياقوت والزبرجد، ورأيت نهراً يخرج من أصله ماء أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، على رَضْراض من الدِّر والياقوت والمسك، فقال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك.

ثم عرض علي النار، فنظرت في أغلالها وسلاسلها، وحَيَّاتها وعقاربها، وما فيها من العذاب.

ثم أخرجني حتى أتينا على موسى ـ عليه السلام ـ، فقال: ماذا فرض عليك وعلى أمّتك؟ قلت: خمسين صلاة، فقال: إني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل، وعالجتُهم أشدَّ معالجة، على أقلَّ من هذا، فلم يفعلوا. ارجعْ إلى ربك، فسَلْه التخفيف.

فرجعتُ إلى ربي، وسألته، فخفف عني عَشْراً، فرجعتُ إلى موسى فأخبرتُه، فقال: ارجعْ وسلِ التخفيفَ، فرجعتُ، فخفف عني عشراً، فلم أزلْ بين ربي وموسى حتى جعلَها خمساً، فقال: ارجعْ، فقلتُ: إنني قد

استَحْييت من ربي، وما أنا براجع، فنوديت: إني فرضت عليك وعلى أمّتك خمسين صلاة، والخمسُ بخمسين، وقد أمضيتُ فريضتي، وخففت عن عبادي.

ثم انحدرتُ أنا وجبريل إلى مضجعي، وكان ذلك في بعض ليلة».

فلما أصبح رسول الله ﷺ، علم أن الناس لا يصدقونه، فقعد في الحرم مغموماً، فمر به أبو جهل، فقال له كالمُسْتهزِئ: هل استفدت الليلة شيئاً؟ قال: «نعم، أُسري بي الليلةَ إلى البيت المقدَّس»، قال: ثم أصبحتَ بين أظهرنا؟! قال: «نعم»، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب ابن لؤي! هلمّوا، فأقبلوا، فحدثهم النبيُّ ﷺ، فمِنْ بينِ مصدّقٍ ومكذّبٍ واضعٍ يدَه على رأسه.

وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: إنّ صاحبك يزعم كذا وكذا، قال: إن كان قال ذلك، فقد صدق، وإني لأصدِّقه بما هو أبعدُ من ذلك، فسُمّي أبو بكر: الصدِّيق من يومئذ رضي الله عنه.

فقالوا لرسول الله ﷺ: انعتْ لنا المسجد الأقصى، قال: «فذهبتُ أنعَتُ حتى التبسَ عليَّ الأمر»، قال: «فجيء بالمسجد الأقصى، وأنا أنظرُ إليه، فجعلتُ أنعته».

قالوا: فأَخْبِرْنا عن عِيرنا، قال: «نعم، مررتُ على عيرِ بني فلانٍ بالرَّوحاء، وقد أضلّوا بعيراً لهم، وهم في طلبه، وأخذتُ قدحاً فيه ماء، فشربتُه، فسلوهم عن ذلك، ومررت بعيرِ بني فلانٍ، وفلانٌ وفلانٌ راكبان

قَعوداً، فنفر قَعودُهما مني، فسقطَ فلانٌ، فانكسرت يدُه، فاسألوهما، ومررتُ بعيرِكم بالتنعيم، يقدمُها جملٌ أَوْرَقُ، عليه غِرارتانِ، تطلُعُ عليكم معَ طلوع الشمس»، فخرجوا إلى الثنية، وجلسوا ينتظرون طلوعَ الشمس؛ ليُكذّبوه، إذ قال قائل: هذه الشمسُ قد طلعت، قال آخر: هذه العيرُ قد أقبلت، يقدَمُها بعير أَوْرَق كما قال، فقالوا: إن هذا إلا سحر مبين[1].

واختلف الناس في وقت المِعْرَاج، فقيل: كان ليلة السبت، لسبعَ عشرةَ ليلةً خلت من رمضان، في السنة الثالثةَ عشرةَ للنبوة.

وقيل: كان في ربيع الأول.

وقيل: كان في رجب.

واختلف ـ أيضاً ـ أهل العلم فيه، هل كان بجسده، أم كان رؤيا صادقة؟

فالذي عليه الجمهور: أنه كان بجسده.

وذهب آخرون أنه كان رؤيا صادقة، ورووا عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تقول: ما فُقِد جسدُ رسولِ الله ﷺ، ولكنَّ الله أسرى بروحه.

ونقلوا عن معاوية ـ أيضاً ـ: أنه كان يقول: إن الإسراء كان رؤيا صادقة[2].

---

(١) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١/ ٥٧٨).

(٢) رواه الطبري في «تهذيب الآثار» (١/ ٤٤٧).

ومنهم من جعل الإسراء إلى بيت المقدس جسدانياً، ومنه إلى السماوات السبع وسدرة المنتهى روحانياً، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

* * *

ذكر وفاة أبي طالب، وخديجة رضي الله عنها، وعرض رسول الله ﷺ نفسه على قبائل العرب

توفي أبو طالب وخديجةُ قبل الهجرة بثلاث سنين، بعد خروجهم من الشعب، توفي أبو طالب في شوال، وعمرهُ بضعٌ وثمانون سنة، وماتت خديجة قبلَه بخمسة وثمانين يوماً.

وقيل: كان بينهما خمسة وعشرون يوماً.

وقيل: ثلاثة أيام.

فعظُمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتهما، وقال رسول الله ﷺ: «ما نالَتْ قريشٌ مني شيئاً أكرهُه، حتى ماتَ أبو طالبٍ»[1]، وذلك أن قريشاً وصلوا مِنْ أذاه بعدَ موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته.

ولما اشتدَّ عليه الأمر، خرج ومعه زيدُ بنُ حارثة إلى ثقيف، يلتمس منهم النصر، فلما انتهى إليهم، عمد إلى ثلاثةِ نفرٍ منهم، وهم يومئذ سادةُ ثقيف، وكانوا إخوة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١/ ١٨٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

عمير. فدعاهم إلى الله تعالى، وكلّمهم في نصرتـه، والقيام معه على من خالفه، فلم يجيبوه، فقال له واحدٌ منهم: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الآخر: والله! لا أكلمك أبداً، لئن كنتَ رسولاً من الله ـ كما تقول ـ لأنتَ أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكـذب على الله، فما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ وقـد يئس من خيـر ثقيف، وقال: «إذا أَبيتُم، فاكتُموه علَيّ».

وأتى رسول الله ﷺ إلى كِنْـدةَ، وإلى بني حَنيفـة، وعرض عليهم نفسَه، ودعاهم إلى الله، فلم يقبلوا.

ولم يزل ﷺ [يعرِضُ نفسه] على كلِّ قادمٍ له اسمٌ وشَرَف، ويدعوه إلى الله تعالى.

وكلما أتى قبيلة يدعوهم إلى الإسلام، تبعه عمُّه أبو لهب، فمنعهم من طاعته، فيقول النبيُّ ﷺ: «يا بني فلان! إني رسولُ الله إليكم، يأمرُكم أن تعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبـدون من دونه، وأن تؤمنوا بي، وتصدِّقوني»، وعمه أبـو لهب ينادي: إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللاتَ والعُزَّى من أعناقكم إلى ما جاء بـه من البدعـة والضلالة، فلا تطيعوه، وكان أبو لهب أحولَ، له غديرتان.

* * *

ذكر تزويج رسول الله ﷺ عائشةَ رضي الله عنها

جاءت خَوْلَةَ بنتُ حَكيمٍ امرأةُ عثمانَ بنِ مَظْعـونٍ إلى رسول الله ﷺ، وتكلَّمت معه في تزويجِ عائشة رضي الله عنها، وسودَةَ بنتِ زَمعةَ.

ثم رجعـتْ إلى أبي بكر رضي الله عنه، وذكرت لـه ذلك، فزوَّجـه إياها، وعائشةُ يومئذ ابنةُ ستٍّ سنين.

ثم خرجت خولةُ، فدخلت على سَوْدَةَ، وأخبرتها بذلك، فقالت: وددتُ ذلك، ادخلي على أبي، فاذكري له ذلك، فذكرتْ له ذلك، قال: كفؤ كريم، فجاء رسولُ الله ﷺ، فزوجه إياها[1].

* * *

ذكر ابتداء أمر الأنصار

فلما أراد الله تعالى إظهارَ دينـه، وإنجازَ وعـده، خرج رسولُ الله ﷺ في الموسم، فعرض نفسه على القبائل كما كان يفعل، فبينما هـو عنـد العقبة، لقي رهطاً من الخزرج، فدعـاهم إلى الله تعالى، وعرض عليهم الإسلام، فأجابوه إلى ما دعاهم؛ بأن صدّقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا لـه: إنا تركنـا قومنـا، وبينهم من العـداوة والشـرِّ ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله تعالى بك، فسنقدم عليهم، وندعوهم إلى

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجلَ أعزُّ منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، قد آمنوا وصدَّقوا، وكانوا سبعةَ نفر من الخزرج: أسعدُ بنُ زُرارةَ بنِ عدس، وعوفُ بنُ الحارثِ بنِ رفاعة، ورافعُ بنُ مالكٍ، وعامرُ بنُ عبدِ بن حارثةَ ابنِ ثعلبة، وقطبةُ بنُ عامر بن حديدة، وعُقْبةُ بن عامر، وجابرُ بنُ عبدِالله ابن رئاب ـ بكسر الراء وبالياء المعجمة ـ.

فلما قدموا المدينة، ذكروا لهم رسولَ الله ﷺ، ودَعَوْهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم.

* * *

ذكر بيعة العقبة الأولى

فلما كان العام المقبل، وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأولى ـ، فبايعوه بيعةَ النساء: وهي: أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم.

فلما انصرفوا عنه، بعث رسولُ الله ﷺ معهم مصعبَ بنَ عُمير بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافِ بنِ عبدِ الدار، وأمره أن يُقرئهم القرآن، ويُعلِّمهم الإسلامَ فنزل بالمدينة، ولم يزل يدعو إلى الإسلام، حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجالٌ ونساء مسلمون، إلا مَنْ كان من بني أميةَ بنِ زيد ووائل، فإنهم أطاعوا أبا قيسِ بنَ الأسلت، فوقف بهم عن الإسلام،

وكان شاعراً لهم وقائداً، يستمعون له ويطيعونه.

* * *

ذكر بيعة العقبة الثانية

ولما فشا الإسلام في الأنصار، اتفق جماعة منهم على المسير إلى رسول الله ﷺ مستخفين، لا يشعر بهم أحد، فساروا إلى مكة في الموسم، في ذي الحجـة، مع كفار قومهم، واجتمعوا برسول الله ﷺ، وواعدوه أوسطَ أيامِ التشريق بالعقبـة، فلما كان الليل، خرجـوا بعـد مضي ثُلُثِـهِ مستخفين، يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة، وهم سبعون رجلاً، معهم امرأتان: نُسيبة بنتُ كعب، وأسماءُ أم عمرِو بنِ عديٍّ من بني سَلِمة.

وجاءهم رسولُ الله ﷺ، ومعه عمُّه العباس، وهو يومئذٍ كافرٌ، أحبَّ أن يتوثَّق لابن أخيه، فكان العباس أولَ من تكلم.

فبايعوه، فكان أول من بايعه: أبو أمامة أسعدُ بنُ زُرارة، وقيل: أبو الهيثم بنُ التيهان، وقيل: البراء بن مَعْرور، ثم تتابع القوم.

فتكلم رسـول الله ﷺ، وتلا القـرآن، ثم قـال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم»، ودار الكلام بينهم، واستوثق كلُّ فريق من الآخر.

ثم سألوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: إن قُتِلنا دونَك مالنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: فابسطْ يدك، فبسط يده، وبايعوه، فلما بايعوه، رجعوا إلى المدينة.

وكان قدومُهم في ذي الحجة، فأقام رسول الله ﷺ بقيةَ ذي الحجة، والمحرم، وصفر.

* * *

ذكر الهجرة الشريفة النبوية
ـ على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام ـ

وهي ابتداء التاريخ الإسلامي.

أما لفظة التاريخ، فإنها محدَثَة في لغة العرب؛ لأنه لفظ مُعَرَّب من (ماه روز)؛ لأن عمر رضي الله عنه قصد التوصُّل إلى الضبط من رسوم الفُرْس، فاستحضر الهرمزانَ، وسأله عن ذلك، فقال: إن لنا به حساباً، نسميه: (ماه روز)، ومعناه: حساب الشهور والأيام، فعرَّبوا الكلمة فقالوا: مؤرخ، ثم جعلوا اسمه: (التاريخ)، واستعملوه، ثم طلبوا وقتاً يجعلونه أولاً لتاريخ دولة الإسلام، واتفقوا على أن يكون المبدأ سنة هذه الهجرة.

وكانت الهجرة من مكة إلى المدينة ـ شرفها الله تعالى ـ وقد تَصَرَّمَ من شهور هذه السنة وأيامها المحرمُ، وصفرُ، وثمانيةُ أيام من ربيع الأول، فلما عزموا على تأسيس الهجرة، رجعوا القهقرى ثمانيةً وستين يوماً، وجعلوا مبدأ التاريخ أولَ المحرم من هذه السنة.

ثم أحصوا من أول يوم المحرم، إلى آخر يوم من عُمْرِ النبيِّ ﷺ، فكان عشر سنين، وشهرين، وأياماً، إذا حسب عمره من الهجرة، فيكون قد عاش بعدها تسع سنين، وأحدَ عشرَ شهراً، واثنين وعشرين يوماً.

وأما ما كان من حديث الهجرة، فإن رسولَ الله ﷺ هاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول.

ثم أمر رسولُ الله ﷺ أصحابه بالمهاجرة إلى المدينة.

فكان أولَ من قدمها: أبو سَلَمَة بنُ عبدِ الأسد، ثم هاجر من بعده عامرُ بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنتُ أبي خيثمة، ثم عبدُالله بن جحش وأخوه، وجميعُ أهله، وتتابع الصحابة، ثم هاجر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما تتابع أصحاب رسول الله ﷺ، أقام هو بمكة، ينتظر ما يؤمر به، وتخلف معه أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

فلما رأت قريش ذلك، حذروا خروجَ رسول الله ﷺ، فاجتمعوا في دار الندوة ـ وهي دار قُصَيِّ بنِ كِلابٍ ـ وأجمعوا على مكيدةٍ يفعلونها مع رسول الله ﷺ، فنجاه الله من مكرهم، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[الأنفال: ٣٠] الآية. وأمره بالهجرة.

وكان اتفاق الكفار أن يأخذوا من كل قبيلة رجلاً؛ ليضربوه بسيوفهم ضربة واحدة، ليضيع دمُه في القبائل، وبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فأمر علياً أن ينام على فراشه، وأن يَتَّشِح ببردِه الأخضر، وأن يتخلَّف عنه؛ ليؤدِّي ما كان عندَ رسول الله ﷺ من الودائع إلى أربابها.

وكان الكفار قد اجتمعوا على باب النبيِّ ﷺ يرصدونه؛ ليثبوا عليه، وأخذ النبيُّ ﷺ حفنةً من تراب، وتلا أولَ ﴿يسٓ﴾[يسٓ: ١]، وجعل ذلك الترابَ على رؤوس الكفار، فلم يروه، فأتاهم آتٍ، وقال: إن محمداً

خرج، ووضعَ على رؤوسكم الترابَ، وجعلوا ينظرون، فيرون علياً عليه بُرْدَةُ النبيِّ ﷺ، فيقولون: [إن] محمداً نائم، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ، فعرفوه.

وأقام عليٌّ بمكة حتى أَدَّى ودائعَ النبيِّ ﷺ.

وقصد النبيُّ ﷺ لما خرج من داره دار أبي بكر رضي الله عنه، وأعلمه أن الله تعالى قد أذن في الهجرة، فقال أبو بكر: الصحبةَ يا رسول الله، قال: «الصحبة»، فبكى أبو بكر رضي الله عنه فرحاً، واستأجرَ عبدَالله بنَ أُريقط ـ وكان مشركاً ـ ليدلَّهما على الطريق، ومضى النبيُّ ﷺ وأبو بكر إلى غارٍ بثورٍ ـ وهو جبل أسفل مكة ـ، فأقاما فيه، ثم خرجا من الغار بعد ثلاثة أيام، وتوجها إلى المدينة، ومعهما عامرُ بنُ فُهيرةَ مولى أبي بكر الصديق، وعبدُالله بنُ أُريقط الدليلُ، وهو كافر.

وجدّتْ قريشٌ في طلبه، فتبعه سُراقَةُ بن مالكٍ المُدْلِجِيُّ، فلحق النبيَّ ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أدركنا الطلب، فقال له النبيُّ ﷺ: «لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا»، ودعا رسول الله ﷺ على سُراقة، فارتطمت فَرَسُه إلى بطنها في أرض صلبة، فقال سراقة: ادعُ اللهَ يا محمدُ؛ لتخلصني، ولكَ أن أردَّ الطلبَ عنك، فدعا له النبيُّ ﷺ، فخلص، ثم تبعه، فدعا عليه النبيُّ ﷺ، فارتطمت ثانيةً، وسأل الخلاصَ، وأن يردَّ الطلبَ عن النبي ﷺ، فأجابه النبيُّ ﷺ، ودعا له، وقال: «كيفَ بكَ يا سُراقَةُ إذا سُوِّرْتَ بِسِوارِ كِسْرى برويز؟»، فرجع سراقة، وردَّ كلَّ من لقيه عن الطلب،

بأن يقول: كفيتم ما هاهنا[1].

وقدم رسول الله ﷺ لاثنتي عشرةَ ليلةً خلت من ربيع الأول، من سنة إحدى، وذلك يوم الاثنين، الظهر، فنزل قباء على كُلْثوم بنِ الهَدْمِ، وأقام بقباء: الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وأسّس مسجدَ قُباء، وهو الذي نزل فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[التوبة: ١٠٨].

ثم خرج من قباء يومَ الجمعة، وأدركَتْ رسولَ الله ﷺ الجمعةُ في بني سالمِ بنِ عوفٍ، فصلاها في المسجد الذي ببطن الوادي، وكانت أولَ جمعةٍ صلاَّها بالمدينة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وقُبض يوم الاثنين[2].

واختلف العلماء في مقامه بمكة، بعد أن أوحي إليه، فقال أنس[3]، وابن عباس[4] ـ في رواية ـ: إنه أقام بمكة عشر سنين، وقيل: أقام ثلاثَ عشرةَ سنة.

ولعل الذي قال: عشر سنين، أراد: بعد إظهار الدعوة؛ فإنه بقي

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٢)، ومسلم (٢٠٠٩)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٧).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٤).

(٤) رواه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١/ ٢٠٧).

ثلاثَ سنين يُسِرُّها، ومما يؤيد هذا قولُ أبي قيس بنِ الأسلت:

ثَـوَى فـي قُـرَيْشٍ بِـضْعَ عَـشْرَةَ حِجَّـةً
يُـذَكِّرُ لَـوْ يَلْقَـى صَـدِيقاً مُوَاتِيـا

فهذا يدل على أن مقامه ثلاثَ عشرةَ سنة[١].

ثم إن رسول الله ﷺ رحل من قباء، يريد المدينة، فما مر على دار من دور الأنصار، إلا قالوا: هَلُمَّ يا رسولَ الله إلى العدد والعدة، ويعترضون ناقته، فيقول: «خَلُّوا سَبيلَها؛ فإنَّها مَأْمورَةٌ» حتى انتهت إلى موضع مسجدِ النبيِّ ﷺ، فبركت هناك، ووضعت جِرانَها، فنزل عنها النبيُّ ﷺ، واحتمل أبو أيوبَ الأنصاريُّ الناقةَ إلى بيته[٢].

وكان موضعُ المسجد مِرْبَداً لسهلٍ وسُهيلٍ ابني عمرٍو، يتيمين في حِجْر معاذِ بنِ عفراءَ، وقيل: بل كان لبني النجَّار، وكان فيه نخلٌ، وخِرَبٌ، وقبور المشركين.

وأقام النبي ﷺ عند أبي أيوب، حتى بنى مسجدَه ومساكنَه، وكان قبلَه يصلِّي حيث أدركته الصلاة، وبناه هو والمهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

* * *

---

(١) انظر: «الكامل» لابن الأثير (٢/ ٨).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٣٧)، عن شرحبيل بن سعد.

ذكر ما بين الهجرة الشريفة والتواريخ القديمة

ما بين الهجرة وبين آدم ـ على مقتضى التـوراة اليونانيـة، واختيار المؤرخين ـ: ستةُ آلاف سنة، ومئتان وسـت عشرة سنة، وهو المعتمد ـ كما قد قدمناه ـ.

وبين الهجـرة وآدم ـ على مقتضى الـتـوراة اليـونـانيـة، واختيـار المنجمين ـ: خمسة آلاف، وتسع مئة وسبع وستون سنة.

وبيـن الهجـرة وآدم ـ على مقتضى الـتـوراة العبـرانيّـة، واختيـار المؤرخين ـ: أربعة آلاف وسبع مئة وإحدى وأربعون سنة.

وأما المنجمون، فتنقص عنه مئتين وتسعاً وأربعين سنة.

وبين الهجـرة وآدم ـ على مقتضى الـتـوراة السـامريّـة، واختيـار المؤرخين ـ: خمسة آلاف، ومئة وسبع وثلاثون سنة.

وأما اختيار المنجمين، فتنقص ما ذكر.

وكذا الأمر جاء في جميع التواريخ التي قبل بختنصر.

وبين الهجرة والطوفان ـ وكان لستِّ مئةِ سنةٍ مضت من عمر نوح ـ: ثلاثـة آلاف، وتسع مئـة وأربع وسبعون سنة، على اختيار المؤرخين، وعاش نوح بعده ثلاث مئة وخمسين سنة.

وبين الهجرة والطوفان ـ على اختيار المنجمين ـ: ثلاثة آلاف، وسبع مئة وخمس وعشرون سنة.

وبين الهجرة وتبلبل الألسن ـ على اختيار المؤرخين ـ: ثلاثة آلاف، وثلاث مئة وأربع وستون سنة.

وأما اختيار المنجمين، فينقص عنه مئتين وتسعاً وأربعين سنة.

وبين الهجرة ومولد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ: ألفان، وثمان مئة، وثلاث وتسعون سنة على اختيار المؤرخين.

وأما اختيار المنجمين، فينقص عنه مئتين وتسعاً وأربعين سنة.

وبين الهجرة ووفاة موسى ـ وفيه المذهبان ـ: ألفان، وثلاث مئة، وثمان وأربعون سنة، والمذكور هو على اختيار المؤرخين.

وبين الهجرة وعمارة بيت المقدس: ألفٌ وثمان مئة، وقريب سنتين، وكان فراغه لمضي إحدى عشرة سنة من ملك سليمان، ولمضي خمس مئة وست وأربعين سنة لوفاة موسى، وفيه المذهبان.

وبين الهجرة وابتداء ملك بختنصر: ألفٌ وثلاثُ مئة سنة، وتسع وستون سنة، ومئة وسبعة عشر يوماً، وليس فيه خلاف.

وبين الهجرة وخراب بيت المقدس: ألفٌ وثلاث مئة، وخمسون سنة، وكان لمضي تسعَ عشرةَ سنة من ملك بختنصر، وبقي خراباً سبعين سنة، ثم عُمِّر، وتراجعت إليه بنو إسرائيل.

وبين الهجرة وغَلَبة الإسكندر على ملك الفرس قبل دارا: تسع مئة وأربع وثلاثون سنة، وهو ـ أيضاً ـ ابتداء ملوك الطوائف.

ومات الإسكندر بعد غلبته بقريب سبع سنين، فيكون بين موته

وبين الهجرة تسعُ مئة وقريبُ ثمان وعشرين سنة.

ما بين الهجرة وغلبة أعبيطش على ديار مصر، وقتل فلويطرا وملكه اليونان: ست مئة وخمسون سنة، وكان لمضي اثنتي عشرة من ملك أعبيطش، وهو ـ أيضاً ـ تاريخ انقراض اليونان.

وبين الهجرة ومولد المسيح بن مريم: ست مئة، وإحدى وثلاثون سنة، وعاش إلى أن رفع ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون بين رفعه وبين الهجرة خمسُ مئة وثمان وتسعون سنة.

[وبين الهجرة] وفيلبس ـ وهو متقدم على تاريخ الإسكندر باثنتي عشرة سنة ـ: تسع مئة وست وأربعون سنة، وكان بين فيلبس وأعبيطش، ذكره بطلميوس في «المجسطي»، وقد أرَّخ به غالب أرصاده.

وبين الهجرة وخراب بيت المقدس الخرابَ الثاني: خمس مئة وثمان وخمسون سنة بالتقريب، وكان لمضي أربعين سنة من رفع المسيح، وهو تاريخ تشتُّتِ اليهود إلى البلاد.

وبين الهجرة وملك أزدشير بابل أبي الأكاسرة: أربع مئة واثنتان وعشرون سنة، وهو ـ أيضاً ـ تاريخ انقراض ملوك الطوائف.

وبين الهجرة وأول ملك أدريابوش: خمس مئة وسبع سنين.

وبين الهجرة وأول ملك دقلطيانونس، وهو آخر عبدة الأصنام من ملوك الروم: ثلاث مئة وتسع وثلاثون سنة.

وبين الهجرة وبناء الكعبة ـ بيت الله الحرام ـ على يد إبراهيم الخليل

وولده إسماعيل ـ عليهما السلام ـ، وهو بالتقريب: ألفان وست مئة وفوق ثلاث وتسعين سنة، وكان ذلك بعد مضي مئة سنة من عمر إبراهيم، وهو تقريب.

وبين الهجرة ومولد رسول الله ﷺ: ثلاث وخمسون سنة، وشهران.

وبين الهجرة ومبعث رسول الله ﷺ: ثلاث عشرة سنة، وشهران وثمانية أيام.

وبين الهجرة ووفاة رسول الله ﷺ: تسع سنين، وأحد عشر شهراً، واثنان وعشرون يوماً، وهي بعد الهجرة، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

* * *

ذكر الحوادث في السنة الأولى من الهجرة

* **فيها: بنى رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها** بعد قدومه المدينة بثمانية أشهر في ذي القعدة، وكان تزوجها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، وتوفي عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة[1].

وقال ابن الجوزي: بنى بها في السنة الثانية.

* **وفيها: كانت المؤاخاة بين المسلمين**: آخى رسول الله ﷺ،

---

(١) رواه البخاري (٤٨٦٣)، عن عائشة رضي الله عنها.

فاتخذ هو عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أخاً، فكان عليٌّ يقول على منبر الكوفة أيام خلافته: أنا عبدالله، وأخو رسول الله ﷺ[١].

وصار أبو بكر رضي الله عنه، وخارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصاري أخوين، وأبو عبيدة بنُ الجراح، وسعدُ بن معاذ الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وعِتبان بن مالك الأنصاري، وطلحة بن عبدالله، وكعب بن مالك الأنصاري، وسعيد بن زيد، وأُبي بن كعب الأنصاري ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

* **وفيها: ولد عبدالله بن الزبير**: وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة[٢]، وكان النعمان بن بشير أول مولود للأنصار بعد الهجرة[٣].

وقال ابن الجوزي: إنه ولد في السنة الثانية.

* **وفيها: كانت غزوة (بواط)**: فغنم رسول الله ﷺ، ورجع، ولم يلقَ كيداً، وكان حامل لوائه سعد بن أبي وقاص، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ.

* **وفيها: هلَك الوليد بن المغيرة**، والعاصُ بنُ وائل السهمي، شيخا قريش، ماتا مشركين.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٥١٥٢)، ومسلم (٢١٤٦)، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الكامل» لابن الأثير (٢/ ١٠).

* **وفيها: غزا رسول الله ﷺ غزوة (الأبواء)**: ورجع منصوراً، ولم يلقَ كيداً، **وغزوة العشيرة**.

* * *

السنة الثانية من الهجرة

* **فيها: حُوِّلت الصلاة إلى الكعبة**: وكانت الصلاة بمكة، وبعد مقدمه بثمانية عشر شهراً، إلى بيت المقدس، وذلك يوم الثلاثاء منتصف شعبان، فاستقبل الكعبة في صلاة [العصر][1]، وبلغ أهلَ قُباء ذلك، فتحولوا إلى جهة الكعبة، وهم في الصلاة[2].

* **وفيها**: في شعبان، **فرض صوم شهر رمضان**.

* **وفيها**: أمر الناس **بإخراج زكاة الفطر**، قبل الفطر بيوم أو يومين.

* **وفيها**: خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى، فصلى **صلاة العيد**، وحُملت بين يديه العَنَزَةُ، وكانت للزبير، وَهَبَها له النجاشيُّ.

* **وفيها**: أُري عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري **صورة الأذان** في النوم، وورد الوحي به[3].

وقال ابن الجوزي: في السنة الأولى.

---

(١) في الأصل «الظهر»، والمثبت من البخاري (٤٠)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٥٢٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٤٩٩).

* وفيها: **تزوج علي** رضي الله عنه بفاطمة بنتِ رسول الله ﷺ.

* وفيها: **كانت غزوة بدر الكبرى**، وهي الغزوة التي أظهر الله بها الدين.

وكان سببها: قتل عمرو بن الحضرمي، وإقبال أبي سفيان بن حرب في عيرٍ لقريش عظيمة من الشام، وفيها أموال كثيرة، ومعها ثمانون رجُلاً من قريش، منهم: مخرمة بن نوفل الزهري، وعمرو بن العاص.

فلما سمع رسولُ الله ﷺ، ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذهِ عِيرُ قُرَيشٍ، فيها أموالُهم، فاخْرُجوا إليهم، لعلَّ الله تعالى أن يُنَفِّلَكُمُوها»، فانتدب الناس، فخفَّ بعضهم، وثقل بعضهم[1].

وبلغ أبا سفيان ذلك، فبعث إلى مكة، وأعلم قريشاً بذلك، فخرج الناس من مكة سِراعاً، ولم يتخلف سوى أبي لهب، وكانت عِدَّتهم تسع مئة وخمسين رجلاً، فيهم مئة فرس.

وخرج رسولُ الله ﷺ من المدينة لثلاثٍ خلوْنَ من رمضان، ومعه ثلاث مئة، وثلاثة عشر رجلاً[2]، ولم يكن فيهم إلا فارسان، وكانت الإبل سبعين، يتعاقبون عليها.

ونزل النبي ﷺ الصفراء، وجاءته الأخبار بأن العير قاربت بدراً، وأن المشركين خرجوا ليمنعوا عنها، ثم ارتحل ـ عليه السلام ـ، ونزل في

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ١٥٣)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٣٩٥٨)، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما.

بدر، وأشار سعدُ بنُ معاذ ببناء عريشٍ لرسول الله ﷺ، فعُمِل، وجلس عليه، ومعه أبو بكر.

وأقبلت قريش، فلما رآهم رسولُ الله ﷺ، قال: «اللهمَّ هذهِ قريشٌ قد أقبلَتْ بِخُيلائِها وفَخْرِها تُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي بِه»(١).

وتقاربوا، وبرز من المشركين عُتبةُ بن ربيعة، وشَيبةُ بن ربيعة، والوليدُ بن عتبة، فأمر النبي ﷺ أن يبارز عُبيدةُ بنُ الحارث بنِ المطلبِ عتبةَ، وحمزةُ عمُّ النبي ﷺ شيبةَ، وعليُّ بن أبي طالب الوليدَ بنَ عُتبة. فقَتَل حمزةُ شيبةَ، وعليٌّ الوليدَ، وضَرَب كلٌّ واحد من عُبيدة وعُتبة صاحبَه، وكرَّ عليٌّ وحمزةُ على عتبةَ، فقتلاه، واحتملا عُبيدة، وقد قُطِعت رجلُه، ثم مات.

وتراجف القوم، ورسولُ الله ﷺ ومعه أبو بكر على العريش، وهو يدعو ويقول: «اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هَذِهِ العِصابَةُ، لا تُعْبَدْ في الأَرْضِ، اللهمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي»(٢).

ولم يزل كذلك حتى سقط رداؤه، فوضعها أبو بكر عليه، وخفق رسول الله ﷺ، ثم انتبه، فقال: «أَبْشِرْ يا أبا بَكْرٍ؛ فقدْ أتى نصرُ الله».

ثم خرج رسول الله ﷺ من العريش يحرّض المسلمين على القتال،

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ١٦٨).

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخذ حفنةً من الحصا، ورمى بها قريشاً، وقال: «شاهَتِ الوجوهُ»[1]، وقال لأصحابه: «شُدُّوا عليهم»، فكانت الهزيمة.

وكانت الوقعة صبيحة الجمعة، لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان.

وحمل عبدُالله بنُ مسعود رأسَ أبي جهل بنِ هشام إلى النبي ﷺ، فسجد شكراً لله تعالى، وقُتِل أبو جهل وله سبعون سنة، واسم أبي جهل: عمرو بن هشام بن المغيـرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وقُتل أخو أبي جهل، وهو العاص بن هشام.

ونَصَر الله نبيـه بالملائـكـة، قال الله تعـالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾[الأنفال: ٩].

وكان عدة قتلى بدر من المشركين سبعين رجلاً، والأسرى كذلك.

فمن القتلى غير من ذكر: حنظلة بن أبي سفيان بن حرب، وعُبيـدة ابن سعيد بن العاص بن أمية، قتله علي بن أبي طالب، وزمعةُ بن الأسود، قتله حمزة، وغيرهم جماعة من أكابر قريش.

وكان من جملة الأسرى: العباسُ عمُّ النبي ﷺ، وابنا أخيه: عَقيلُ ابن أبي طالب، ونوفلُ بن الحارث بن عبد المطلب.

ولما انقضى القتال، أمر النبي ﷺ بسحب القتلى إلى القَليب، وكانوا أربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقُذفوا فيه.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٢٠٣)، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

وأقام ـ عليه السلام ـ بعَرَصَة بدر ثلاثَ ليال، وجميع من استُشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

ولما وصل النبيُّ ﷺ إلى الصفراء راجعاً من بدر، أمر علياً بضرب عنق النَّضْر بن الحارث، وكان من شدة عداوته للنبي ﷺ، إذا تلا النبي ﷺ القرآن، يقول لقريش: ما يأتيكم محمدٌ إلا بأساطيرِ الأولين.

ثم أمر بضرب عنق عُقبة بن أبي مُعَيْطِ بنِ أمية.

وكان عثمان بن عفان قد تخلَّف عن رسول الله ﷺ في المدينة بأمره، بسبب مرض زوجته رقيةَ بنتِ رسول الله ﷺ، وماتت رقيةُ في غيبة رسول الله ﷺ، وكانت مدةُ غيبةِ رسول الله ﷺ تسعة عشر يوماً.

* **وفيها: هلك أبو لهب** عبدُ العُزَّى بنُ عبد المطلب بن هشام، لما جاءه الخبر بمكة، وما وقع في غزوة بدر، فلم يبقَ غير سبع ليال، ومات كَمَداً وحزناً، بمرض العدسة، وهي قرحة كانت العرب تتشاءم بها، ويرون أنها تُعدي أشدَّ العدوى، فلما أصابت أبا لهب، تباعدَ عنه بنوه، وبقي بعد موته ثلاثًا، لا يَقْرَبُه أحد، فلما خافوا السُّبَّة في تركه، حفروا له حفرةً، ثم دفعوه بعُود في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيدٍ حتى وارَوْه.

* **وفيها: غزوةُ بني قينقاع** من اليهود، وأمر بإجلائهم، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون جميع أموالهم.

* **وفيها: غزوة السويق**، وكان من أمرها: أن أبا سفيان حلف أن

لا يمسَّ الطيبَ والنساء، حتى يغزو محمداً ﷺ، بسبب قتلى بدر، فخرج في مئتي راكب، وبعث قُدَّامه رجالاً إلى المدينة، فوصلوا إلى العريض، وقتلوا رجالاً من الأنصار، فلما سمع النبي ﷺ بذلك، ركب في طلبه، وهرب أبو سفيان وأصحابُه، وجعلوا يُلقون جُرُبَ السَّويق تخفيفاً، فسميت: غزوة السويق.

* **وفيها: غزوة قرقرة الكدر**، وقرقرة الكدر: ماء، مما يلي جادة العراق إلى مكة، بلغ النبيَّ ﷺ أن بهذا الموضع جمعاً من سليم وغطفان، فخرج لقتالهم، فلم يجد أحداً، فاستاق ما وجد من النَّعَم، ثم قدم المدينة.

* **وفيها** ـ أعني: سنة اثنتين ـ: **توفي عثمان بن مظعون**، وكان عابداً مجتهداً، من فضلاء الصحابة، وهو أحد من حرّم الخمر في الجاهلية، وقال: لا أشرب شراباً يُذهِب عقلي، ويضحك بي مَنْ هو أدنى مني.

* **وفيها: قُتِل كَعْبُ بنُ الأَشْرَف اليهوديُّ**، وهو أحد بني نبهان من طَيِّئ، وكانت أمه من بني النضير، وكان قد كبُر عليه من قُتِل ببدر من قريش، فصار إلى مكة، وحرّض على رسول الله ﷺ، وبكى أصحاب بدر، وكان يُشَبِّبُ بنساء المسلمين حتى آذاهم، فأمر النبي ﷺ بقتله، فقُتل، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ مِنْ رِجَالِ يَهُودَ، فَاقْتُلُوهُ»[1]، وكانت قَتَلةُ ابنِ الأشرف من الأوس.

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٣٠٠٢)، عن محيصة رضي الله عنه.

وقيل: قتل في السنة الثالثة، قتله محمد بن مسلمة الأنصاري، والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الثالثة من الهجرة

* **وفيها: كانت غزوة أحد**: وكان من حديثها: أنه اجتمع [من] قريش ثلاثة آلاف، فيهم سبع مئة دارع[1]، ومعهم مئتا فارس، وقائدهم أبو سفيان بن حرب، ومعه زوجته هندٌ بنتُ عُتبة، وكانت جملة النساء خمسَ عشرةَ امرأة، ومعهنَّ الدفوفُ يعزفْنَ بها، ويبكين على قتلى بدر، ويحرضْنَ المشركين على حرب المسلمين.

وساروا من مكة حتى نزلوا الحليفة، مقابل المدينة، يوم الأربعاء، لأربع مَضَين من شوال سنة ثلاث.

وكان رأيُ رسولِ الله ﷺ المقامَ بالمدينة، وقتالهم بها، ورأى الصحابةُ الخروجَ لقتالهم، فخرج النبيُّ ﷺ في ألف من الصحابة، إلى أن صار بين المدينة وأُحد، ونزل الشِّعْبَ من أُحد، وجعل ظهره إلى أُحد.

ثمّ كانت الوقعة يوم السبت، لسبع مضين من شوال، وعِدَّةُ أصحاب رسول الله ﷺ سبع مئة، فيهم مئة دارع[2]، ولم يكن معهم من الخيل سوى

---

(١) في الأصل: «دراع».

(٢) في الأصل: «دراع».

فرسين: فرسُ رسول الله ﷺ، وفرسٌ لأبي بردة.

وكان لواءُ رسول الله ﷺ مع مُصْعَب بن عُمَيْر من بني عبد الدار.

وكان على ميمنة المشركين خالدُ بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمةُ ابن أبي جهل، ولواؤهم مع بني عبد الدار.

ولما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وضربن بالدفوف خلف الرجال [يحرضن]:

هِيهَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ   وِيهَا حُمَاةَ الأَدْبَارِ

ضَرْباً بِكُلِّ بَتَّارِ

وتقول:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ   نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ   أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ

وقاتلَ حمزةُ عمُّ النبي ﷺ يومئذ قتالاً شديداً، فقتل أرطاةَ حاملَ لواء المشركين، وقصدَ قتلَ سباع بنِ عبدِ العزى، فبينما هو مشتغلٌ بسباعٍ، إذ ضربه وحشيٌّ عبدُ جُبيرِ بنِ مطعمٍ ـ وكان حبشياً ـ بحربة، فقتل حمزةَ رضي الله عنه.

وقتل ابنُ قَمِئَةَ الليثيُّ مُصْعَباً حاملَ لواء رسول الله ﷺ، وقد ظنَّ أنه رسولُ الله ﷺ، فقال لقريش: إني قتلت محمداً.

ولما قُتِل مُصعب، أعطى النبيُّ ﷺ الرايةَ لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وأنزلَ الله نصرَهُ على المسلمين، وانهزم المشركون، فطمعت الرماةُ في الغنيمة، وفارقوا المكانَ الذي أمرهم النبيُّ ﷺ بملازمته، فأتى خالدُ ابنُ الوليد مع خيل المشركين من خلفِ المسلمين، ووقع الصراخُ: أن محمداً قُتِل، وانكشف المسلمون، وأصاب فيهم العدو، وكان يوم بلاء على المسلمين، وكان عدد الشهداء من المسلمين سبعين رجلاً، وعدة قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً.

ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ، وأصابته حجارتهم حتى وقع، وأُصيبت رَبَاعِيَتُه، وشُجَّ في وجهه، وكُلِمَتْ شفتُه، وكان الذي أصابَ رسولَ الله ﷺ عتبةُ بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وجعل الدمُ يسيل على وجه رسول الله ﷺ وهو يقول: «كيفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ»، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[آل عمران: ١٢٨][1].

ودخلت حلقتان من حِلَق المِغْفر في وجه رسول الله ﷺ من الشَّجَّة، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ، فسقطت ثنيته الواحدة، ثم نزع الأخرى، فسقطت ثنيته الأخرى، وكان أبو عبيدة ساقطَ الثنيتين، ومصّ مالك بن سنانُ أبو أبي سعيد الخدري[2]

---

(١) رواه ابن ماجه في «سننه» (٤٠٢٧)، وأصله في مسلم (١٧٩١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «سنان بن أبي سعيد».

الدمَ من وجـه رسول الله ﷺ، وازْدَرَدَهُ[1]، فقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ مَسَّ دَمِي [دَمَهُ] لَمْ تُصِبْهُ النَّارُ».

ومَثَّلت هندٌ وصواحبُها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، فجدَعْنَ الآذانَ والأنوف، واتخذنَ منها قلائـدَ، وبقرت هنـدٌ عن كبـد حمـزةَ، ولاكتها.

وضرب زوجُها أبو سفيان بزُجِّ الرمح شدقَ حمزة، وصعِدَ الجبل، وصرخ بأعلى صوتـه: الحربُ سِجال، يومٌ بيوم بدر، اعْلُ هُبَلُ؛ أي: أظهر دينك.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معـه، نادى: إن موعدَكم بدرٌ العام القابل، فقال النبي ﷺ لواحد: «قُلْ: هُوَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ»، ثم سار المشركون.

ثم التمس رسولُ الله ﷺ عمه حمـزةَ، فوجـده، وقـد بُقِر بطنُـه، وجُدِع أَنَفه وأُذناه، فقال رسول الله ﷺ: «لَئِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَى قُرَيشٍ، لأُمَثِّلَنَّ بِثَلاثِينَ مِنْهُمْ»[2]، ثم قال: «جاءني جبـريلُ، فأخبرَني أَنَّ حمزةَ مكتوبٌ في أهل السماواتِ السبعِ: حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ أسدُ اللهِ وأسدُ رسولِه»[3].

ثم أمر رسولُ الله ﷺ، فسُجِّي ببردة، ثم صلَّى عليـه، فكبـر سبعَ

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٢٦١).

(٢) رواه الدارقطني في «سننه» (٤/ ١١٦)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه الحاكم في «مستدركه» (٣/ ٢١٩)، عن عبد الرحمن بن أبي لبينة رضي الله عنه.

تكبيرات، ثم أُتي بالقتلى يوضعون إلى حمزة، فصلى عليهم وعليه، حتى صلى عليهم ثنتين وسبعين صلاة، وهـذا دليل لأبي حنيفـة؛ فإنـه يرى الصلاة على الشهيد؛ خلافاً للشافعي وأحمد ـ رحمهم الله ـ.

ثم أمر بحمزة فدُفِن، واحتُمِل ناسٌ من المسلمين إلى المـدينـة، فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله ﷺ، وقال: «ادفنوهُم حيثُ صُرِعوا»(١).

وأصيبت عينُ قَتادَةَ بنِ النعمان، فردّها رسولُ الله ﷺ بيده، فكانـت أحسنَ عينيه، واستُشهد أنسُ بنُ النَّضْرِ بنِ ضمضم عمُّ أنس بن مالك، وقد أبلى بلاءً حسناً، وفيه نزلت: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾[الأحزاب: ٢٣] الآية.

*** ذكر إرسال عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان:**

قيل: إن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى مكة، مـع رجل من الأنصار، وأمرهما بقتل أبي سفيان صخر بن حرب، فلم يظفرا بـه، فقتل عمرٌو عثمانَ بنَ مالكٍ التّيميَّ، فركب صاحبُ عمرٍو البعيرَ، وأتى رسولَ الله ﷺ، فأخبره الخبرَ، وأما عمـرٌو، فسار حتى دخل داراً بضجنان، ومعه قوسُه وأسهمه، فبينما هو فيـه، إذ دخل عليـه رجل من بني الديل، أعورُ طويلٌ، يسوق غنماً لـه، فقال: من الرجل؟ قال: من بني الديل، فاضطجع معه، ورفع عقيرته يتغنى ويقول:

---

(١) روى الترمذي في «سننه» (١٧١٧)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: «ردوا القتلى إلى مضاجعهم».

وَلَـسْتُ بِمُـسْلِمٍ مَادُمْـتُ حَيّـاً   وَلَسْتُ أَدِيـنُ دِيـنَ المُـسْلِمِينَا

ثم نام، فقتله، ثم سار، فإذا رجلان بعثتهما قريش، يتجسسان أمرَ رسولِ الله ﷺ، فرمى أحدَهما بسهم، فقتله، واستأسر الآخرُ، فقدمَ على رسول الله ﷺ، وأخبره الخبرَ، فضحك، ودعا له بخير[1].

* **وفيها ـ أعني السنة الثالثة من الهجرة ـ: تزوج النبي ﷺ حفصةَ** بنتَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وبنى بها فيها.

وقيل: تزوجها سنة اثنتين ـ والله أعلم ـ. وكانت قبل أن يتزوجها النبي ﷺ تحت خُنَيس بن حُذافة السهمي.

وخُنَيْس: بخاء معجمة مضمومة ونون مفتوحة بعدها ياء ساكنة وآخرها سين مهملة.

* * *

ودخلت السنة الرابعة من الهجرة

* **وفيها: كانت غزوة بني النضير من اليهود**، وسار إليهم النبي ﷺ في ربيع الأول، ونزل تحريمُ الخمر، وهو محاصر لهم، وأجلاهم، وكانت أموالهم فيئاً، فقسمها على المهاجرين دون الأنصار، إلا أن سهلَ ابنَ حنيف وأبا دُجانة ذكرا فقراً، فأعطاهما من ذلك شيئاً.

* **وفيها: كانت غزوة ذات الرِّقاع**، وسميت بذلك؛ لأنهم رقّعوا

---

(1) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٩٣).

فيها جراباتهم، وتقارب الناس، ولم يكن بينهما حرب، وكان ذلك في جمادى الأولى.

وفي هذه الغزوة قال رجُل من غطفان لقومه: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى، وحضر إلى عند النبي ﷺ، وقال: يا محمد! أُريد أن أنظر إلى سيفك، وكان محلًّى بفضة، فدفعه إليه، فأخذه، واستلّه، ثم جعل يهزُّه ويهمُّ، ويَكْبِتُه الله، ثم قال له: يا محمد! ما تخافني؟ فقال له: «لا أَخافُ منكَ»، ثم ردّ سيفَ رسولِ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[المائدة: ١١][1].

* **وفيها: كانت غزوة بدر الثانية**، وتسمى ـ أيضاً ـ: غزوة السَّويق.

ففي[2] شعبان من السنة الرابعة خرج رسولُ الله ﷺ إلى بدر لميعاد أبي سفيان بن حرب حتى نزل بدراً، فأقام عليها ثمانية ليالي ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة إلى مَرِّ الظَّهْران، وقيل: إلى عُسفان، ثم رجع، ورجعتْ قريشٌ معه، فسمّاهم أهلُ مكة جيشَ السَّويق، يقولون: إنما خرجتُم تشربون السويق، فلما لم يأت، انصرف رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، والله سبحانه أعلم.

* * *

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٨٦)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٢) في الأصل: «وفي».

* **وفيها: كانت غزوة الخندق**: وكانت في شوال من هذه السنة[1]، وكان من حديثها: أن نفراً من اليهود ـ وهم الذين حرّضوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ـ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، يدعونهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، وقالوا: دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أَوْلى بالحقِّ منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٥][2].

ولما سمع رسولُ الله ﷺ بهم، وما أجمعوا عليه، أمر بحفر الخندق حولَ المدينة، قيل: إنه بإشارة سلمانَ الفارسيِّ، وهو أولُ مشهد شهدَه مع رسول الله ﷺ.

وظهرت في حفر الخندق عدة معجزات:

* **منها**: ما رواه جابر، قال: اشتدَّت عليهم كديةٌ ـ أي: صخرة ـ،

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٦٥).

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٩٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤٠٨)، عن محمد بن كعب القرظي.

فدعا النبيُّ ﷺ بماءٍ، وتفل فيه، ونضحه عليها، فانهالت تحت المساحي[1].

* **ومنها**: أن أُبية بنتَ بشير بن سعيد الأنصاري، وهي أخت النعمان ابن بشير، بعثتها أمها بقليل تمر غداء أبيها بشير، وخالِها عبدِالله بن رواحة، فمرّت برسول الله ﷺ، فدعاها، وقال: «هاتي ما مَعَك يا بُنَيَّة»، فصبّتْ ذلك التمر في كَفَّي رسولِ الله ﷺ، فما امتلأتا، ثم دعا رسول الله ﷺ بثوب، وبدَّدَ ذلك التمر عليه، ثم قال لإنسان: «اصرخْ في أهلِ الخندقِ أَنْ هَلُمُّوا إلى الغداءِ»، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيدُ حتى صدر أهلُ الخندق عنه، وإنه ليسقطُ من أطراف الثوب.

* **ومنها**: ما رواه جابر، قال: كانت عندي شُوَيْهَةٌ غيرُ سمينة، فأمرتُ امرأتي أن تخبز قرصَ شعير، وأن تشوي تلكَ الشاةَ لرسولِ الله ﷺ، وكنا نعملُ في الخندق نهاراً، وننصرفُ إذا أمسينا، فلما انصرفنا من الخندق، قلت: يا رسول الله! صنعتُ لكَ شويهةً، ومعها شيءٌ من خبز الشعير، وأنا أحبُّ أن تنصرفَ إلى منزلي، فأمر رسولُ الله ﷺ من يصرخُ في الناس: أنِ انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيتِ جابر.

قال جابر: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ وكان ظَنَّ أن يمضي رسولُ الله ﷺ وحده ـ، وأقبل رسولُ الله ﷺ والناسُ معه، وقدَّمنا له ذلك، فبرَّكَ وسمّى، ثم أكل، وتواردها الناس، كلما صدر عنها قوم، جاء ناس،

---

(١) رواه البخاري (٣٨٧٥).

حتى صدر أهل الخندق عنها[1].

وروى سلمان الفارسي، قال: كنت قريباً من رسول الله ﷺ، وأنا أعمل في الخندق، فتغلظ عليَّ الموضعُ الذي كنت أعمل فيه، فلما رأى رسولُ الله ﷺ، أخذ المِعولَ، وضرب ضربة لمعت تحت المِعول بَرْقَةٌ، ثم ضرب أخرى، فلمعت برقةٌ أخرى، ثم ضرب أخرى، فلمعت برقة أخرى، قال فقلت: بأبي أنت وأمي! ما هذا الذي يلمع تحت المعول؟ فقال: «أرأيتَ ذلكَ يا سلمانُ؟»، فقلت: نعم. قال: «أَمَّا الأُولى، فإنَّ اللهَ فتحَ عَلَيَّ بها اليَمَنَ، وأَمَّا الثانيةُ، فإن اللهَ فتحَ عَلَيَّ بها الشَّامَ والمَغْرِبَ، وأَمَّا الثالثةُ، فإنَّ الله فتحَ عَلَيَّ بها المَشْرِقَ»[2].

وعمل رسول الله ﷺ في الخندق ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون، وفرغ رسول الله ﷺ من الخندق.

وأقبلت قريش في أحابيشها ومَنْ تبعها من كنانةَ في عشرة آلاف، وأقبلت غَطَفان ومن تبعها من أهل نجد، وكان بنو قريظة وكبيرُهم كعبُ ابنُ أسدٍ قد عاهد النبيَّ ﷺ، فما زال عليهم أصحابهم من اليهود حتى نقضوا العهد، وصاروا مع الأحزاب على رسول الله ﷺ.

وعَظُم عند ذلك الخَطْبُ، واشتد البلاء، حتى ظن المؤمنون كل الظن، ونَجَمَ النفاق، حتى قال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٧٧).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤١٩)، عن عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه.

كنوزَ قيصر، وأحدُنا اليومَ لا يأمَنْ على نفسه أن يذهب إلى الغائط[1].

وأقام رسول الله ﷺ والمشركون بضعاً وعشرين ليلة، ولم يكن بين القوم حربٌ إلا الرمي، وتقدم فوارسُ من قريش يلتمسون القتال، فأقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه، قالوا: والله! إن هذه لمَكيدةٌ، ما كانت العربُ تكيدها، ثم قَتَل عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه عَمْرَو بن عبدِ ودٍّ، وخرجتْ خيلُ قريش منهزمةً، وقال علي رضي الله عنه في ذلك:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ
وَنَصَرْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ بِضِرَابِ

فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدّلاً
كَالجِذْعِ بَيْنَ دكادِكٍ وَرَوَابي

لا تَحْسَبُنَّ اللهَ خَاذِلَ دِينِهِ
وَنَبِيِّهِ يا مَعْشَرَ الأَحْزَابِ

ثم نصر الله نبيَّه على المشركين، وخذَلهم، واختلفت كلمتُهم، ثم إن الله تعالى أهبَّ ريح الصَّبا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[الأحزاب: ٩]، فجعلت الريح تقلِب آنيتهم، وتَكْفَأُ قُدورهم، وانقلبوا خاسرين.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤٣٥)، عن عثمان بن كعب القرظي.

وبلغ رسولَ الله ﷺ أمرُهم، وأنهم عادوا راجعين إلى بلادهم، وقال رسولُ الله ﷺ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ، وَلا يَغْزُونَا»[1]، فكان كذلك حتى فتحِ مكة، والله أعلم.

* **وفيها: كانت غزوة بني قريظة في ذي القعدة:** ولما عاد النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة الأحزاب، وضع المسلمون السلاح، فلما كان الظُّهر أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ، فقال: أقدْ وضعتَ السلاح؟ قال: «نعم»، قال: ما وضعت الملائكةُ السلاح، إن الله ﷻ يأمرُك بالمسير إلى بني قُريظَة[2]، فإني عامدٌ إليهم، فَمُزَلْزِلٌ بهم[3].

فأمر رسولُ الله ﷺ منادياً، فنادى: مَنْ كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلينَّ العصرَ إلا في بني قريظة، وقدَّم علياً رضي الله عنه إليهم برايته، ثم تلاحق الناسُ، ونزل رسولُ الله ﷺ، وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، وقذفَ الله في قلوبهم الرعبَ، ولما اشتد بهم الحصار، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فردَّ الحكمَ فيهم إلى سعد بن معاذ، فحكَمَ أن تُقتل المقاتلة، وتُسبى الذرية والنساء، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٤١٠٩)، عن سليمان بن صرد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٥٨)، ومسلم (١٧٦٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٧٤).

(٤) رواه البخاري (٣٥٩٢)، ومسلم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، واللفظ لابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٧٥).

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينـة، وحبس بني قريظة في دار بنت الحارث: امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندقَ بها خنادقَ، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، وكانوا ست مئة، أو تسع مئة، وقيل: ما بين الثمان والسبع مئة.

ثم قسم رسول الله ﷺ الأموال، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفرس سهمان، ولفارسه سهم، وللراجل سهم، وكانت الخيل يومئذ ستة وثلاثين فرساً.

ثم قسم سبايا بني قريظة، فأخرج الخمس، واصطفى لنفسه ريحانةَ بنتَ عمرٍو، فكانت في ملكه حتى مات.

واستُشهد في غزوة بني قريظة خلادُ بن زيد بن ثعلبة، شهد العقبة وبدراً وأُحداً والخندق ويوم بني قريظة، وقُتل يومئذ شهيداً، دلَّت عليه امرأةٌ من بني قريظة رَحًى، شَدَخَتْ رأسـه، فقال رسول الله ﷺ: «له أَجْرُ شهيدينِ»[1]، وقتلها به[2]، ولم يستشهد في غزوة بني قريظة غيره.

وفي هذه السنة: توفي سعد بن معاذ بن النعمان بن زيـد بن عبد الأشهل رضي الله عنه، ولمـا مات، نزل جبريل ـ عليـه السـلام ـ على النبيِّ ﷺ معتجراً بعمامة من إستبرق، وقال: يا محمد! مَنْ هذا الذي فُتحت لـه

---

(١) رواه أبو داود في «سننه» (٢٤٨٨)، عن قيس بن شماس رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٣٠).

أبواب السماء، واهتزَّ لـه العرشُ[1]، فقام رسول الله ﷺ يجرُّ ثوبه إلى سعد ابن معاذ، فوجده قد مات[2]، وأخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أنه شهدَه سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبلَ ذلك[3].

وكان سعدُ بن معاذ جُرح على الخندق، وسأل الله تعالى أن لا يُميته حتى يغزو بني قريظة؛ لغدرهم برسولِ الله ﷺ[4]، فاندمَلَ جرحُه، حتى فرغ من غزوة بني قريظـة؛ كما سأل الله تعالى، ثم انتقض جرحه، ومات ـ رحمه الله تعالى ـ.

* **وفيها: هلك أمية بن أبي الصلت**: وكان قد قرأ الكتبَ المتقدمة، ورغب عن عبادة الأوثان، وأخبر أن نبياً يخرج قد أظلَّ زمانُه، وكان يؤمِّل أن يكون هو ذلك النبيَّ، فلما بلغه ظهورُ رسول الله ﷺ، كفر بـه حسداً له، وكان يحرِّض قريشاً بعد ذلك على النبي ﷺ.

* * *

السنة السادسة من الهجرة

خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى إلى بني لحيـان طالباً بثأر

---

(١) رواه البخاري (٣٥٩٢)، ومسلم (٢٤٦٦)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٦٠٢)، عن عبدالله بن أبي بكر.

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٤٢٩)، عن سعد بن إبراهيم.

(٤) رواه الترمذي في «سننه» (١٥٨٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٧٩)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

أهل الرجيع، فتحصنوا برؤوس الجبال، فنزل عسفان تخويفاً لأهل مكة، ثم رجع إلى المدينة.

* **وفيها: كانت غزوة ذي قُرَد**: وسببها: أن عُيينةَ بنَ حصنٍ الفزاريَّ أغار على لِقاحِ رسول الله ﷺ، وهي بالغابة، فخرج رسولُ الله ﷺ يوم الأربعاء، حتى وصل إلى ذي قرد، لأربع خلون من ربيع الأول، فاستنقذ بعضها، وعاد إلى المدينة، وكانت غَيبته خمس ليال.

وفي هذه الغزاة نودي: يا خيل الله! اركبي، ولم يكن يقال ذلك قبلَها[1].

وذو قرد: موضع على ميلين من المدينة على طريق خيبر.

* وفي شعبان، وقيل: في سنة خمس: كانت **غزوة بني المصطلق** من خزاعة، وكان بلغَ رسولَ الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وقائدُهم الحارثُ بن أبي ضرار، أبو جُويريةَ زوجِ النبي ﷺ، فلما سمع بهم، خرج إليهم، فلقيهم بماء يقال له: المريسيع، بناحية قديد، فاقتتلوا، فانهزم المشركون، وقُتِل من قُتِل منهم.

وكان حاملَ راية المهاجرين أبو بكر، ورايةِ الأنصار سعد بن عبادة، وأمر رسول الله ﷺ بالأسارى، فكتفوا، وجمع الغنائم، وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة آلاف شاة، وكان السبي مئتي بنت، وكانت غيبة رسول الله ﷺ عن المدينة ثمانيةً وعشرين يوماً.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٨٠).

وكان في جملة السبي: جُويريةُ بنتُ الحارث، كان اسمها بَرَّةَ، فسماها رسولُ الله ﷺ: جويرية[1]، وكانت إحدى أزواجه ﷺ، وكانت وقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها، فأدى رسولُ الله ﷺ كتابتَها، وتزوَّجها، فقال الناس: أصهارُ رسول الله ﷺ، فأُعتق بتزويجه إياها مئةُ أهل بيتٍ من بني المصطلق، فكانت عظيمةَ البركة على قومها[2].

*** ذكر قصة الإفك:**

ولما رجع رسولُ الله ﷺ من هذه الغزوة، وكان ببعض الطريق، قال أهل الإفك ما قالوا، وهم: مِسْطَحُ بن أُثاثَةَ بنِ عبادِ بنِ عبد المطلب، وهو ابنُ خالة أبي بكر، وحسانُ بنُ ثابت، وعبدالله بن أُبيٍّ ابنُ سلول الخزرجيُّ المنافق، وحَمْنَةُ بنتُ جَحْش، فرموا عائشةَ رضي الله عنها بالإفك مع صفوانَ بنِ المعطّل، وكان صاحبَ الساقة، فلما نزلتْ براءتها، جلدَهم رسولُ الله ﷺ ثمانين ثمانين، إلا عبدَالله بنَ أبي، فإنه لم يجلده، وكان صفوانُ حَصُوراً لا يأتي النساء[3].

وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم.

* **وفيها** ـ أعني: سنة ست ـ: كانت **عمرة الحديبية**، وهي أن

---

(١) رواه مسلم (٢١٤٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو داود (٣٩٣١)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه البخاري (٢٥١٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

رسول الله ﷺ خرج من المدينة في ذي القعـدة سنة ست معتمراً، لا يريد حرباً، بالمهاجرين والأنصار، في ألف وأربع مئة، وساق الهديَ، وأحرم بالعُمرة، وسار حتى وصل إلى ثنية المرار مهبط الحديبية أسفل مكة، وأمر بالنزول، فقالوا: ننزل على غير ماء؟! فأعطى رجُلاً سهماً من كنانتـه، وغرزه في قَليب من تلك القُلُب في جوفه، فجاش المـاء بالريِّ، حتى كفى الجيش، وكـان اسمُ الذي أخـذ السهم ناجيةَ بنَ عُمير، سائقَ بُدْنِ النبي ﷺ، وهذا من مشاهير معجزاته[1].

فبعثت قريشٌ عُروةَ بنَ مسعود الثقفيَّ، وهو سيدُ أهل الطائف، فأتى رسولَ الله ﷺ، وقال: إن قريشاً لبسوا جلود النمـور، وعاهـدوا الله أن لا تدخل عليهم مكة عَنْوَة أبداً، ثم جعل عُروة يتناول لحيةَ رسولِ الله ﷺ، وهو يكلِّمه، والمغيرةُ بنُ شُعبةَ واقف على رأس رسول الله ﷺ، فجعل يقرع يده، ويقول: كُفَّ يدَك عن وجـه رسول الله ﷺ، قبل أن لا ترجعَ إليك، فقال له عروة: ما أَفَظَّكَ وأغلظَكَ! فتبسَّم رسولُ الله ﷺ.

ثم قام عُروة من عند رسول الله ﷺ، وهو يرى ما يصنع أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصُق إلا ابتدروا بُصاقه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه.

ورجع إلى قريش، وقال لهم: إني جئتُ كسرى وقيصرَ في مُلْكهما، فوالله! ما رأيت ملكاً في قومه مثلَ محمد في أصحابه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٢٣)، عن المسور بن مخرمة ﷺ.

ثم إن رسولَ الله ﷺ دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى قريش؛ ليعلمهم بأن رسول الله ﷺ لم يأت لحرب، فقال عمر: إني أخاف قريشاً؛ لغلظتي عليهم، وعداوتي فيهم، فبعث رسولُ الله ﷺ عثمانَ بنَ عفان رضي الله عنه إلى أبي سفيان وأشرافِ قريش: أنـه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً، ومعظِّماً لهذا البيت.

فلما وصل إليهم عثمان بن عفان، وعرّفهم بذلك، فقالوا له: إن أحببتَ أنك تطوفُ بالبيت، فطـفْ، فقال: ما كنتُ لأفعلَه، حتى يطوفَ رسولُ الله ﷺ، فأمسَكوه، وحَبَسوه، وبلغَ رسولَ الله ﷺ أن عثمان قُتِل، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبْرَحُ حَتَّى نُـنَاجِزَ القَوْمَ»، ودعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، فكانت **بيعة الرضوان تحت الشجرة**، وكان الناس يقولون: بايعهم رسولُ الله على الموت، وكان جابرٌ يقول: لم يبايعْنا إلا على أننا لا نفرُّ، فبايع رسولُ الله ﷺ الناسَ، ولم يتخلف أحدٌ من المسلمين، إلا الحُرُّ بنُ قيسٍ، استترَ بناقته، وبايع رسولُ الله ﷺ لعثمانَ في غيبته، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، ثم أتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ أن عثمان لم يُقتَل.

*** ذكر الصلح بين رسول الله ﷺ وقريش:**

ثم إن قريشاً بعثوا سُهيلَ بنَ عمرٍو في الصلح، وتكلم مع النبي ﷺ في ذلـك، فلمـا أجـابَ إلى الصـلح، قـال عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه: يا رسول الله! ألستَ برسول الله؟ أَوَلسنا بالمسلمين؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى»، قال: فعلامَ نعُطي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبدُالله

ورسولُه، ولَنْ أُخالِفَ أَمْرَهُ، ولَنْ يُضَيِّعَني»[1].

ثم دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالـب، فقال: «اكتبْ: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سُهيل: لا أعرف هـذا، ولكن اكتبْ: باسمك اللهمَّ، فقال رسولُ الله ﷺ: «اكتبْ: باسمك اللهمَّ»، ثم قال: «اكتبْ: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله ﷺ»، فقال سهيل: لو شهدتُ أنك رسولُ الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمَك واسمَ أبيك، فقال رسول الله ﷺ: «اكتبْ: هذا ما صالح عليه محمدُ بنُ عبدِالله سُهيلَ بنَ عَمْرٍو على: وَضْعِ الحَرْبِ عن الناسِ عَشْرَ سِنينَ، وأنه مَنْ أَحَبَّ أن يدخُلَ في عقدِ محمدٍ وعهدِه، دخلَ فيـه، ومن أحبَّ أن يدخُلَ في عقدِ قريشٍ وعهدِهم، دخلَ فيه»، وأشهدوا في الكتاب على الصلح رجالاً من المسلمين والمشركين.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لما خرجوا من المدينة، لا يشكُّون في فتح مكة؛ لرؤيا رآها النبي ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، داخلَ الناسَ من ذلك أمرٌ عظيم، حتى كادوا يهلكون.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من ذلك، نحر هَدْيَه، وحلقَ رأسه، وقام الناس ـ أيضاً ـ، فنحروا وحلقوا، وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «يرحَمُ اللهُ المحلِّقين»، قالوا: والمقصِّرينَ يا رسول الله، قال: «يرحُم اللهُ المحلِّقين» حتى أعادوا، وأعاد ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «والمقصِّرينَ»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٧٨٥)، عن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٦٤٠)، ومسلم (١٣٠١)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ثم قفلَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة، حتى إذا كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ١ - ٢][1].

ودخل في الإسلام في هذه السنة مثلُ ما دخل فيه قبلَ ذلك وأكثرُ، وهاجر إلى رسول الله ﷺ نسوةٌ، فيهن أمُّ كلثومٍ بنتُ عقبةَ بنِ أبي مُعَيط، فجاء أخواها الوليدُ، وعمارة يطلبانها، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾[الممتحنة: ١٠]، فلم ترسل امرأة مؤمنة إلى مكة.

وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]، فطلق عمر رضي الله عنه امرأتين له، إحداهما: قُريبةُ بنتُ أبي أمية، فتزوجها معاوية وهما مشركان، والثانية: أم كلثوم بنة عمرو بن جَرْول الخزاعية، فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم، وهما مشركان.

* * *

السنة السابعة من الهجرة

* **فيها: كانت غزوة خيبر**: وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية، أقام بالمدينة ذا[2] الحجة وبعضَ المحرم، ثم خرج في منتصف

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٢٣)، عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) في الأصل: «ذي».

المحرم سنة سبع، وسار إلى خيبر في ألف وأربع مئة فارس، وخيبرُ على ثمان بُرُدٍ من المدينة، واستخلف على المدينة سباعَ بنَ عرفطة الغفاري، ولما أشرفَ رسولُ الله ﷺ على خيبر، قال لأصحابه: «قفوا»، ثم قال: «اللهمَّ ربَّ السَّموَاتِ وَما أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرَضِينَ وَما أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّياحِ وَمَا ذَرَيْنَ، نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ القَرْيَةِ، وخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، أَقْدِمُوا بِاسْمِ اللهِ»[1]، ونزل على خيبر ليلاً، ولم يعلم أهلها.

فلما أصبحوا، خرج أهلها إلى عملهم، ومعهم مَكاتِلُهم ومَساحيهم، فلما رأوه، عادوا، وقالوا: محمدٌ والخميسُ ـ يعنون: الجيش ـ، فقال النبي ﷺ: «اللهُ أكبرُ خَرِبَتْ خيبرُ، إِنَّا إِذا نَزَلْنا بِساحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ المنذَرِينَ»[2]، ثم حاصرهم، وضيّق عليهم، وبدأ بالأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتحها حصناً حصناً.

وأصاب منهم سبايا، منهن: صفيةُ بنتُ حُيَيِّ بنِ أخطبَ، وكانت عندَ كِنانَةَ بنِ الربيع بنِ أبي الحُقَيْق، فاصطفاها رسولُ الله ﷺ لنفسه، وتزوَّجها، وجعل عِتْقَها صَداقَها، وهذا مذهبُ الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وهو من مفردات مذهبه.

ثم افتتح حصنَ الصَّعْب، وما كان بخيبر حصنٌ أكثر طعاماً

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٥٩)، عن أبي معتب بن عمرو.

(٢) رواه البخاري (٣٦٤)، ومسلم (١٣٦٥)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ووَدكاً منـه، ثم انتهى إلى الوطيح، والسلالم، وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً.

وروي: أن رسول الله ﷺ ربما كانـت تأخذُه الشقيقةُ، فيلبث اليومَ واليومين لا يخرج، فلما نزلَ خيبرَ، أخذتـه، فأخـذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرايةَ، وقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع، فأخذها عمرُ، فقاتل قتالاً شديداً، أشدَّ من الأول، ثم رجـع، فأخبـر بذلك النبي ﷺ، فقال: «أَمَـا واللهِ! لأُعطينَّ الرايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللهُ ورسولُـه، كَرّاراً غَيْرَ فرّارٍ، يَأْخُذُها عَنْوَةً»، فتطاولَ المهاجـرون والأنصـار، وكان عليُّ ابن أبي طالب رضي الله عنه قـد تخلف بالمدينة لرمَدٍ لَحِقَه، فلما أصبحوا، جاء عليُّ رضي الله عنه على بعير له، فتفلَ النبيُّ ﷺ في عينه، فما اشتكى رمداً بعدها، ثم أعطاه الراية، فنهض بها، فأتى خيبرَ، فأشرف عليـه رجلٌ من يهـود خيبرَ، وقال: من أنت؟ قال: أنا عليُّ بن أبي طالـب، فقال اليهـودي: غُلبتم يا معشَر اليهود، فخرج مَرْحَبٌ من الحصن، وعليه مغفر يماني، وعلى رأسه بيضةٌ عادية، وهو يقول:

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي مَرْحَـبُ
شَـاكِي السِّلاحِ بَطَـلٌ مُجَـرَّبُ
أَطْعَـنُ أَحْيَانـاً وَحِينـاً أَضْـرِبُ
إِذَا اللُّيُـوثُ أَقْبَلَـتْ تَلْتَهِـبُ

فسار إليه عليٌّ رضي الله عنه، وقال مجيباً له:

أَنَــا الَّـــذِي سَـــمَّتْنِي أُمِّـــي حَيْـــدَرَهْ

أَكِـــيلُهُمْ بِالْـــسَّيْفِ كَيْـــلَ الـــسَّنْدَرَهْ

لَيْـــثٌ بِغَابَـــاتٍ شَـــدِيدُ القَـــسْوَرَهْ

واختلف بينهما ضربتين، فسبقه عليٌّ رضي الله عنه بضربتـه، فَقَـدَّ البيضة والمغفر، ورأسه، فسقط عدوُّ الله ميتاً[1].

وكان فتحُ خيبر في صفر، على يـد عليٍّ رضي الله عنه، بعـد حصار بضـعَ عشرةَ ليلة، وحاز رسول الله ﷺ الأموالَ كلَّها، وسأله اليهودُ أهلُ خيبر على أن يُساقِيَهم على النصف من ثمارهم، ويُخرجهم متى شاء، ففعل ذلك، وفعل مثل ذلك أهل فَدَك.

فكانت خيبرُ فيئـاً للمسلمين، وكانـت فَدَكُ خالصةً لرسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يُجلبـوا عليها بِخَيلٍ ولا رِكاب، ولم يزلْ يهودُ خيبـرَ كذلك، إلى خلافة عمرَ رضي الله عنه، فأجلاهم منها.

ولما فـرغ رسـول الله ﷺ من خيبـر، انصـرف إلى وادي القُرى، فحاصره ليلةً، وفتحه عَنْوَة.

ثم سـار إلى المدينـة، ولما قدمهـا، وصـل إليـه من الحبشة بقيةُ المهاجرين، ومنهم: جعفرُ بنُ أبي طالب، فـروي: أن النبي ﷺ قال: «ما أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أُسَرُّ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ، أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ»[2].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٢١١)، عن عبدالله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٩٣١)، عن علي رضي الله عنه.

وكان النبي ﷺ قد كتب إلى النجاشي يطلبهم، ويخطب أمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سفيان، وكانت هاجرتْ مع زوجها عبدِالله بن جحش، فتنصّر عبدُالله المذكور، وأقام بالحبشة، فزوّجها للنبي ﷺ ابنُ عمِّها خالدُ بنُ سعيد بنِ العاص بنِ أمية، وكان بالحبشة من جملة المهاجرين، وأصدَقَها النجاشي عن النبي ﷺ أربعَ مئة دينار، ولما بلغ أباها أبا سفيان أن النبيَّ ﷺ تزوجها، فقال: ذلك الفحلُ الذي لا يُجدَع أنفُه، فقدمتْ إلى النبي ﷺ، وكلّم رسولُ الله ﷺ المسلمين، في أن يدخلوا الذين حضروا من الحبشة، في سهامهم من مَغْنَم خيبر، ففعلوا.

وفي غزوة خيبر: أهدت للنبي ﷺ زينبُ بنت الحارث، امرأةُ سَلاَم ابن مِشْكَم اليهوديةُ شاةً مَصْلِيَّة مسمومة، فأخذ منها قطعة، ولاَكها، ثم لَفَظَها، وقال: «تُخبِرُني هذهِ الشاةُ أَنَّها مَسْمومَةٌ»، وكان معه بِشْرُ بنُ البراء بنِ مَعْرور، فأكل بشرٌ منها، ثم دعا النبيُّ ﷺ المرأة، فاعترفَتْ، فتجاوز عنها.

وقيل: مات بِشْرٌ، فقتلَها به[1].

ثم قال النبي ﷺ في مرضه: «إِنَّ أكلةَ خيبرَ لم تزلْ تُعاودني، وهذا زَمانُ انْقِطاعِ أَبْهَرِي»[2].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٤١٦٥)، عن عائشة رضي الله عنها.

* ذكر رسل النبي ﷺ إلى الملوك :

في هذه السنة ـ أعني : سنة سبع ـ بعث النبي ﷺ كُتُبَه ورُسُله إلى الملوك، يدعوهم إلى الإسلام :

ـ بعث إلى كسرى برويز بن هرمز : **عبدَالله بنَ حُذافة**، فمزّق كسرى كتابَ النبي ﷺ، وقال : يُكاتبني بهـذا وهو عبدي؟! ولما بلغ النبيَّ ﷺ ذلك، قال : «مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ»[1].

ـ ثم بعث كسرى إلى باذان عامِله باليمن : أن ابعثْ إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فبعث باذان إلى النبي ﷺ اثنين، أحدُهما يقال له : خرخسرة، وكتب معهما، يأمر النبيَّ ﷺ بالمسير إلى كسرى، فدخلا على النبي ﷺ، وقد حلقا لحاهما وشواربهما، فكرِه النبي ﷺ النظرَ إليهما، وقال : «وَيْلَكُمَا! مَنْ أَمَرَكُما بِذَلِكَ؟»، قالا : ربنا ـ يعنيان : كسرى ـ، فقال النبي ﷺ : «لَكِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعِفَّ عِنْ لِحْيَتِي، وَقَصِّ شَارِبِي»، فأعلماه بما قَدِما له، وقالا : إن فعلت، كتب فيك باذانُ إلى كسرى، وإن أَبيتَ، فهو يهلكك، فأخر النبي ﷺ إلى الغد، وأتى الخبرُ من السماء إلى النبي ﷺ : أن الله قد سلَّط على كسرى ابنَه شيرويه، فقتله، فدعاهما رسول الله ﷺ، وأخبرهما بذلك، وقال لهما : «إِنَّ دِينِي وسُلْطَانِي سيبلُغُ مُلْكَ كِسْرَى، فَقُولا لباذانَ أَنْ أَسْلِمْ»، فرجعا إلى باذان، وأخبراه بذلك، ثم ورد مكاتبه شيرويه إلى باذان بقتل أبيه كسرى، وأن لا يتعرض

---

(١) رواه البخاري (٤٤٢٤)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

للنبي ﷺ، فأسلمَ باذانُ، وأسلم معه ناسٌ من فارس[1].

- وبعث **دِحْيَةَ بنَ خَليفةَ الكلبيَّ** إلى قيصرَ ملكِ الروم، وهو هِرَقْلُ، فأكرمَ دحيةَ، ووضع كتابَ النبيِّ ﷺ على فخذه.

وكتب إلى رجل برومية، وكان يقرأ الكتب، يخبره بشأنه، فكتب إليه صاحب روميةَ أنه النبي الذي كنا ننتظر، لا شك فيه، فاتّبِعه وصدِّقه، فجمع هرقلُ بطارقته في دسكرةٍ، وغُلِّقت أبوابها، ثم اطلع عليهم من عُلِّيَّةٍ، وخافهم على نفسه، وقال لهم: قد أتاني كتابُ هذا الرجل، يدعوني إلى دينه، وإنه - والله - النبيُّ الذي نجده في كتبنا، فهلُمُّوا نتبعه، ونصدقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتُنا، قال: فنخروا نخرة رجلٍ واحدٍ، ثم ابتدروا الأبوابَ، ليخرجوا، فقال: رُدُّوهم عليَّ، وخافهم على نفسه، وقال لهم: إنما قلتُ لكم ما قلتُ؛ لأنظرَ كيف صلابتُكم في دينكم، وقد رأيتُ منكم ما سَرَّني، فسجدوا له[2]، وانطلقوا.

فقال لدحية: إني لأعلمُ أن صاحبك نبيٌّ مرسَل، ولكن أخاف الرومَ على نفسي، ولولا ذلك، لاتبعته[3]، وردَّ دحية رَدّاً جميلاً.

- وبعث **حاطبَ بنَ أبي بَلْتَعَةَ** إلى صاحب مصرَ، وهو المقوقِسُ جريجُ بنُ مَتَّى، فأكرم حاطباً، وقبَّل كتابَ رسول الله ﷺ، وأهدى إليه

---

(1) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٣٣)، عن يزيد بن حبيب رضي الله عنه.

(2) رواه البخاري (٧)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(3) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٣٠).

أربعَ جوارٍ، إحداهن: مارية، ولدَتْ من النبي ﷺ ابنَه ابراهيمَ، والأخرى سيرين، وهبها رسولُ ﷺ لحسانَ بنِ ثابت، وأهدى إليه ـ أيضاً ـ بغلته دُلْدُل، وحمارَه يعفور، وكِسْوةً.

ـ وبعث **عَمْرَو بنَ أُميةَ الضَّمريَّ** إلى النجاشي بالحبشة، فلما جاءه كتابُ رسول الله ﷺ، قبَّله، وآمنَ به، واتَّبعه، وأسلمَ على يدِ جعفرِ بنِ أبي طالب ﵁، حين كان عنده في الهجرة، واسمُ النجاشي أَصْحَمَةُ، ومعناه بالعربيِّ: عَطِيَّة.

ـ وأرسل **شجاعَ بنَ وهبٍ الأسديَّ** إلى الحارثِ بنِ أبي شمرٍ الغساني بدمشق، فلما قرأ كتابَ رسول الله ﷺ، قال: ها أنا سائرٌ إليه، فلما بلغَ رسولَ الله ﷺ قولُه، قال: «بَادَ مُلْكُهُ»[1].

ـ وأرسل **سليطَ بنَ عمرٍو العامريَّ** إلى هَوْذَةَ بنِ عليٍّ الحنفي، ملكِ اليمامة، وكان نصرانياً، فقال هوذةُ: إن جعلَ الأمرَ لي من بعدِهِ، سرتُ إليه، وأسلمتُ، ونصرته، وإلا، قصدت حربه، فقال النبي ﷺ: «لا حُبّاً ولا كرامَة، اللهمَّ اكْفِنِيهِ»، فمات بعد قليل[2].

وكان قد أرسل هوذةُ رجُلاً يقال له: الرحال ـ بالحاء وقيل: بالجيم ـ إلى النبي ﷺ، فأسلم، وقرأ سورةَ البقرة، ورجع إلى اليمامة، فارتدَّ، وشهدَ أن رسولَ الله ﷺ أشركَ معه مُسَيْلِمَةَ الكذابَ في النبوة،

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٦٢).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٦٢).

فكانت فتنته أشدَّ من فتنة مسيلمة.

ـ وأرسل **العلاءَ بنَ الحضرميِّ** إلى المنذر بن ساوى ملكِ البحرين، فلما أتاه يدعوه ومَنْ معه بالبحرين إلى الإسلام أو الجزية، وكانت ولايةُ البحرين من قبل الفرس، فأسلم المنذر، وأسلم جميعُ العرب بالبحرين.

*** ذكر عُمْرة القضاء:**

ثم خرج رسول الله ﷺ في ذي القعدة، من سنة سبع معتمراً عمرة القضاء، وساق معه سبعين بَدَنَة، ولما قرب من مكة، أخرجت له قريش غنماً، وتحدثوا أن النبي ﷺ في غش وجهدٍ وأصحابه، وقد أنهكتهم حُمَّى يثربَ، فاصطفوا له عند دار الندوة، فلما دخل المسجد، اضطبعَ؛ بأن جعل وسطَ ردائه تحت عَضُدِه الأيمن، وطرفيه على عاتقه الأيسر، ثم قال: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَرَاهُمُ اليَوْمَ قُوَّةً»، ورمل في أربعة أشواط من الطواف، ثم خرج إلى الصفا والمروة، فسعى بينهما[١].

وتزوج في سفره هذا ميمونةَ بنتَ الحارث، زوَّجه إياها عمُّه العباس، وذُكر أنه تزوجها محرِماً[٢]، وهو من خواصِّه ﷺ، وهي آخرُ امرأة تزوَّجها.

وأقام بمكة ثلاثاً، فأرسل المشركون إليه مع عليٍّ رضي الله عنه ليخرج

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ١٨)، وأصله عند مسلم (١٢٦٤)، عن أبي الطفيل رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٠١١)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

عنهم، فخرج عنهم وبنى بميمونةَ، وانصرف إلى المدينة ﷺ.

* * *

السنة الثامنة من الهجرة

*** ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة:**

لما انصرف عَمْرُو بن العاص مع الأحزاب عن الخندق، جمع رجالاً من قريش كانوا يرون رأيه، ويسمعون منه، فقال لهم: تعلمون ـ والله ـ أني أرى أمر محمد يعلو الأمورَ علوّاً منكَراً، وأني قد رأيت أن نكون عند النجاشي، قالوا: إن هذا هو الرأي، فجمعوا له أَدَماً كثيراً، وكان أحبّ إليه مما يهدي من أرضنا الأَدَم، ثم خرجوا حتى قدموا عليه، فجاء عَمْرُو بن أمية الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه، فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقال عمرو بن العاص لأصحابه: هذا عمرو بن أمية، لو دخلتُ إلى النجاشي، فسألتُه إياه، فأعطانيه، فضربتُ عنقه، فدخل على النجاشي، فسجد له كما كان يصنع، وكلمه فيما قال، فغضب النجاشي، ثم مدّ يده، فضرب بها أنفه ضربة، قال عمرو: ظننت أنه كسره، ثم قال: تسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموسُ الأكبر، الذي كان يأتي موسى لتقتله، قال له: أيها الملك! كذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني على الإسلام، قال: نعم، فبسط يده، فبايعه على الإسلام.

ثم خرج عمرو بن العاص إلى أصحابه، وقد حال رأيه عما كان

عليه، وكتم أصحابَه إسلامَه، ثم خرج عامداً إلى رسول الله ﷺ، فلقي خالدَ بنَ الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مقبلٌ من مكة، فقال: إلى أين يا بنَ أبي سليمان؟ فقال: والله! لقد استقام الميسم ـ أي: ظهرت العلامة ـ، وإن الرجلَ لنبي، أذهبُ ـ والله ـ إليه أُسلم، فحتى متى؟ قال: وأنا ـ والله ـ ما جئتُ إلا لأُسلم، فقدما المدينةَ على رسول الله ﷺ، فتقدم خالدُ بنُ الوليد فأسلم، وبايع، ثم دنا عمرو، فقال: يا رسول الله! إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخَّر، فقال النبي ﷺ: «يا عَمْرُو! بايِعْ؛ فإنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما كانَ قبلَهُ، وإن الهِجْرَةَ تَجُبُّ ما قبلَها»، فبايعه، ثم انصرف، وأسلم عثمانُ بن طلحة بن عبد الدار[1].

* **وفيها** ـ أعني: سنة ثمان من الهجرة ـ: **كانت غزوة مؤتة**، وهي أول الغزوات بين المسلمين والروم، وكانت في جمادى الأولى، ومؤتة من أرض الشام، وهي قِبليَّ الكَرَك.

وكان سببها: أن النبي ﷺ بعث **الحارثَ بنَ عُميرٍ** رسولاً إلى ملك بصرى بكتاب، كما بعث إلى سائر الملوك، فلما نزل مؤتة، عرض له عَمْرُو بنُ شرحبيل الغساني، فقتله، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره.

* **وفيها: اتُّخذ لرسولِ الله ﷺ المنبر**، وكان يخطُب إلى جِذْع نخلة، فلما كان يومُ الجمعة، خطب على المنبر، فَأَنَّ الجذعُ الذي كان

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٩٨).

يقوم عليه، كما يئنّ الصبيُّ، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَـدَ مِنَ الذِّكْرِ»[1]، فنزل، فمسحه بيده حتى سكن، فلما هدم المسجد وتغير، أخذ ذلك الجذعَ أُبَيٌّ بن كعب، فكان عندَه في داره حتى بَلي.

* **ذكر فتح مكة:**

وسبب ذلك: أن بني بكر بن عبـد مناة عَدَتْ على خُزاعـة، وهم على ماءٍ لهم بأسفلِ مكة، يقال لـه: الوثير، وكانـت خزاعـة في عهـد رسول الله ﷺ، وبنو بكر في عهد قريش في صلح الحديبية، وكانت بينهم حروب في الجاهلية.

فكلمت بنو بكر أشرافَ قريش أن يُعينـوهم على خزاعـةَ بالرجال والسلاح، فوعدوهم، ووافَوْهم متنكرين، فبيتوا خزاعةَ ليلاً، فقتلوا منهم عشرين، ثم ندمت قريشٌ على ما فعلوا، وعلموا أن هذا نقض العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وخرج عَمْرُو بنُ سالم الخزاعيُّ في طائفة من قومه، فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين بـه، فوقف عمرٌو عليه، وهو جالس بالمسجد، وأنشده أبياتاً، يسأله أن ينصره، فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتَ يا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ»، ثم قدم بُدَيلُ بنُ ورقاءَ الخزاعيُّ في نفرٍ من خزاعةَ على النبي، وأخبـره، فقال: «كأنكم بأبي سفيانَ قـد جاءكمُ يشدُّ العَقْدَ، ويَزيدُ في المدَّةِ»، فكان كذلك.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٠٠)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

ثم قدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أمِّ حبيبة أمِّ المؤمنين زوجِ رسول الله ﷺ، فلما ذهب ليجلسَ على فِراش رسول الله ﷺ، طَوَتْه عنه، فقال: ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش، أمن رغبتِ به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، قال: والله! لقد أصابك بعدي يا بنية شرٌّ.

ثم خرج، فأتى النبيَّ ﷺ، فكلمه، فلم يردَّ عليه شيئاً، فذهب إلى أبي بكر، ثم إلى عمر، ثم إلى عليٍّ رضي الله عنه على أن يكلموا النبي ﷺ في أمره، وتشفَّع بهم، فلم يفعلوا، فقال لعلي: يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد اشتدَّت عليَّ، فانصحْني، قال: والله! لا أعلم شيئاً يغني عنك، ولكنك سيدُ بني كنانة، فقم فَأَجِرْ بين الناس، والحقْ بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله! ما أظنه، ولكن لا أجدُ لك غيرَ ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس! إني قد أجرت بين الناس.

ثم ركب بعيراً، وانطلق، فلما قدم إلى قريش، قالوا: ما وراءك؟ فقص شأنه، وأنه قد أجار بين الناس، قالوا: فهل أجاز محمدٌ ذلك؟ قال: لا، قالوا: والله! إن زادَ الرجلُ على أن لعب بك[1].

قال: ثم أمر رسول الله ﷺ بالجهاز، وأمر أهلَه أن يجهزوه، ثم أعلم الناسَ بأنه يريد مكة، وقال: «اللهمَّ خُذِ العُيونَ والأخبارَ عن قريش

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٦)، عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

حَتَّى نَبْغَتَهُمْ في بِلادِهِمْ»، ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة كلثومَ بنَ الحصين الغفاريَّ، فخرج لعشرٍ مضين من شهر رمضان، ومعه المهاجرون والأنصار، وطوائفُ من العرب، فكان جيشُه عشرة آلاف، فصام، وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد، أفطر.

فخرج أبو سفيان بنُ حرب، وحكيمُ بن حزام، وبديلُ بنُ ورقاء يتجسسون الأخبار، وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج قبل ذلك بعياله مسلماً مهاجراً، فلقي رسولَ الله ﷺ بالجُحْفَة، وقيل: بذي الحليفة، ثم حضر أبو سفيان بن حرب على يد العباس إلى النبي ﷺ بعد أن استأمن له، فأسلم، وأسلم معه حكيمُ بن حزام، وبديلُ بن ورقاء، وقال العباس: يا رسول الله ﷺ! إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعلْ له شيئاً يكون في قومه، فقال: «مَنْ دخلَ دارَ أبي سُفيانَ فهو آمِنٌ، ومن دخلَ المسجدَ فهو آمنٌ، ومن دخلَ دارَ حكيمِ بنِ حزامٍ فهو آمِنٌ، ومن أغلقَ عليه بابَهُ فهو آمِنٌ»[1].

وكان فيمن خرج ولقي رسولَ الله ﷺ ببعض الطريق: أبو سفيان بنُ الحارث، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بالأبواء، فأعرضَ عنهما، فجاء إليه أبو سفيان بنُ الحارث بنِ عبد المطلب، فقبل وجهه، فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢]، وقبل منهما إسلامهما، فأنشده أبو سفيان

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/ ١٠٧)، عن عروة بن الزبير.

معتذراً إليـه أبياتاً، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «أنتَ طردتني كُلَّ مطرد؟»[1].

وكان أبو سفيان بعد ذلك ممن حَسُن إسلامه، فيقال: إنـه ما رفع رأسَه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياءً منه، وكان رسول الله ﷺ يحبه، ويشهد له بالجنة، ويقول: «أَرْجُو أَنْ يَكُونَ خَلَفاً مِنْ حَمْزَةَ».

وأمر النبي ﷺ الزبيرَ بنَ العوام أن يدخل ببعض الناس من كدى، وأمر سعدَ بن عبادة سيدَ الخزرج أن يدخل ببعض الناس من ثنية كَداء، ثم أمر علياً أن يأخذ الرايةَ منه، فيدخل بها؛ لما بلغـه من قول سعد: اليومَ يومُ الملحَمة، اليومَ نستحلُّ الحرمة، وأمر خالدَ بن الوليـد أن يدخل من أسفل مكة في بعض الناس، وكلُّ هؤلاء الجنـود لم يقاتلوا؛ لأن النبي ﷺ نهى عن القتال، إلا أن خالد بن الوليد لقيه جماعةٌ من قريش، فرمَوْه بالنبل، ومنعوه من الدخول، فقاتلهم خالد، فقتلَ من المشركين ثمانيةً وعشرين رجلاً، فلما ظهر النبيُّ ﷺ على ذلك، قال: «أَلَمْ أَنْهَـهُ عَنِ القِتَالِ؟!»، فقالوا له: إن خالداً قوتل فقاتل، وقُتل من المسلمين رجلان[2].

وكان فتح مكة يوم الجمعة، لعشر بقين من رمضان، ودخل رسول رسول الله ﷺ، ومَلَكَها عنوةً بالسيف، وإلى ذلك ذهبَ الشافعيُّ، وهو الصحيحُ من مذهـب أحمـد بن حنبل رضي الله عنهما، وقال أبـو حنيفة رضي الله عنه: إنها

---

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٤٦)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(2) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٣٣).

فتُحت صُلْحاً، والله أعلم.

ولما دخل النبي ﷺ مكة، كان على الكعبة ثلاثُ مئة وستون صنماً، قد شدَّ لهم إبليسُ أقدامَها بالرصاص، فجاء ومعه قضيبٌ، فجعل يومي إلى كل صنم منها، فيخرُّ لوجهه، فيقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، حتى مرَّ عليها كلها.

وقدم على النبي ﷺ وَحْشِيُّ بنُ حربٍ قاتلُ حمزةَ رضي الله عنه، وهو يقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَحْشِيٌّ؟»، فقال: نعم، قال: «أَخْبِرْني كيفَ قتلتَ عَمِّي»، فأخبره، فبكى، وقال: «غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي»[1].

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة، كانت عليه عِمامةٌ سوداءُ، فوقف على باب الكعبة، وقال: «لا إلهَ إلا الله وحدَه، صدقَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه»[2].

ثم قال: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! مَا تَرَوْنَ أَنِّي فاعِلٌ بِكُمْ؟»، قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخ كريم، قال: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»، فأعتقهم رسول الله ﷺ، وكان الله تعالى أمكَنَه منهم، وكانوا له فيئاً، فبذلك سمي أهل مكة: الطلقاء[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٤٤)، عن وحشي رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٥٤٧)، وابن ماجه (٢٦٢٨)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

(٣) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٦١)، عن قتادة السدوسي.

ولما اطمأن الناس، خرج رسول الله ﷺ إلى الطواف، فطاف بالبيت سبعاً على راحلته، واستلم الركن بِمِحْجَنٍ كان بيده[1]، ودخل الكعبة، ورأى فيها الشخوصَ، على صورة الملائكـة، وصورةَ إبراهيم، وفي يده الأزلامُ يستقسمُ بها، فقال: «قاتَلَهُمُ اللهُ! جَعَلُوا شَيْخَنا يَسْتَقْسِمُ بالأَزْلامِ، ما شَأْنُ إبراهيمَ وَالأَزْلام»، ثم أمر بتلك الصور فطُمست، وصلَّى بالبيت[2].

ثم جلس ﷺ على الصفا، واجتمع الناس لبيعته على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله، فبايع الرجال، ثم النساء.

وأهدر دمَ ستة رجالٍ، وأربعِ نسوةٍ:

فأولهم: عكرمةُ بن أبي جهل، ثم استأمنت له زوجتُه أمُّ حكيم، فآمنه، فقدم عكرمةُ، وأسلمَ.

ثانيهم: هَبَّارُ بن الأَسود.

ثالثهم: عبدُالله بن سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ، وكان أخا عثمانَ بن عفان من الرضاعة، فأتى عثمانُ بـه النبيَّ ﷺ، وسأله فيـه، فصمتَ النبيُّ ﷺ طويلاً، ثم آمنـه، فأسلم، وقال لأصحابـه: «إنما صَمَتُّ لِيَقُومَ أَحَدُكُمْ فَيَقْتُلَهُ»، فقالوا: هلاَّ أومأت إلينا، فقال لهم: «إنَّ الأنبياءَ لا تَكُون لهم

---

(١) رواه أبو داود (١٨٧٨)، وابن ماجه (٢٩٤٧)، عن صفية بنت شيبة رضي الله عنها.

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٧٥)، وأصله عند البخاري (٣١٧٤)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

خائِنَةُ الأَعْيُنِ»[1]، ـ وكان عبدُالله المذكورُ قد أسلم من قبل الفتح، وكتبَ الوحي، فكان يبدِّلُ القرآنَ، ثم ارتـدَّ ـ وعاش إلى خلافـة عثمان ﷺ، وولاه عثمانُ مصرَ.

ورابعُهم: مِقْيَسُ بنُ صبابةَ؛ لقتله الأنصاريَّ الذي قتل أخاه خطأ، وارتدَّ.

وخامسهم: عبدالله بن هلال، كـان قـد أسلم، ثم قتـل مسلمـاً، وارتدَّ.

وسادسهم: الحويرث بنُ نُفيل، كان يؤذي رسول الله ﷺ، ويهجوه، فلقيه علي بن أبي طالب، فقتله.

وأما النساء، فأولهن: هندٌ زوجُ أبي سفيان، أمُّ معاويـة، التي أكلت من كبد حمـزة، تنكَّرت مـع نساء قريش، وبايعتْ رسولَ الله ﷺ، فلما عرفَها، قالت: أنا هند، فاعفُ عما سلف، فعفا[2].

ولما جاء وقتُ الظهر يومَ الفتح، أذّن بلالٌ على ظهر الكعبة، وقال الحارث بن هشام: ليتني مِتُّ قبل هذا.

وقال خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أبي، فلم يرَ هذا اليوم، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، ثم ذكر لهم ما قالـوه، فقال الحـارث بن هشام: أشهدُ أنك رسول الله، ما اطَّلع على هذا أحد، فنقول: أخبركَ.

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي (٤٠٦٧)، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٦١)، عن قتادة السدوسي.

ومن النساء المهدَرات الدمِ: سارةُ مولاة بني هاشم.

وقام علي ﷺ، ومفتاحُ الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحِجابة مع السِّقاية، صلَّى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أينَ عثمانُ بنُ طلحةَ؟»، فدعي له، قال: «هاكَ مفتاحَكَ، يا عثمانُ، اليومَ يومُ بِرٍّ ووَفاءٍ»، قال: «خُذُوها تَالِدَةً خَالِدَةً، لا يَنْزِعُها منكُمْ إلاَّ ظالمٌ، يا عثمانُ! إنَّ اللهَ اسْتَأْمَنَكُمْ على بَيْتِهِ، فَكُلُوا مِمَّا يَصِلُ إليكُمْ من هَذَا البيتِ بالمعروفِ»[1].

* **إسلام فضالة:**

إن فضالةَ بنَ عُمير بن الملوح، أراد قتلَ النبي ﷺ، وهو يطوف بالبيت، عامَ الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أَفَضالَةُ؟»، قال: نعم، فضالةُ يا رسول الله ﷺ، قال: «ماذا كُنْتَ تحدّثُ به نَفْسَكَ؟»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله تعالى، فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ»، ووضع يده على صدره، فسكن قلبُه، قال فضالة: والله! ما رفع يدَه عن صدري، حتى ما خلقَ الله تعالى شيئاً أحبَّ إلي منه[2].

وبثّ رسولُ الله ﷺ السرايا إلى الأصنام التي حول مكة، فكسرها، منها: العُزَّى، ومَناةُ، وسُواعٌ، وبوانةُ، وذو الكفين، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فلا يَدَعْ في بيته صنماً إلا كسره.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٨٢)، عن عثمان بن طلحة ﷺ.

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٨٠).

* **ذكر غزوة خالد بن الوليد رضي الله عنه بني جذيمة:**

لما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث سرايا حول مكة إلى الناس، يدعوهم إلى الإسلام، ولم يأمرهم بقتال، وكان من السرايا: سرية مع خالد، فنزل على ماء لبني جذيمة، فأقبلت بنو جذيمة بالسلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح؛ فإن الناس قد أسلموا، فوضعوه، وأمر بهم، فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتلَ من قتل منهم، فلما بلغ النبيَّ ﷺ ما فعله خالد، رفع يديه إلى السماء، حتى بان بياضُ إبطيه، وقال: «اللهمَّ إنِّي أَبْرَأُ إليكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»[1]، ثم أرسل رسول الله عليَّ بن أبي طالب بمال، وأمره أن يؤدي لهم الدماء والأموال، ففعل عليٌّ ذلك، ثم سألهم: هل بقي لكم مال أو دم؟ فقالوا: لا، وكان قد فضل مع علي رضي الله عنه فضلُ مال، فدفعه إليهم زيادةً، تطييباً لقلوبهم، وأخبر النبيَّ ﷺ بذلك، فأعجبه[2].

* **ذكر غزوة هوازن بحنين:**

وكانت في شوال سنة ثمان، وحُنَيْنٌ: وادٍ بينه وبين مكة ثلاثة أميال، لما فتحت مكة، تجمعت هوازن بخيولهم وأموالهم لحرب رسول الله ﷺ، ومقدَّمُهم مالكُ بن عوفٍ النصري، وانضمت إليه ثقيف، وهم أهل

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨٤)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٩٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١١٤)، عن محمد بن علي.

الطائف، وبنو سعد بن بكر، وهم الذين كان النبي ﷺ مرتضعاً عندهم، وحضر مع بني جشم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة، وهو شيخ كبير قد جاوز المئة، وليس يراد منه غيرُ التيمن برأيه، وقال رجزاً:

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ

ولما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم، خرج من مكة لستٍّ ليال خلون من شوال سنة ثمان، وكان يقصر الصلاة بمكة، من يوم الفتح إلى غزوة هوازن، وخرج اثنا عشر ألفاً، ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف كانت معه، وكان صفوان بن أمية مع رسول الله ﷺ وهو كافر لم يُسلم، سأل أن يُمْهَلَ بالإسلام شهرين، وأجابه رسول الله ﷺ إلى ذلك، واستعار رسول الله ﷺ منه مئة درع في هذه الغزوة.

وحضرها ـ أيضاً ـ: جماعة كثيرة من المشركين، وهم مع رسول الله ﷺ.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى حنين، والمشركون بأوطاس، فقال دريد ابن الصمة: بأيِّ وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعمَ مجالُ الخيل، لا حَزْنٌ ضرس، ولا سهلٌ دهس، وركب النبي ﷺ بغلته دُلدل، وقال رجل من المسلمين لما رأى كثرة [مَنْ مع] النبي ﷺ: لن يُغلب هؤلاء من قلة، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[التوبة: ٢٥].

ولما التقوا، انكشف المسلمون، لا يلوي أحد على أحد، وانحاز

رسول الله ﷺ ذاتَ اليمين في نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيتـه، ولما انهزم المسلمون، أظهر أهلُ مكة ما في نفوسهم من الحقد، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دونَ البحر، وكانت الأزلامُ معه في كنانته.

وصرخ كلدةُ: الآن بطل السحر، وكلدة أخو صفوان بن أمية لأمه، وكان صفوان حينئذ مشركاً، فقال صفوان: اسكتْ فَضَّ الله فاك، والله! لأنْ يَرُبَّني رجلٌ من قريش، أحبُّ إلي أن يَرُبَّني رجل من هوازن[1].

واستمر رسول الله ﷺ ثابتاً، وتراجـع المسلمون، واقتتلـوا قتـالاً شديداً، وقال النبي ﷺ لبغلته دلـدل: «البـدي»، فوضعـت بطنَها على الأرض، وأخذ رسولُ الله ﷺ حفنةَ تراب، فرمى بها في وجه المشركين، فكانت الهزيمة، ونصر الله المسلمين، واتبع المسلمون المشركين يقتلونهم ويأسرونهم، وكـان في السبي: الشيماءُ بنتُ الحـارث، وأمهـا حليمـةُ السعدية، وكانت أختَ رسول الله ﷺ من الرضاع، فعرَّفته بذلك، وأرتْه العلامـة، وهي عضَّـة النبي ﷺ في ظهرها، فعرفها، وبسط لها رداءه، وزَوَّدها، وردَّها إلى قومها، حسبما سألت.

*** ذكر حصار الطائف:**

ولما انهزمت ثقيف من حنين إلى الطائف، سار النبي ﷺ إليهم، فأغلقوا باب مدينتهم، وحاصرهم النبي ﷺ نيفاً وعشرين يوماً، وقاتلهم

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١١٢).

بالمنجنيق، وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب بني ثقيف، فقطعت، ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل، فرحل عنهم، حتى نزل بالجِعرانة، وكان قد ترك بها غنائم هوازن.

وأتي رسول الله ﷺ بعض هوازن، ودخلوا عليه، فردَّ عليهم نصيبه ونصيب بني عبد المطلب، وردَّ الناس أبناءهم ونساءهم، ثم لحق مالكُ ابنُ عوف مقدَّمُ هوازنَ برسول الله ﷺ، وأسلمَ، وحسن إسلامه، واستعمله رسولُ الله ﷺ على قومه، وعلى مَنْ أسلم من تلك القبائل.

وكان عدة السبي: ستة آلاف رأس أطلقه رسول الله، وكانت عدة الإبل: أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية.

وأعطى المؤلَّفة قلوبُهم مثلَ أبي سفيان، وابنيه: يزيد، ومعاوية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام أخي أبي جهل، وصفوان بن أمية، وهؤلاء من قريش، وأعطى الأقرعَ بنَ حابس التميميَّ، وعُيينة بنَ حصن بنِ حذيفةَ بنِ بدر الفزاريَّ[1]، ومالكَ بنَ عوف مقدَّمَ هوازن، وأمثالهم، فأعطى لكل واحد من الأشراف مئةً من الإبل، وأعطى الآخرين أربعين أربعين، وأعطى للعباس بن مرداس السلمي أباعر لم يرضَها، وقال في ذلك من أبيات:

---

(١) في الأصل: «الذبياني».

فَأَصْـبَحَ نَهْبِـي وَنَهْـبُ العُبَيْـ

ـد بَـيْنَ عُيَيْنَـةَ وَالأَقْـرَعِ

وَمَـا كَـانَ حِـصْنٌ وَلاَ حَابِـسٌ

يَفُوقَـانِ مِـرْدَاسَ فِـي مَجْمَـعِ

وَمَـا كُنْـتُ دُونَ امْـرِئٍ مِنْهُمَـا

وَمَـنْ تَـضَعِ اليَـوْمَ لَـمْ يُرْفَـعِ

فـروي: أن النبي ﷺ قال: «اقْطَعُـوا عَنِّي لِسَانَـهُ»، فأُعطي حتى رضي[1].

لما قسم رسول الله ﷺ الغنائم، لم يعطِ الأنصار شيئاً، فوجدوا في أنفسهم، فدعاهم رسول الله ﷺ، وقال: «أَوَجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، أَلَّفْتُ بِها قَوْماً لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ؟، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالبَعِيرِ وَالشَّاةِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْلاَ الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ».

فبكى القومُ حتى اخضلَّت لِحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٧٥)، عن عبدالله بن أبي بكر.

قسماً وحظّاً[1].

ثم اعتمر رسولُ الله ﷺ، وعاد إلى المدينة، واستخلف على مكة عَتَّابَ بنَ أسيدِ بنِ أبي العيصِ بنِ أميـة، وهو شابٌّ لم يبلغ عشرين سنة، وترك معه مُعاذَ بنَ جبل يُفَقِّه الناسَ، وحجَّ بالناس في هذه السنة عتابٌ، على ما كانت العرب تحجُّ.

* **وفي سنة ثمان: ولد إبراهيم ابنُ النبيِّ ﷺ من ماريـة القبطيـة،** وفي السنة المذكـورة مات حاتم الطائي، وكان يضرب بجـوده المثل، وكرمه، وكان من الشعراء المجيدين[2].

* * *

السنة التاسعة من الهجرة

* **وفيها: ترادفت وفود العرب على النبي ﷺ بالمدينة:**

فممَّن ورد عليه: **عُروة بن مسعود الثقفي**: سيدُ ثقيف، وأسلم، وحسن إسلامـه، ومضى إلى الطائـف، ودعـاهم على الإسلام، فرماه أحدُهم بسهم، فمات ـ رحمه الله ـ.

ووفد **كعبُ بنُ زهير بن أبي سُلْمى** بعد أن كان النبيُّ ﷺ أهدرَ دمَه، ومدحَه بقصيدته المشهورة، وهي:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧٦)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) تقدم أن وفاة حاتم الطائي في السنة الثانية عشرة من مولد النبي ﷺ.

بَانَــتْ سُــعَادُ فَقَلْبِــــي الْيَــوْمَ مَتْبُــولُ

وأعطاه النبي ﷺ بُرْدَته، فلما كان زمنُ معاوية، أرسل إلى كعب: أن بِعْنا بردةَ رسول الله ﷺ، فقال: ما كنتُ لأُوثِرَ بثوبِ رسول الله ﷺ أحداً، فلما مات كعب، اشتراها معاوية من أولاده بعشرة آلاف درهم.

ونقل صاحب حماة: أنه اشتراها بأربعين ألف درهم، ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون حتى أخذها التتر(١).

*** ذكر غزوة تبوك:**

وفي رجب سنة تسع، أمر النبي ﷺ بالتجهيز لغزو الروم، وأعلم الناسَ مقصدَهم؛ لبعد الطريق، وقوة العدو، وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة، وَرَّى بغيرها، وكان الحر شديداً، والبلاد مُجدبة، والناس في عُسرة، ولذلك سُمي ذلك الجيش: جيشَ العُسرة، وكانت الثمار قد طابت، فأحبَّ الناسُ المقامَ في ثمارهم، فتجهزوا على كُره، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالنفقة، فأنفق أبو بكر جميعَ ماله، وأنفق عثمان نفقة عظيمة، وروي: أن النبي ﷺ قال: «لا يَضُرُّ عُثْمانَ ما صَنَعَ بعدَ اليومِ»(٢).

وتخلف عبدالله بن أُبيٍّ المنافقُ، ومَنْ تبعه من أهل النفاق، وتخلف

---

(١) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء الحموي (١/ ١٤٨).

(٢) رواه الترمذي (٣٧٠١)، عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.

ثلاثة من[1] الأنصار، وهم: كعبُ بن مالك، ومُرارةُ بنُ الربيع، وهلالُ ابنُ أميـة، واستخلف رسولُ الله ﷺ على أهله عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فأرجفَ به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلاَّ استثقالاً له، فلما سمع عليٌّ بذلك، أخذ سلاحه، ولحق بالنبي ﷺ، وأخبره بما قال المنافقون، فقال النبي ﷺ: «كَذَبوا، وإنما خَلَّفْتُكَ لِما ورائي، فارْجِعْ فاخْلُفْني في أَهْلي، أَما تَرْضَى أَنْ تَكونَ مِنِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلاَّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي»[2].

وكان مع رسول الله ﷺ ثلاثون ألفاً، فكانت الخيل عشرة آلاف فرس، ولَقُوا في الطريق شدة عظيمة من العطش والحر، ولما وصلوا إلى الحِجْر، وهي أرضُ ثمودَ، نهاهم رسول الله ﷺ عن ورود ذلك الماء، وأمرهم أن يهريقوا ما استَقَوه من مائه، وأن يطعموا العجين الذي عُجن بذلك الماء الإبلَ.

ووصل النبي ﷺ إلى تبوكَ، وأقام بها عشرين ليلة، وقَدِم عليه بها يوحنا صاحبُ أَيْلَة، فصالحه على الجزية، فبلغت جزيتُهم ثلاثَ مئةِ دينار، وصالح أهلَ أذرح على مئة دينار في كل رجب، وأرسل خالدَ بنَ الوليد إلى أُكَيْدِر بنِ عبد الملك، صاحبِ دومة الجندل، وكان نصرانياً من

---

(١) في الأصل زيادة: «غير».

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ١٩٩)، والإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٥٦٩)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

كِنْدَةَ، فأخذه خالد، وقتل أخاه، وأخـذ منـه خالـدٌ قباء ديباج مخوصٍ بالذهب، فأرسله إلى رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يتعجَّبـون منه، وقدم خالدٌ بأُكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على الجزية، وخلَّى سبيله.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، بعد ما أقام بتبوك بضعَ عشرةَ ليلة، لم يجاوزها، ولم تقدم عليه الروم والعرب المتنصرة.

ولما عاد إلى المدينة، وكان قد تخلَّف عنـه رهطٌ من المنافقين، فأتوه يحلفون له، ويعتـذرون، فصفح عنهم رسولُ الله ﷺ، وأرجأَ أمرَ كعبٍ وصاحبيه إلى الله تعالى.

*** ذكر قصة كعب وصاحبيه:**

قال كعـب بن مالك: كان من خبـري حين تخلفـت بالمدينـة عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسَر مني، حين تخلفتُ عنه في تلك الغَزاة، وكان رسول الله قلَّما يريد غزوة يغزوهـا إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانـت تلك الغـزوةُ، فغزاهـا رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلَّى للمسلمين أمرَهم؛ ليتأهبوا أُهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد.

والمسلمـون مـع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافـظ ـ يريد: الديوان ـ وغزا رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقْتُ أغدو لكي أتجهز معهم، ولم يزل يتمادى بي، حتى اشتـد بالناس الجدّ، فأصبح

رسولُ الله ﷺ والمسلمون معـه، ولم أقـضِ من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين، ثم ألحقهم، فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم ـ وليتني فعلت ـ فلم يُقَدَّر لي ذلك.

ولم يذكرني رسول الله حتى بلغ تبوكَ[1]، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعلَ كعبٌ؟»، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه ونظرهُ في عِطْفَيـه، فقال معـاذ بن جبل ﷺ: بئسَ ما قلتَ، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً.

فلما قدم رسول الله ﷺ، جاء المخلَّفون، فطَفِقوا يعتـذرون إليه، ويحلفون لـه، وكانـوا بضعة وثمانين رجـلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفـر لهم، ووَكَـلَ سرائـرهم إلى الله تعالى، فجئته، فلما رآني، تبسَّم تبسُّمَ المغضَب، وقال: «تَعالَ»، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال: «ما خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تكنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟»، فقلت: بلى، والله! لو جلستُ عند غيرك من أهـل الدنيـا، لرأيـت أني سأخرجُ من سخطـه بعـذر، ولقـد أُعطيـت جدلاً، ولكني ـ والله ـ لقد علمتُ، لئن حَدَّثتك اليومَ حديثَ كذب، ترضى به عني، ليوشكَنَّ الله أن يُسخطك عليَّ، ولئن حدثتك اليوم حديث صدق تجـدُ عليَّ فيـه، إني لأرجو فيه عفـوَ الله، لا والله! ما كان لي عـذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هَـذَا، فَقَدْ

---

(١) في الأصل: «تبوكاً».

صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ».

فقمت، وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني، فقالوا: والله! ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ مما اعتذر إليه المخلَّفون، قد كان كافيك ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك، فوالله! ما زالوا يؤنِّبونني، حتى أردت أن أرجعَ فأكذِّبَ نفسي، ثم قلت لهم: هل قال هذا أحد؟ قالوا: نعم: رجلان قالا ما قلتَ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك، فقلتُ من هما؟ قالوا: مُرارَةُ بنُ الربيع العمريُّ، وهِلالُ بن أُمية الواقفيُّ، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدراً، فقلت: لي فيهما أُسوة، فمضيتُ حينَ ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلَّف عنه، فاجتنبَنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرَتْ في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي، فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا، فكنت أَشَبَّ القوم، وأجلَدَهم، وكنت أخرج، فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ، فأسلِّم عليه، وهو في مجلسه بعدَ الصلاة، فأقولُ في نفسي: هل حَرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أُصلي قريباً منه، فأُسارقُه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي، أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرضَ عني.

ثم جاء نبطي من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وإذا فيه: أما بعد: فإنه بلغني أن صاحبك

قد جفاكَ، ولم يجعلْكَ الله بدار هَوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسِكَ، فقلت: وهذا ـ أيضاً ـ من البلاء، فتيممت بها التنور، فسجرته بها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطَلِّقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتـزلْها، ولا تقربْها، وأرسلَ إلى صاحبيَّ بمثلِ ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

وجاءت امـرأة هـلال بن أميـة إلى رسـول الله ﷺ، فاستأذنتـه في خدمتـه، فأذن لها، قال: «وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ»، فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتك، كمـا أذن لامرأة هلال أن تخدمه، فقلت: والله! لا أستأذن.

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت الفجر، سمعت صوت صارخٍ: يا كعبُ بنَ مالك! أبشرْ، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشـرون، فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَـه يبشرني، نزعتُ لـه ثوبيَّ، فكسوته إياهما، والله ما أملك غيرهما، واستعرت ثوبين، فلبستهما.

وانطلقت إلى رسول الله ﷺ بالمسجد، وهو جالس حولـه الناس، فلما سلَّمت عليه، قال ـ وهـو يبرق وجهُه من السرور ـ: «أَبْشِرْ بخيرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، قلتُ: أمِنْ عندِك يا رسول الله، أم من عند

الله؟ قال: «بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ».

فلما جلستُ بين يديه، قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال رسولُ الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قلت: فإني أُمسك سهمي الذي بخيبر، ثم قلت: يا رسول الله! إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت.

وأنزل الله تعالى على رسوله ـ عليه السلام ـ: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١١٧ ـ ١١٨].

فوالله! ما أنعم الله عليَّ نعمة قطُّ بعد أن هداني للإسلام، أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهلكَ كما هلك الذين كذبوا؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٩٥ ـ ٩٦][1].

---

(١) رواه البخاري (٤١٥٦)، ومسلم (٧١٩٢).

* **ذكر حَجِّ أبي بكر رضي الله عنه بالناس:**

وبعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه **في سنة تسع** ليحجَّ بالناس، ومعه عشرون بَدَنَـةٌ لرسول الله ﷺ، ومعـه ثلاثُ مئـة رجل، فلما كان بذي الحُلَيفـة، أرسل النبـي ﷺ عليَّ بنَ أبي طالـب رضي الله عنه، وأمـره بقراءة آيات من أول سورة براءة على الناس، وأن ينادي: أن لا يطوف بالبيت بعدَ السنة عُرْيان، ولا يحجَّ مشركٌ، فعاد أبو بكر، وقال: يا رسول الله! أَنزلَ فيَّ شيء؟ قال: «لا، ولكنْ لا يُبَلِّـغُ عَنِّي إلاَّ أَنا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي، أَلا تَرْضَى يا أَبا بَكْرٍ أَنَّكَ كُنْتَ مَعِي في الغارِ، وصَاحِبي عَلَى الحَوْضِ؟»، قـال: بلى. فسـار أبـو بكـر رضي الله عنه أميـراً على المـوسم، وعلي بـن أبـي طالب رضي الله عنه يـؤَذِّنُ بـ «براءةَ» يومَ الأضحى، وأن لا يحجّ بالبيت مشركٌ، ولا يطـوف عُرْيان(١).

* **وفي هذه السنة: تُوفي ذو البِـجادَيْنْ عبـدُالله المُـزَنيُّ في غَـزاة** تبوكَ، وتولى النبي ﷺ وأبـو بكر وعمـر رضي الله عنهما دفنـه، فكان النبي ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر رضي الله عنه يُدَلِّيانه إليه، وهو يقول: «أَدْليا لي أَخاكُما»، فَدَلَّياه إليـه، فلما هيَّأه لِشِقِّه، قال: «اللهمَّ إِنِّي قَدْ أَمْسَيْتُ رَاضِياً عَنْهُ، فارضَ عَنْهُ»(٢).

---

(١) رواه الطبري في «تاريخـه» (٢/ ١٩٢)، ورواه مختصراً البخـاري (٣٦٢)، ومسلم (١٣٤٧).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٢٢)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٠٩).

* **وفيها: هلَكَ رأسُ المنـافقين عبـدُالله بن أُبي [ابنُ] سلـول** في ذي القعـدة، وكُفِّـن في قميص النبي ﷺ، بسؤال ولـدِه عبدِالله، وجاء رسولُ الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صدره، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «أَخِّرْ عَنِّي يا عُمَرُ، قَـدْ خُيِّرْتُ، فَاخْتَرْتُ، قد قيـل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠]، ولو أعلَم أنِّي إن زِدْتُ على السبعينَ غُفِرَ لـه، لزدْتُ»، ثم صلى عليه، وقام على قبره حتى فرغ منـه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[التوبة: ٨٤] الآية[1]، وكان ابنه عبدُالله من خِيار الصحابة.

* * *

السنة العاشرة من الهجرة

* **فيها: جاءت على رسول الله ﷺ بالمدينة وفودُ العَرَب قاطبةً**، ودخل الناس في الدين أفواجاً، كما قال الله تعـالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[النصر: ١ ـ ٣].

* **وأسلم أهل اليمن**، وملوكُ حِمْيَر، وبعَثَ النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب ـ كرم الله وجهـه ـ إلى اليمن، فسار إليها، وقرأ كتابَ رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٠)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

على أهل اليمن، فأسلمت همدان كلُّها في يوم واحـد، وكُتِب بذلك إلى رسول الله ﷺ، ثم تتابـع أهـلُ اليمن على الإسلام، وكُتِـب بذلـك إلى رسول الله، فسجد شكراً لله تعالى، ثم أمر علياً بأخذ صدقـات نجرانَ وجِزْيتهم، ففعل، وعاد، فلقي رسول الله ﷺ بمكة في حجة الوداع.

* **وقدم عليـه عامر بن الطفيل، وأَرْبَدُ بنُ قيس، وجبار بنُ سلمى ابنِ مالكِ بنِ جعفر**، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء بني عامر وشياطينهم، فقدم عامرُ بن الطفيل ـ عدوُّ الله ـ على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغـدرَ به، ثم قال لأَرْبَدَ: إذا قدِمْنـا على الرَّجُل، فإني شاغلٌ عنك وجهَـهُ، فإذا فعلتُ ذلك، فَاعْلُه بالسيف، فلمَّا قَدِموا على رسول الله ﷺ، قال عامر ابن الطفيل: خالني يا محمد، قال: «لا وَاللهِ حَتَّى تُؤْمِنَ باللهِ وَحْـدَهُ»، وكرَّرَها مِراراً، وهو ينتظر من أَرْبدَ ما كان أَمَرَه بـه، فجعل أَرْبَدُ لا يتحرك بشيء، فلما أبى عليـه رسولُ الله ﷺ، قال عامـر: أمـا والله! لأملأنهـا عليك خيلاً ورجالاً، فلما ولَّى، قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ اكْفِني عامِرَ ابْنَ الطُّفَيْلِ».

وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقـه، فقتله الله تعالى، وخرج أَرْبَدُ ومعـه جَمَلٌ لـه يبيعُـه، فأرسل الله تعالى عليـه وعلى جَمَلِـه صاعقـة، فأحرقتهما[1].

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٢٦٠).

* **وقدم عليه الجارودُ بنُ بِشْرِ بنِ المعلَّى في وفد عبدِ القيس**، وكان نصرانياً، فأسلم، وأسلم أصحابه.

* **وقـدم وفـدُ بني حـنيفـة**، ومعـهم مسـيلمـة الكـذاب، فأتـوا رسولَ الله ﷺ، وخلَّفوا مسيلمة في رحالهم، فلما أسلموا، ذكروا مكانه، وأخبروا أنهم خلَّفوه يحفظ ركابهم، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمـر للقوم، فلما انتهى إلى اليمامة، ارتدَّ عدُّو الله، وتنبأ، وقال: إني أُشرِكْتُ معه في الأمر، وجعل يسجَعُ لهم، ويضاهي القرآن، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ، وسنذكر خبره ـ إن شاء الله تعالى ـ.

* **وقدم عليـه زَيْـدُ الخيل بنُ مهلهل الطائيُّ في وفـد طَيّ**، وهـو سيدُهم، فأسلموا، وحَسُنَ إسلامُهم، ثم سمَّاه رسول الله ﷺ: زيد الخير.

* **وقدم عليه عديُّ بن حاتم**، فأسلم.

* **وقدم عليه عَمْرُو بن مَعْد يكَرِبَ الزَّبِـيدِيُّ** في أناس من زَبيـد، فأسلم، وأسلم قيس بعد ذلك، وله ذكر في الصحابة، وكان شجاعاً فارساً شاعراً، والله أعلم.

* **وقدم فروة بن مُسَيك**، فأسلم هو وقومُه، وكذلك الأشعثُ بنُ قيس الكنديُّ، فأسلم، وكان رئيساً مطاعاً في الجاهلية، وجيهاً في قومه في الإسلام.

* **وقدم عليه وفد همدان**، وفيهم مالك بن نمط، فأسلموا، وكان مالك بن نمط شاعراً محسناً.

وتتابعت وفودُ العرب على النبي ﷺ، وفشا الإسلام في جميع القبائل.

* ذكر حجة الوداع:

خرج رسول الله ﷺ حاجّاً، لخمسٍ بَقِين من ذي القعدة، وقد اختلف في حجه، هل كان قِراناً، أم تمتعاً، أم إفراداً؟

قال صاحب حماة: والأظهرُ الذي اشتهر: أنه كان قارناً[1].

وحج رسول الله ﷺ بالناس، ولقي عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه محْرِماً، فقال: «حِلَّ كَما حَلَّ أَصْحابُكَ»، فقال: إني أهللت بما أهلَّ به رسول الله ﷺ[2]، فبقي على إحرامه.

ونحر رسول الله ﷺ الهَدْيَ عنه، وعلّم رسولُ الله ﷺ الناسَ مناسكَ الحجِّ والسنن، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، فبكى أبو بكر رضي الله عنه لما سمعها، وكأنه استشعرَ أنْ ليس بعد الكمال إلا النقصانُ، وأنه قد نُعيت إلى النبيِّ ﷺ نفسُه.

وخطب رسول الله ﷺ الناسَ بعرفةَ خطبة بَيّن فيها الأحكامَ، منها: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما النَّسِيءُ زِيادَةٌ في الكُفْرِ، وَإِنَّ الزَّمانَ اسْتَدارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ

---

(١) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ١٠٢).

(٢) رواه البخاري (١٥٦٨).

شَهْراً»، وتمم حجَّه.

وسُميت حجَّةَ الوداع؛ لأنه لم يحجَّ بعدها.

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأقام بها حتى خرجت السنة.

* * *

السنة الحادية عشرة من الهجرة

دخلَتْ والنبيُّ ﷺ بالمدينة، وكان قد قدم من حجة الوداع، وأقام بها حتى خرجت سنة عشر، والمحرَّم، ومعظمُ صفر، من سنة إحدى عشرة.

*** ذكر مرض رسول الله ﷺ ووفاته:**

ولما استكمل رسول الله ﷺ مدى عمره، بعد أن قام لله بأمره؛ بإظهار الدين ونشره، والاشتمال على طاعة الله وبره، وهو مؤيَّد بالفتح المبين، والنصر والتمكين، نقله الله إلى دار كرامته، وأدناه بعد أن أعلمه ـ فيما أنزل عليه ـ أنه قادم عليه، وصائر إليه، فعهد إلى الناس، وودَّعهم، وحذّرهم وبشَّرهم، ونصحهم وعلَّمهم، ووصّاهم وأنذرهم.

ابتدأ برسول الله ﷺ مرضُه الذي مات فيه، يومَ الأربعاء، لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة في بيت ميمونةَ، ثم انتقل حين اشتدَّ وجعُه إلى بيت عائشة رضي الله عنها.

ثم غمر رسول الله ﷺ، واشتد به وجعُه.

وقال ابن مسعود: نعى إلينا نبينا وحبيبنا ﷺ نفسَه قبل موتـه بشهر، فلما دنا الفراق، جمعنَـا في بيت عائشة رضي الله عنهـا، فنظـر إلينـا، وشدد، ودمعت عيناه، وقال: «مَرْحَباً بِكُمْ، حَيَّاكُمُ اللهُ، رَحِمَكُمُ اللهُ، آواكُمُ اللهُ، حَفِظَكُمُ اللهُ، رَفَعَكُمُ اللهُ، نَفَعَكُمُ اللهُ، وَفَّقَكُمُ اللهُ، سَلَّمَكُمُ اللهُ، قَبِـلَكُمُ اللهُ، أُوصِيكُمْ بِتَقْـوَى اللهِ، وَأُوصِي اللهَ بِكُـمْ، وأَسْتَخْلِفُـهُ عَلَيْكُمْ، وَأُحَذِّرُكُمُ اللهَ، إنِّي لَكُمْ مِنْهُ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، أَنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللهِ فِي عِبادِهِ وَبِلاَدِهِ؛ فَإِنَّهُ قَالَ لِي وَلَكُمْ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، دَنَا الفِرَاقُ، وَالمنقَلبُ إلَى اللهِ، إلَى جَنَّةِ المأْوَى، وإلى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَإلَى الرَّفِيقِ الأَعْلَى، وَالكَأْسِ الأَوْفَى، وَالعَيْشِ الأَهْنَى»[١].

ولما ثَقُل رسول الله ﷺ، جاءه بلال ليؤْذِنَه بالصلاة، فقال: «مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسولَ الله! إن أبا بكر رجلٌ أَسيفٌ، وإن يقمْ مقامَك لا يُسْمِعِ الناسَ، فلو أمرتَ عمرَ، قال: «مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، فقالت عائشة لحفصة: قولي لـه، فقالت له حفصة: يا رسول الله! إن أبا بكر رجل أسيف، وإنـه متى يقم مقامَك، لا يُسمـع الناسَ، فلو أمرت عمـر، فقـال: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِـبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّـاسِ»، فأمروا أبا بكـر يصلي بالناس،

---

(١) رواه البـزار في «مسنـده» (٢٠٢٨)، والطبـري في «تاريخـه» (٢/ ٢٢٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٩٩٦)، وفي «الدعاء» (ص: ٣٦٦).

فلما دخل في الصلاة، وجد رسولُ الله ﷺ من نفسه خِفَّة، فقام يتهادى بين رجُلين، ورجـلاه تَخُطَّان في الأرض، حتى دخـل المسجـد، فلما سمع أبو بكر رضي الله عنه حِسَّه، ذهب ليتأخر، فأومـأ إليـه رسولُ الله ﷺ: أنْ قمْ كما أنت، وجاء رسولُ الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان رسولُ الله ﷺ يصلِّي بالناس قاعداً، وأبو بكر قائماً، يقتدي أبـو بكر بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يقتدون بصلاة أبي بكر[1].

وكان عند رسول الله ﷺ سبعـةُ دنانير، وضعَها عنـد عائشة، فلما كان في مرضـه، قال: «يا عائِشَةُ! ابْعَثِي بالذَّهَـبِ إِلَى عَلِيٍّ»، ثم أُغمي عليه، وشغل عائشةَ ما به، حتى قال ذلك ثلاثَ مرات، كل ذلك يُغمى عليه، ويشغل عائشة ما به، فبعثت به إلى عليٍّ، فتصدق به.

ثم أمسى رسول الله ﷺ ليلةَ الاثنين في جديـد المـوت، فأرسلت عائشة رضي الله عنها إلى امـرأة من النساء بمصباحها، فقالـت: انظري لنا في مصباحنـا من عُكَك السـمن؛ فإن رسول الله ﷺ أمسى في جديد الموت[2].

وأقبلت فاطمـةُ رضي الله عنهـا كأنَّ مشيتَها مشيـةُ رسول الله ﷺ، فقال: «مَرْحَباً يا ابنتي»، ثم أجلسها عن يمينـه، أو عن شماله، ثم أسرّ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣)، ومسلم (٤١٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٣٩)، وابن حبـان في «صحيحه» (٧١٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٩٩٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

إليها حديثاً، فبكت، قالت عائشة: فقلت: استَخَصَّك رسولُ الله ﷺ بحديثه، ثم تبكين! ثم أسرّ إليها حديثاً، فضحكت، فقالت: ما رأيتُ كاليومِ فرحاً أقربَ من حزن، فسألتها عما قال لها؟ قالت: ما كنتُ لأُفشيَ سِرَّ رسول الله ﷺ، حتى إذا قُبض، سألتها، قالت: إنه أَسَرَّ إليَّ، فقال: «إنَّ جِبريلَ كانَ يُعارِضُني بِالقرآنِ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً، وإنَّهُ عارَضَني بهِ الآنَ مَرَّتَيْنِ، وَمَا أُراهُ إلاَّ قَدْ حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَولُ لحوقٍ بي، ونِعْمَ السَّلَفُ أَنا لَكِ»، فبكيت لذلك، ثم قال: «أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُوني سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ ـ أَوْ: نِسَاءِ المُؤْمِنِينَ ـ؟»، فضحكتُ لذلك[1].

ولما بقي من أَجَل محمد ﷺ ثلاثٌ، نزل عليه جبريلُ، فقال: يا أحمد! إن الله أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً عليك، وخاصَّة بك، يسألك عما هو أعلمُ به منك، يقول لك: كيفَ تجدُك؟ فقال: «أَجِدُني يا جِبْرِيلُ مَكْروباً، وأَجِدُني يا جِبريلُ مَغْموماً».

فلما كان في اليوم الثاني، هبط إليه جبريل، فقال: يا أحمد! إن الله أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصَّة بك، يسألك عما هو أعلمُ به منك، يقول لك: كيف تجدُك؟ فقال: «أَجِدُني يا جِبريلُ مَكْروباً، وأَجِدُني يا جِبريلُ مغموماً».

فلما كان في اليوم الثالث، نزل إليه جبريل، ونزل معه مَلَك يقال له: إسماعيل، يسكن الهوى، لم يصعد إلى السماء قَطُّ، ولم يهبط إلى

(١) رواه البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٤٥٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

الأرض، ومعـه سبعون ألـفَ مَلَك، فسبقهم جبريل، فقال: يا أحمد! إن الله أرسلني يقول لك: كيف تجـدك؟ فقال: «أَجِدُني يا جِبريلُ مَكْروباً، وأَجِدُني يا جِبريلُ مَغْموماً».

ثم استأذنَ عليه مَلَكُ الموت، فقال جبريلُ: يا أحمـد! هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يستأذن على آدميٍّ قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: «ائْذَنْ لَـهُ»، فدخل ملـك المـوت، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن الله أرسلني إليك، وأمرني بطاعتك في كل ما تأمرني، إن أمـرتني أن أقبض نفسك، قبضتها، وإن أمـرتني أن أتركها، تركتها، قال: «وَتَفْعَلُ يَا مَلَكَ المَـوْتِ؟»، قال: بذلك أُمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني به.

فقال جبريل: السلامُ عليك يا رسول الله، هذا آخرُ موطئي الأرض، إنما كنتَ حاجتي من الدنيا.

وتـوفِّي رسـولُ الله ﷺ، وجـاءت التعزيـةُ، يسمعـون الصـوتَ، ولا يرون الشخص: السلامُ عليكم يا أهلَ البيت ورحمةُ الله وبركاته، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، وإنما توفَّون أُجورَكم يوم القيامة، إنَّ في الله ﷻ عزاء من كل مصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودَرَكاً من كل ما فات، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصابُ من حُرِمَ الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٥٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» =

وكان من وصيته عند الموت: «الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ»، حتى جعل يتغرغر بها في صدره، ولا يفيض بها لسانه[1].

وكانت وفاته ﷺ يوم الاثنين، نصف النهار لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة وولد يوم الاثنين وقدم المدينةَ يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين.

وأخرجت عائشة رضي الله عنها كساءً جليداً، وكساءً غليظاً، فقالت: قُبِض رسول الله ﷺ في هذين.

ولما مات، قالت فاطمة رضي الله عنها: يا أبتاه! أجاب رَبّاً دعاه، يا أبتاه! في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريلَ أنعاه.

فلما دُفِن، قالت: يا أَنس! أطابتْ نفوسُكم أن تَحْثُوا على نبيكم التراب؟![2].

وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابنُ ثلاث وستين، وروي: خمس وستين، وروي: ستين، ونزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ أربعة وعشرين ألف مرة.

ولما توفي، دهش الناس، وطاشت عقولهم، واختلفت أحوالهم في ذلك.

= (٢٨٩٠)، عن علي بن الحسين، عن أبيه رضي الله عنه.

(١) رواه ابن ماجه (٢٦٩٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤١٩٣)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ولما قبض الله نبيه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من قال: إن رسول الله ﷺ مات، علَوْتُ رأسه بسيفي هذا، وإنما ارتفع إلى السماء، فقرأ أبو بكر رضي الله عنه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾[آل عمران: ١٤٤]، فرجع القومُ إلى قوله[١]، وبادروا إلى سَقيفة بني ساعِدَة، فبايع عُمَرُ أبا بكر، ثم بايعه الناسُ، خلا جماعةً.

وغسَّله ـ عليه السلام ـ عليٌّ، والعباس، وابناه: الفضل، وقُثَم، ومولياه: أسامة، وشقران، وحضرهم أوسُ بن خولي الأنصاري[٢].

وكفن ﷺ في ثلاثة أثواب بِيضٍ سحوليةٍ، ليس منها قميصٌ ولا عمامة[٣].

وصلى عليه المسلمون أفراداً، لم يؤمَّهم أحدٌ، وفُرِش تحتَه قَطيفةٌ حمراءُ كان يتغطى بها، ودخل قبرَه العباسُ، وعلي، والفضل، وقُثم، وشقران، وأُطبِقَ عليه تسعُ لَبِنات.

ودُفِن في الموضع الذي توفَّاه الله تعالى فيه، حُوِّلَ فراشُه، وغسَّلوه وعليه قميصُه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلُكونه والقميصُ دون

---

(١) رواه البخاري (١١٨٥)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٧٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٢٧)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (١٢١٤)، ومسلم (٩٤١)، عن عائشة رضي الله عنها.

أيديهم، فأسندَه عليٌّ إلى صدره، والعباسُ والفضلُ وقُثم يقلبونه معه، وأسامةُ وشقرانُ يصبون الماء، وعليٌّ يغسله بيده.

واختلفوا في موضع دفنه، هل يكون في مسجده، أو مع أصحابه؟ فقال أبو بكر: ادفنوه في الموضع الذي قُبِض فيه؛ فإن الله تعالى لم يقبض روحَه إلا في مكان طيب، فعلموا أنه قد صدق.

ولما فرغ من جهازه يوم الثلاثاء، ـ وكانت وفاته يوم الاثنين كما ذكرنا ـ، قال علي: لقد سمعنا همهمة، ولم نر شخصاً، سمعنا هاتفاً يقول: ادخُلوا ـ رحمكم الله ـ، فصلُّوا على نبيكم، ثم دفن من وسط الليل، ليلة الأربعاء، وهو الأصح.

وكانت مدة شكواه ثلاثَ عشرةَ ليلة.

وقال أنس بن مالك ﷺ: لَمَّا كان اليوم الذي دخل رسولُ الله ﷺ ـ يعني: المدينة ـ، أضاء منها كلُّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه، أظلمَ منها كل شيء[1].

وروي: أنه ﷺ قال: «أَنا فَرَطٌ لأُمَّتي، لَنْ يُصَابُوا بِمِثْلِي»[2].

ورثاه جماعة، منهم: أبو بكر الصديق، وعلي، وفاطمة، وعمَّتُه صفية ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١).

(٢) رواه الترمذي (١٠٦٢)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

وحفر له أبو طلحة الأنصاريُّ رضي الله عنه[1].

* * *

فصل في ذكر صفة النبي ﷺ

كان ﷺ رَبْعَةً من القوم، له شعر يَضْرِبُ مَنْكِبيه، بعيدَ ما بين المَنكِبين، ليسَ بالقصير، ولا بالطويل، لا بائِناً من طول، ولا تقتَحِمُه عينٌ من قِصَر، أبيضَ اللون مُشْرَباً بحُمْرة، وقيل: أزهر اللون، ليس بالأمهق، ولا بالآدم، له شعر رَجِلٌ، لم يبلغ الشيبُ في رأسه ولحيته عشرين شعرة، كأن عنقه جيدُ دُمية، في صفاء الفضة، ظاهرَ الوَضاءة، مليحَ الوجه، يتلألأ وجهُه تلألُؤَ القمر ليلة البدر، حَسَنَ الخَلْق، معتدلَ القامة، وسيماً قَسيماً، في عينيه دَعَج، وفي بياضِها عروقٌ رِقاقٌ حُمر، وفي أَجْفانِهِ قَطَفٌ، وفي صوته صَهَلٌ ـ ويروى: صَحَلٌ ـ، وفي عينيه سَطَعٌ، وفي لحيته كثافة، إن صَمَتَ، فعليه الوقار، وإن تكلم، سما، وعليه البهاء.

أجملُ الناس وأبهاهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنُهم من قريب، حلوُ المنطق، كأن منطقه خرَزاتُ نظمٍ يتحدَّرن، واسعُ الجبين، أَزَجُّ الحواجِبِ من غير قَرَن، بينهما عرقٌ يدرُّه الغضب، أَقْنى العِرْنين، سهلُ

---

(١) انظر: «جوامع السيرة» لابن حزم (١/ ٢٦٥)، و«المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ١٠٤)، و«تاريخ ابن الوردي» (١/ ١٣٠).

الخدَّين، ضليعُ الفم، أشنبُ، مفلَّجُ الأسنان، دقيقُ المَسْرَبـة من لَبَّتِه إلى سُرَّته شعرٌ يجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعرٌ غيرُه، أشعرُ الذراعين والمنكبين، بادنٌ متماسكٌ، سواءُ البطنِ والصدر، مسيحُ الصدر، ضخمُ الكراديس، أنورُ المتجَرَّد، عظيمُ الصدر، طويلُ الزَّندين، رحبُ الراحة، شَثْنُ الكفَّين والقدمين، شائلُ الأطراف، سَبْطُ العصب، خمصانُ الأخمصين، مسيحُ القدمين، ينبو عنهمـا الماء، إذا زال، زال تقلُّعـاً، ويخطو تكفُّؤاً، ويمشي هوناً، ذريعُ المِشية، إذا مشى، كأنما ينحطُّ من صَبَب، وإذا التفتَ، التفتَ جميعاً، بين كتفيه خاتمُ النبوة كأنـه زِرُّ حَجَلَة، أو بيضةُ حمامة، لونُه كلونِ جسده.

وكان أبو رِمْثَةَ طبيباً في الجاهلية، فقال: يا رسول الله! إني أُداوي، فدَعْني أطبب ما بكتفيك، فقال: «يُدَاويها الَّذي خَلَقَها»[1].

كأنَّ عرقه اللؤلؤ، ريحُ عَرَقه أطيبُ من ريح المسك الأذفر.

يقول ناعتُه: لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه.

وقال أنس بن مالك: ما مَسِسْتُ ديباجـاً ولا حريـراً أَلينَ من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممْتُ قَطُّ رائحةً أطيبَ من ريح رسول الله ﷺ[2].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٤٢٧)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٢٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٢٧٨)، جميعُهم بلفظ: «يداويها الذي وضعها».

(٢) رواه البخاري (١٨٧٣)، ومسلم (٢٣٣٠).

* **فصل في تفسير معاني الكلمات ومشكلها:**

البائن: الطويل في نحافة.

ومعنى **تقتحمه**؛ أي: تزدريه.

وأزهرُ اللون: نيِّرُه.

والدمية: الصورة من الرخام.

والأمهق: هو الناصع البياض.

والآدم: هو الأسمر اللون.

والشعر الرَّجِل: الذي كأنه مُشِّط، فتكسر قليلاً، ليس بسبط، ولا جعد.

وأبلج الوجه؛ أي: مشرقه.

وسيماً قسيماً؛ أي: حسن الوجه.

والدَّعَجُ: شدة سواد العين، يقال: عين دعجاء.

والقَطَفُ: طول شعر الأجفان.

والصَّهَل: صوت الفرس.

والصَّحَل: البحوحة.

والسَّطَع: البريق.

والكثافة: الغلظ.

والحاجبُ الأَزَجُّ: المقوس الطويلُ الوافر الشعر.

والأقنى: السائل الأنف، المرتفع وسطُه.

والضليع: الواسع.

والشنب: رونق الأسنان وماؤها، وقيل: رقتها، والفلج: فرق بين الثنايا.

ودقيق المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر والسرّة.

وبادن: ذو لحم.

ومتماسك: معتدل الخلق، يمسك بعضه بعضاً.

وسواء البطن والصدر: يعني: مستويهما.

ومسيح الصدر؛ أي: بادي الصدر، وقيل: عريض الصدر.

ضخم الكراديس؛ أي: رؤوس العظام.

رَحْب الراحة؛ أي: واسعها، وقيل: كناية عن سعة العطاء والجود.

وشَثْن الكفين والقدمين؛ أي لحيمهما، سائل الأطراف؛ أي: طويل الأصابع.

وخمصان الأخمصين؛ أي: متجافي أخمص القدم، وهو الموضع الذي لا تناله الأرض من وسط القدم.

ومسيح القدمين؛ أي: أملسهما.

والتَقلُّع: رفع الرجل بقوة.

التكَفُّؤ: الميل إلى قصد الشيء.

والهون: الرفق والوقار.

والذريع: الواسع الخطو؛ أي: إن مشيه كان يرفع فيه رجليه بسرعة، ويمدُّ خطوه؛ خلاف مشية المختال.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا رأى النبي ﷺ، يقول:

أَمِينٌ مُصْطَفًى بِالخَيْرِ يَدْعُو
كَضَوْءِ البَدْرِ زَايَلَهُ الظَّلامُ

وكان عُمر بن الخطاب رضي الله عنه ينشد قول زُهير بن أبي سُلمى:

لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ
كُنْتَ المُضِيءَ لِلَيْلَةِ القَدْرِ

ثم يقول عمر لجلسائه: كذلك كان رسول الله ﷺ، ولم يكن كذلك غيره.

وفيه يقول عمه أبو طالب:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ
ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

صلَّى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلَّم.

* * *

ذكر أسمائه عليه الصلاة والسلام

قال رسول الله ﷺ: «أنا محمـدٌ، وأنا أحمـدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يحشرُ اللهُ الخلقَ على قدمي، وأنا العاقِبُ»[1]، ولا نبيَّ بعدي، ونبيُّ التوبة، ونبيُّ الرحمة.

وسماه الله تعالى في كتابـه: بشيراً، ونذيراً، وسراجاً منيراً، وطـه، ويس، ومزمِّلاً، ومدَّثِّراً.

وقد ذكرت لـه أسماء كثيرة، منها: المتوكل، والفاتح، والخاتم، والأمين، والمصطفى، ورسول، والنبي الأمي، وغير ذلك ﷺ.

* * *

ذكر نعْت رسول الله ﷺ في التوراة

قال كعب الأخبار: نجـد نعتَ رسول الله ﷺ في التوراة: محمد بن عبدالله، المختار، مولده بمكة، ومهاجَرُه إلى المدينة، لا فَظٌّ، ولا غليظٌ، ولا صخّاب في الأسواق.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتى رسول الله ﷺ بيت المدراس، فقال: «أَخْرِجُوا إِلَيَّ أَعْلَمَكُمْ»، فقالوا: عبدُالله بنُ صوريا، فخلا به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه، وبما أنعم الله بـه عليهم، وأطعمهم من المن والسلوى، وأَظلّهم بـه من الغمام: «أتعلمُ أني رسولُ الله حَقّاً»، قال: اللهمَّ نعم،

---

(١) رواه البخاري (٣٣٣٩)، ومسلم (٢٣٥٤)، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبيَّنٌ في التوراة، ولكنهم حسدوك. قال: «فما يمنعُكَ أنتَ؟»، قال: أكره خلافَ قومي، وعسى أن يتّبعوك، ويُسلموا فأُسلم[1].

وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، قال: كان الزبير بن باطا ـ وكان أعلم اليهود ـ يقول: وجدت سِفراً، كان أبي يختمه عليّ، فيه ذكر أحمد، نبيٌّ صفته كذا وكذا، فحدّث به الزبير بعد أبيه، والنبيُّ ﷺ لم يُبعَث، فما هو إلا أن سمع بالنبي ﷺ قد خرج بمكة، فعمد إلى ذلك السفر، فمحاه، وكتمَ شأنَ النبي ﷺ، وقال: ليس به شيء[2].

* * *

ذكر معجزاته ﷺ

فمن أفضل معجزاته ﷺ: القرآن الكريم، الذي أعجزَ الفصحاءَ، وأخرسَ البلغاءَ.

* **ومنها**: انشقاق الصدر والتئامه.

* **ومنها**: انشقاق القمر له فرقتين، حين سألته قريش آية، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال ﷺ: «اشهدوا»[3]، وأنزل الله تعالى:

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٤٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٥٩).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٣)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٢].

* **ومنها**: نَبْعُ الماء من بين أصابعه، وتكثيره، وتكثير الطعام ببركته. وغير ذلك مما لا يحصى كثرة.

* **ومنها**: كلام الشجرة، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته ﷺ، وسلام الحجر والشجر عليه.

* **ومنها**: حنين الجذع إليه، وتسبيح الحصا في كفه.

* **ومنها**: حديث الظبية: كان رسول الله ﷺ في صحراء، فنادته ظبية: يا رسول الله! فقال: «ما حاجتك؟»، قالت: صادني الأعرابي، ولي خِشْفان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأُرضَعهما، وأرجعَ، قال: «وتفعلين؟»، قالت: نعم، فأطلقها، فذهبت، ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي، فقال: يا رسول الله! ألك حاجة؟ قال: «تُطْلِقُ هَـٰذِهِ الظَّبية»، فأطلقها، فخرجت تعدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله[1].

* **ومنها**: تسخير الأسد لسفينةَ مولى رسول الله ﷺ: قال سفينة: ركبت البحر، فانكسرت بي سفينة، فخرجت إلى جزيرة، فإذا الأسدُ، فقلت: أنا سفينةُ مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه، حتى

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٥٤٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٥)، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

أقامني على الطريق[1].

* **ومنها**: أن الله تعالى أمر ليلةَ الغار شجرة، فنبتت تجاه النبي ﷺ، فسترتـه، وأمر حمامتين، فوقفتـا بفم الغـار، ونسجت العنكبوت على بابه[2]، وأعلمتـه الشاة بسُمِّها، وردَّ عينَ قتادة، وتفل في عين عليٍّ يوم خيبر، وكان رَمِداً، فأصبح بَرِيّاً.

* **ومنها**: إجابة دعائه ﷺ، وأنه كان إذا دعا لرجل، أدركت الدعوةُ ولـدَه، وولَدَ ولـدِه، ودعا لابن عباس: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعَلِّمْهُ التأْوِيلَ»[3]، فسمي: الحَبر، ترجمان القرآن.

ودعا لعلي أن يُكفَى الحرّ والقرّ[4]، فكـان يلبس في الشتـاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٣٨٣٨)، والبيهقي في «دلائل النبـوة» (٦/ ٤٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٢٦٩).

(٢) رواه بحشل في «تاريخ واسط» (١/ ٢٥٧)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٢٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبـوة» (٢/ ٤٨٢)، عن أنس بن مالك، والمغيرة بن شعبة، وزيد بن أرقم رضي الله عنهم.

(٣) رواه ابن أبي شـيبة في «مصنفـه» (٣٢٢٢٣)، والإمام أحمـد في «المسنـد» (١/ ٣٣٥)، والطبري في «تهذيب الآثار» (١/ ١٦٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه مختصراً: البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧).

(٤) رواه ابن ماجه (١١٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٤٠١)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهذا الباب أكثرُ من أن يُحاط به.

* **ومنها**: إخبارُه بمصارع المشركين، فلم يَعْدُ أحداً منهم مصرعُه، وإخبارُه قريش عن بيت المقدس، ووصفه لهم.

* **ومنها**: أن الملأ من قريش تعاقدوا على قتله، فخرج عليهم، فخفضوا أبصارهم، فأقبل حتى قام على رؤوسهم، فقبض قبضة من تراب، وقال: «شاهَتِ الوُجُوهُ»، وحَصَبَهم بها، فما أصاب رجلاً منهم شيء من ذلك الحصا، إلا قتل يوم بدر(١).

وبالجملة: فمعجزاته ﷺ لا تُحصى، ولا يحاط بها، ولا يُستقصى، ومن ذا يحيط بالبحر الزخار، ولو أجهدَ نفسَه آناءَ الليل وأطرافَ النهار؟! زاده الله شرفاً، وغفر لنا ببركته وعفا.

* * *

ذكر أوصافه وأخلاقه وشمائله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

قالت عائشة رضي الله عنها: كان خُلُقُه القرآن(٢)، يغضب لغضبه،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٠٢)، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٩١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٢).

ويرضى لرضاه ـ يعني: التأدب بآدابه، والتخلق بمحاسنه، والالتزام لأوامره وزواجره ـ، فهو ﷺ لا ينتقم لنفسه، ولا يغضب لها، إلا أن تُنتهك حُرْمَةٌ من حرمات الله، فيكون لله ينتقم.

وكان أحسنَ الناس خُلُقاً، وأرجحَهم حلماً، ولما كُسرت رَباعِيَتُه، وشُجَّ وجهُه يوم أحد، شقَّ ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوتَ عليهم، فقال: «إني لم أُبعث لَعّاناً، ولكني بُعِثْتُ داعِياً ورَحْمَةً، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»[1].

وكان أعظم الناس عفواً، ولقد عفا عن اليهودية التي سمَّته بعد اعترافها على الصحيح.

وكان أسخى الناس كفاً، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه.

وكان أشجع الناس، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئاً، عُرف في وجهه، وإذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل: ما بال فلان يقول: كذا وكذا؟ ولكن يقول: «ما بالُ أقوامٍ يصنَعون أو يقولون كذا؟»، ينهى عنه، ولا يسمي فاعله.

ولم يكن فاحشاً ولا متفحِّشاً، ولا صَخَّاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٩)، عن أبي هريرة ﷺ مختصراً.

وكان أوسعَ الناس صدراً، وأصدَقَهم لهجة، وألينَهم عريكة، وأكرمَهم عِشْرة.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويجيب الدعوة، ويقبل الهدية، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يأكل الصدقة.

وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، يأكل ما حضر، ولا يأكل متكئاً، ولا على خِوان، منديله باطن قدميه، لم يشبع من خبزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى، يجيب الوليمة، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، متواضعاً، خاتمه يلبسه في خنصره الأيمن، وربما لبسه في الأيسر، يُرْدِف خلفه عبدَه، أو غيره، يركب ما أمكنه، ومرة يمشي حافياً، يمزح ولا يقول إلا حقاً.

وقالت عائشة رضي الله عنها: سابقتُه فسبقتُه، فلما كثر لحمي، سابقتُه فسبقني، ثم ضرب كتفي، وقال: «هَذِهِ بِتِلْكَ»(١).

وكان ﷺ يضحك من غير قهقهة، يرى اللعب المباح ولا يُنكره، وهو أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وإذا سئل الدعاء على أحد: مسلمٍ أو كافر، أو خاصٍّ أو عام، عدلَ عن الدعاء عليه، ودعا له، وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرَهما، إلا أن يكون فيه إثم، أو قطيعةُ رحم، فيكون أبعدَ الناس من ذلك، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكُه بالشام.

وكان من خُلُقِه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أن يبدأ من لَقِيَه بالسلام،

---

(١) رواه أبو داود (٢٥٧٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٦٩١).

ومن فاوضَه لحاجة صابَرَهُ حتى يكون هو المنصرفَ.

ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي، إلا خفف صلاته، وأقبل عليه، وقال: «ألكَ حاجةٌ؟»، فإذا فرغ من حاجته، عاد إلى صلاته.

يُكرِم من يدخل عليه، ويُؤثر الداخلَ عليه بالوسادة، حتى التي تكون تحته، فإن أبى أن يقبلها، عَزَم عليه حتى يفعل.

وما استصغاه أحد، إلا ظن أنه أكرمُ الناس عليه، حتى يعطي كلَّ من جلس إليه نصيبه من وجهه.

أرأفُ الناسِ، وخيرُهم، لا تُرفَع في مجلسه الأصوات، إذا قام من مجلسه، قال: «سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنت، أَستغفرُكَ وأتوبُ إليك»(١).

طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، ويعظُ بالجدِّ والنصيحة، ويقول: «لا تَضْرِبوا القرآنَ بعضَه ببعضٍ، فإنه أُنزلَ على وجوه»(٢).

وإذا نزل به الأمر، فوّض وتبرأ من الحول والقوة.

وأَحبُّ الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي، وإذا وضعت المائدة،

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٦٠) عن أبي برزة الأسلمي ﷺ، والترمذي (٣٤٣٣)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٦٣٩): رواه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو بإسناد حسن.

قال: «بسم الله، اللهمَّ اجعلْها نعمةً مشكورةً نَصِلُ بها نعيمَ الجنة»[1].

وإذا جلس يأكل، جَمَع بين ركبتيه وبين قدميه كما يصلي المصلي، إلا أن الركبة تكون فوق الركبة، والقدم فوق القدم، ويقول: «إنما أَنا عبدٌ آكُلُ كما يأكلُ العبد، وأجلسُ كما يجلسُ العبد»[2].

ولا يأكل الحار، ويقول: «إنه غيرُ ذي بركة»[3]، و«إن الله لم يطعمنا ناراً، فأبردوه»[4].

وكان أحبُّ الفواكه إليه الرُّطَب، والبطيخ، والعنب، وأكثرُ طعامه التمر والماء، وأحبُّ الطعام إليه اللحم، ويقول: «هو يزيدُ في السَّمْع، وهو سيدُ الطعامِ في الدنيا والآخرة، ولو سألتُ رَبِّي أَنْ يُطْعِمَنيهِ كُلَّ يومٍ، لَفَعَلَ»[5].

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٦٩).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٥٥٤)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٧١)، عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٩٢٠)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢٠٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحاكم في «المستدرك» (٧١٢٥)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٠١٢)، و«المعجم الصغير» (٩٣٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٧١)، وعزاه إلى أبي الشيخ من رواية ابن سمعان.

وكـان يحـب القـرع، ويقـول: «إنهـا شجرةُ أخي يـونس ـ عليـه السلام ـ»[1].

وكان لا يأكل الثـوم، ولا البصل، ولا الكُرَّاث. وإذا فرغ، قال: «اللهمَّ لك الحمـدُ، أَطْعَمْتَ، وسقيتَ، وآويْتَ، لكَ الحمدُ غيرَ مكفورٍ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُسْتَغْنًى عنُه»[2].

وكان يشرب في ثلاث دفعات، له فيها ثلاث تسميات، وفي آخرها ثلاث تحميدات.

وكان يعجبه الثياب الخضر، وكـان أكثـر ثيابـه البياض، ويقول: «أَلْبِـسوها أحياءكم، وكَفِّنوا فيها موتاكـم»[3].

وكان ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان ينظر في المرآة، وربما نظر في الماء في حجرة عائشة وسوَّى جبهته.

وكان يقول: «لا يُبَلِّغُني أحدٌ منكم عن أحدٍ من أصحابي شيئاً، فإني

---

(١) المرجع السابق.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٣٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٧٢)، عن الحارث بن الحارث رضي الله عنه، وروى البخاري (٥١٤٣) نحوه، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود (٣٨٧٨، ٤٠٦١)، والنسـائي (١٨٩٦، ٥٣٢٣)، والترمذي (٩٩٤، ٢٨١٠) وابن مـاجه (٣٥٦٦)، عن عبـدالله بن عبـاس وسَمُـرة بن جُندُب رضي الله عنهم.

أحبُّ أن أخرجَ إليكُمْ وأنا سَليمُ الصَّدْرِ»[1].

وأما زهده ﷺ في الدنيا، وعبادته وخوفه من ربه: فقد توفي ﷺ ودرعُه مرهونةٌ عند يهودي في نفقة عيالـه، وما ترك ديناراً ولا درهماً، ولا شاة ولا بعيراً، وعُرض عليه أن يجعل لـه بطحاء مكة ذهباً، فقال: «لا يا ربِّ، بل أجوعُ يوماً، وأشبعُ يومـاً، فأما اليـوم الذي أجوعُ فيه، فأتضرَّعُ إليكَ وأدعـوك، وأما اليـومُ الذي أشبـعُ فيـه، فأَحْمَـدُكَ وأُثْني عليك»[2].

وكان ﷺ يستاك بالأراك، وكـان إذا قـام من النـوم، يَشُـوصُ فاه بالسواك، ويستاك في الليل ثلاث مرات: قبل النوم، وبعده، وعند القيام لورده، وعند الخروج لصلاة الصبح.

ونذكر ها هنا شيئاً من آداب السواك فإن الحاجة ماسة لذلك:

فمن فضيلته: قوله ﷺ: «لولا أن أَشُقَّ على أُمَّتي، لأَمرتُهم بالسواكِ عندَ كلِّ صلاة»[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في السواك عشرُ خصال: يُذهِـب الحُفَـر، ويجلو البصر، ويشدُّ اللِّثَـة، وينقِّي البلغم، ويطيِّـب الفم، وتفـرح لـه

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٦٠)، والترمذي (٣٨٩٦)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧)، والإمام أحمد في «المسنـد» (٥/ ٢٥٤)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٨٤٧)، ومسلم (٢٥٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الملائكـة، ويرضي الربَّ ـ تبـارك وتعالى ـ، ويوافقُ السُّنَّة، ويزيد في حسنات الصلاة، ويُصِحُّ الجسمَ.

زاد الحكيم الترمـذيُّ[1]: ويزيد الحافـظَ حفظاً، ويُنبت الشـعر، ويصفِّي اللون.

وعن الشافعي رضي الله عنه: أربعٌ تزيد في العقل: تركُ الكلام من الفضول، والسواك، ومجالسة العلماء والصالحين، والعمل بالعلم.

وعن كعب رضي الله عنه: أنه قال: من أحبَّ أن يُحبه الله، فليكثِرْ من السواكِ والتخلُّل، والصلاةِ بهما.

ويستاك عرضاً؛ فإن الشيطان يستاك طولاً، ويبدأ من الجانب الأيمن.

ويتأكد استحبابُه عند الصلاة، والوضوء، وقراءة القرآن، والانتباه من النوم، وتغير الفم.

وكان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخدعين، وبين الكتفين.

وهـو خـاتم النبيـن، وسيـد المرسلين، وآتـاه الله علمَ الأولـين والآخرين، وفضّلَه على سائر الخلق أجمعين، ولا يُحصي مناقبـه أحدٌ من العالمين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهاتِ المؤمنين، وعلينا معهم يا ربَّ العالمين، صلاةً دائمة إلى يوم الدين.

* * *

---

(١) في الأصل: «الترمذي الحكيم».

ذكر مَثَله ومَثَلِ الأنبياء من قبله ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال أبـو القاسم ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ من قَبْلي، كَمَثَلِ رجـلٍ ابتنى بيوتاً، فأَحْسَنَها وأكملَها وأجملَها، إلا موضعَ لَبِـنَةٍ من زاويةٍ من زواياهـا، فجعل الناسُ يطوفون، ويعُجبهم البنيـانُ، ويقولـون: لـو وُضِـعَتْ هاهنا لَبِـنَةٌ، فيتم بنيانُكَ»، فقـال محمدٌ ﷺ: «وكنتُ أنا اللَّبِـنَةَ» أخرجاه في «الصحيحين»[1].

* * *

ذكر مَثَلِهِ ومَثَلِ ما بُعِثَ به ﷺ

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «إنما مَثَلي ومَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به، كمثلِ رجلٍ أتى قوماً، فقال: يا قومُ! إني رأيـتُ الجيشَ بعيني، وأنا النذيرُ العُريانُ، فالنجاةَ النجاةَ، فأطاعه طائفةٌ من قومه، فَأَدْلَجوا، وانطلقوا على مهلِهم، فَنَجَوْا، وكذَّبه طائفةٌ منهم، فأصبحوا مكانهم، فصَبَّحَهم الجيشُ، فأهلَكَهم واجتاحَهُم، فذلك مَثَلُ مَنْ أطاعني، واتَّبَعَ ما جئتُ بـه، ومثلُ مَنْ عصاني، وكَـذَّبَ ما جئـتُ بـه من الحـقِّ» أخـرجـاه في «الصحيحين»[2].

* * *

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (٢٢٨٦).

(٢) رواه البخاري (٦٨٤٥)، ومسلم (٢٢٨٣).

ذكر عدد غزواته ﷺ

قال الواقدي: جميع غزواتـه بنفسه تسعَ عشرةَ غزوة، وقيل: ستٌّ وعشرون، وقيل: سبـع وعشرون، فمن قال: ستاً وعشرين، جعـل غزاة خيبر ووادي القرى واحدة، ومن فرق بينهما، جعل غزواته سبعاً وعشرين، جعل خيبر غزوة، ووادي القرى غزوة.

وأول غزوة غزاها: ودّان، وهي الأَبواء، ثم بواط بناحية رضوى، ثم العشيرة، ثم بدر الأولى، ثم الكبرى، ثم غزوة بني سليم، ثم غزوة السويق، ثم غزوة غطفان، ثم غزوة بنجران، ثم غزوة أحـد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بني النضير، ثم غزوة ذات الرقاع، ثم غـزوة بدر الأخرى، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة قريظة، ثم غزوة بني لحيان من هذيل، ثم غزوة ذي قَرَد، ثم غـزوة بني المصطلق، ثم عمرة الحديبية، ثم غزوة خيبر، ثم عمرة القضاء، ثم غزوة فتح مكة، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك.

قاتل منها في تسع غزوات: بدر، وأحـد، والخنـدق، وقريظـة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف.

واختلف في عـدد سراياه، فقيل: كانـت خمساً وثلاثين، ما بين سرية وبعث، وقيل: ثمانياً وأربعين، والله أعلم.

* * *

ذكر حجته ﷺ

قال جابر: حجّ النبي ﷺ حجتين: حجة قبل أن يهاجر، وحجة بعد ما هاجر، معها[1] عُمرة.

وقال ابن عمر: اعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عُمَر.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أربع عُمَر.

* * *

ذكر أولاده ﷺ

أول من وُلِدَ لرسول الله ﷺ بمكة قبل النبوة: القاسم ـ وبه كان يكنّى ـ، ثم وُلِدَت زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولِد له في الإسلام: عبدالله، فسمي الطيب الطاهر، وأمهم جميعاً خديجةُ بنتُ خُويلد.

فكان أول من مات من أولاده: القاسم، ثم مات عبدالله بمكة.

وقيل: إن الطيب والطاهر ابنان سواه.

وقيل: كان له الطاهر والمطهر وُلِدا في بطن.

وقيل: إنهم كلهم ماتوا قبل الإسلام.

وأما بناته، فكلهن أدركن الإسلام، وأسلمن، وهاجرن معه.

---

(١) في الأصل: «منها».

ثم ولَدَت له ماريةُ بنتُ شمعون القبطية إبراهيمَ.

* * *

ذكر أعمامه وعماته ﷺ

أبو طالب ـ وهو عبد مناف ـ، والزبير، وعبد الكعبة، وأم حكيم، وعاتكة، وبرّة، وأروى، وأميمـة ـ وأم هؤلاء فاطمةُ بنتُ عمرِو بنِ عائذِ ابنِ عمران بن مخزوم ـ وحمزة، والمقوم، وحجل ـ واسمه المغيرة ـ، وصفية ـ وأم هؤلاء هالـةُ بنتُ وهيب بن عبد مناف بن زهرة بنتُ عم آمنةَ بنتِ وهب أمِّ النبي ﷺ ـ، والعباس، وضرار ـ وأمهما نبيلة بنت خبّـاب ـ، والحارث ـ وهو أكبر ولد عبد المطلب ـ، وشقيقه قُثم ـ وأمهما صفية بنت جندب ـ، وأبو لهب عبدُ العُزَّى ـ وأمـه لبنى بنت مهاجر من خزاعة ـ، والغيداق ـ واسمه مصعب ـ، ولُقِّب الغيداق لجوده.

فأعمامه اثنا عشر، وعماته ست.

ولم يُسلم من أعمامـه إلا حمزة والعباس، وأما العمات، فإسلام صفية معروف، وفي أروى خلاف، وكذلك اختُلِف في إسلام عاتكة.

* * *

ذكر أزواج النبي ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «ما تزوَّجْتُ شيئاً من نسائي، ولا زَوَّجْتُ شيئاً

من بناتي، إلاَّ بوحيٍ جاءني به جبريلُ عن ربي ﷻ»[1].

١ ـ أول من تزوج ﷺ: **خديجة**.

٢ ـ ثم **سَوْدَة بنت زمعةَ بنِ قيسِ بنِ عبد شمس**، وأصدَقَها أربعَ مئة.

٣ ـ ثم **عائشةَ بنت أبي بكر الصديق**، وأمُّها [أم] رومان بنتُ عامرِ بنِ عُويمر، ولم يتزوج بِكْراً غيرها، وفضائلُها جَمَّة، ومناقبها كثيرة.

٤ ـ ثم **حَفْصَة بنت عمر بن الخطاب**، وأمها قدامةُ بنتُ مظعون، وهي شقيقة عبدالله بن عمر، وأسَنَّ منه، تزوجها رسول الله في شعبان على رأس ثلاثين شهراً من الهجرة، وطلّق ـ عليه السلام ـ حفصة تطليقةً، ثم راجعها، وذلك أن جبريل ـ عليه السلام ـ نزل عليه، وقال له: راجعْ حفصةَ؛ فإنها صَوَّامَةٌ قَوَّامة، وإنها زوجَتُك في الجنة[2].

٥ ـ ثم **زينب بنت خزيمةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدالله**، وكانت تدعى: أم المساكين؛ لرأفتها بهم، ومكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت، وقد

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (١/ ٣٠٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٥١)، عن أبي سعيد الخدري ؓ، وقال ابن عدي: وهذا حديث باطل بهذا الإسناد.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٣٦٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٦)، عن قيس بن زيد.

بلغت ثلاثين سنة، ودُفِنَت بالبقيع، ولم يمت من أزواجه في حياته إلا هي وخديجة رضي الله عنهما، وفي ريحانةَ خلاف.

٦ ـ ثم **أم سلمة**، واسمها هند بنتُ أبي أمية بن المغيرة.

٧ ـ ثم **زينب بنت جحش** بنِ رباب بنِ صبرةَ بن مرّة بن كثير، وكان اسمها برّة، فسماها ﷺ: زينب، وأمها أميمة بنة عبد المطلب عمةُ رسول الله ﷺ، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولاه، فطلقها، فلما حلّت، زوّجها الله تعالى إياه من السماء، وأولم عليها، وأطعم المساكين خبزاً ولحماً، وفيها أُنْزِلت آية الحجاب، وكانت كثيرة الصدقة والإيثار رضي الله عنها.

٨ ـ ثم **جُوَيْرِية بنتُ الحارث بن أبي ضرار**، وكان اسمها برة، فسماها جويرية، ولأبيها صحبة.

٩ ـ ثم **ريحانةُ بنت زيد** بن عمرو بن خنافة بن شمعون من بني النضير، أعرسَ بها في المحرم سنة ست.

١٠ ـ ثم **أُمُّ حَبِيبَة رَمْلَةُ بنتُ أبي سفيانِ** صخرِ بن حربِ بن أميةَ بن أبي العاصِ بن أميةَ، أصدقها النجاشي عن رسول الله ﷺ أربع مئة دينار، وجهزها من عنده.

١١ ـ ثم **صَفِيَّة بنتُ حُيَيٍّ** بن أخطبَ بن شعبة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النحام، من سبط هارون بن عمران، وكانت عند سلام بن مشكم، ثم خَلَف عليها كنانةُ بنُ الربيع، فقُتل عنها

يوم خيبر، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فأعتقها، وتزوجها، وجعل عتقَها صداقَها.

١٢ ـ ثم مَيْمونة بنتُ الحارث، وكان اسمها برّة، فسماها: ميمونة، تزوجها في شوال سنة سبع، وهي التي وهبت نفسَها للنبي ﷺ.

ونساؤه المدخول بهن ثنتا عشرة امرأة، ومات ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن تسع منهن.

وخطب ﷺ نساء غير هؤلاء، ولم يتفق تزويجهن، فمنهن: أسماء بنت كعب الجَونية، وخمرة بنت الحارث الغطفاني، خطبها ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبيها، فقال: إن بها سوءاً، ولم يكن بها شيء، فرجع فرآها قد بَرِصت.

ومنهن: سنا بنت الصلت، تزوجها، ثم طلقها.

وفاطمة بنت الضحاك الكلابية، تزوجها، وخَيَّرها حين نزلت آية التخيير، فاختارت الدنيا، ففارقها، فكانت بعد ذلك تلقط البَعَر، وتقول: أنا الشقية، اخترت الدنيا.

وقتيلة بنت قيس بن معد يكرب أختُ الأشعث بن قيس، تزوجها قبل موته بيسير، ولم تكن قدمت عليه، ولا رآها، فأوصى أن تخير، فإن شاءت، ضُرِب عليها الحجاب، وحُرِّمت على المؤمنين، وإن شاءت، طُلقِّت، ونكحت من شاءت، فاختارت النكاح، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل.

وأمّا سراري النبي ﷺ: فكُنَّ أربعاً: **مارية بنت شمعون القبطية**، أهداها له المقوقس صاحب مصر، **وريحانة بنت زيد**[1] **النضيرية**[2]، وأخرى **جميلة** أصابها في السبي، **وجارية** وهبتها له زينب بنت جحش.

* * *

ذكر خدمه ومواليه ﷺ

أنس بن مالك الأنصاري، وربيعة بن كعب الأسلمي.

وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه صاحب نعليه.

وكان عقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته، يقود به في الأسفار.

وأسلع بن شريك صاحب راحلته.

وبلال بن رباح المؤذن.

وسعد مولى أبي بكر الصديق.

وأبو الحمراء هلال بن الحارث.

وذي مخمر ابن أخي النجاشي.

وبكير بن شداخ الليثي.

وأبو ذر الغفاري، وأَرْبَد بن حِمْيَر، والأسود بن مالك الأسدي

---

(١) في الأصل: «يزيد».

(٢) تقدم ذكرها قريباً في الزوجات.

اليماني، وأخوه الحدرجان بن مالك، وثعلبة بن عبد الرحمن الأنصاري، ومهاجر مولى أم سلمة، وأبو نعيم بن ربيعة بن كعب، وزيد بن حارثة، وابنه أسامة، وأيمن ابن أم أيمن، وأسلم بن عبيد، وأبو رافع أسلم، وأبو كبشة ـ واسمه سليم ـ، وأبو عبدالله ثوبان، وشقران ـ واسمه صالح ـ، ورباح أسود، ويسار نوبي، وفضالة، وأبو السمح، وأبو مويهبة، ورافع، وأفلح، ومايور، ومدعم أسود، وكركِرَة، وزيد جدُّ بلال بن يسار بن زيد، وعبيد، وطهمان، وكيسان، وذكوان، ومروان، وواقد، وأبو واقد، وسندر، وهشام، وحنين، وسعيد، وأبو عسيب ـ واسمه أحمر ـ، وأبو لبابة، وأبو القيط، وسفينة ـ واسمه مهران ـ، وضميرة بن أبي ضميرة جدُّ الحنين بن عبدالله بن ضميرة، وأبو هند، وأبو بكرة نفيع، وأخوه نافع، وسلمان الفارسي، وعبيدالله بن أسلم، ونبيه، وهشام، ووردان، وباذام، وحاتم، ورويفع، وأبو ريحانة شمعون، وعبيد بن عبد الغفار، وغيلان، ومحمد بن عبد الرحمن، ومكحول، وأبو البشير، وأبو صفية، وغير هؤلاء.

ومن النساء: أم أيمن الحبشية ـ واسمها بركة ـ، وسلمى أم رافع، ومارية، وريحانة، وحضرة، ورضوى، وميمونة بنت سعد، وميمونة بنت أبي عُصَيب، وأم ضميرة، وأم عباس، وأميمة، وقيسر القبطية أهداها له المقوقس مع مارية، وسيرين وهبها لحسان بن ثابت.

* * *

ذكر كُتّابه ﷺ

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعامر بن فهيرة، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص، وعبدالله بن الأرقم الزهري، وحنظلة بن الربيع الأسيدي، وأُبَي بن كعب، وهو أول من كتب له من الأنصار، وثابت بن قيس بن شمَّاس، وزيد بن ثابت، وشُرَحْبيل بن حَسَنَة، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وعبدالله بن زيد، وجهيم بن الصلت، والزبير ابن العوام، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمي، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة، وعبدالله بن عبدالله بن أُبَي، ومُعَيقيب بن أبي فاطمة، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، وهو أول من كتب له من قريش، ثم ارتد، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[الأنعام: ٩٣]، ويزيد بن أبي سفيان، والأرقم بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عتبة، وأبو أيوب الأنصاري، وبريدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سلمة المخزومي، وحويطب بن عبد العزى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو.

وذكر ابنُ دحية فيهم رجلاً من الأنصار غير مسمى، قال: كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، ثم تنصَّر، فلما مات، لم تقبله الأرض.

* * *

ذكر حرّاسه ومن كان يضرب الأعناق بين يديه ﷺ

حرسه يوم بدر حين نام في العريش: سعدُ بن معاذ، ويوم أُحد:

محمدُ بنُ مسلمة، ويوم الخندق: الزبير بن العوام، وحرسه ليلة بنائه بصفية: أبو أيوب الأنصاري، وبوادي القرى: بلال، وسعد بن أبي وقاص، وذكوان بن قيس، وعباد بن بشر ممن كان على حرسه، فلما نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، ترك الحرس.

والذين كانوا يضربون الأعناق: علي، والزبير، والمقداد، ومحمد ابن مسلمة، وعاصم بن ثابت، وسعد القرط بن عابد مولى عمار بن ياسر، وأبو محذورة.

* * *

ذكر العشرة من الأصحاب، والحواريين وأهل الصفَّة

أما العشرة: فأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم.

وأما الحواريون: والحواري: الخليل، وقيل: الناصر، وقيل: الصاحب المستخلص، فكلهم من قريش، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم.

أما أصحاب الصُّفَّة: فقوم فقراء لا منزل لهم غير المسجد، وكانت صُفَّةُ المسجد مثواهم، فنسبوا إليها، وكان إذا تعشى رسول الله ﷺ، يدعو منهم بطائفة يتعشون معه، ويفرق طائفة على أصحابه ليعشوهم.

قال جابر: رأيت ثلاثين رجلاً من أهل الصُّفّة، يصلون خلف النبي ﷺ، ليس عليهم أردية، وكان من مشاهيرهم: أبو هريرة، وأبو ذر، وواثلة بن الأسقع، وقيس بن طلحة الغفاري رضي الله عنهم.

* **وقد اختلف الناس** فيمن يستحق أن يطلق عليه أنه صحابي، فكان سعيد بن المسيب لا يَعُدُّ الصحابيَّ إلا من أقام مع رسول الله ﷺ سنةً وأكثر، وغزا معه.

قال بعضهم: كل من أدرك الحِلْم، وأسلم، ورأى النبي ﷺ، فهو صحابي، ولو أنه صحبَ رسولَ الله ﷺ ساعة واحدة.

وقال بعضهم: لا يكون صحابياً إلا من تخصص به الرسول ﷺ، وتخصص هو بالرسول ﷺ؛ بأن يثق رسول الله ﷺ بسريرته، ويلازم هو رسول الله ﷺ في السفر والحضر.

والأكثر على أن الصحابي هو: كل من أسلم، ورأى النبي ﷺ، وصحبه، ولو أقل زمان.

وأما عددهم على هذا القول الأخير، فقد روي: أن النبي ﷺ سار في عام فتح مكة في عشرة آلاف مسلم، وسار إلى حنين في اثني عشر ألفاً، وسار إلى حجة الوداع في أربعين ألفاً، وأنهم كانوا عند وفاته ﷺ مئة ألف، وأربعة وعشرين ألفاً.

وأما ترتيبهم: فالمهاجرون أفضل من الأنصار على الإجمال، وأما على التفصيل، فسُبّاقُ الأنصار أفضلُ من متأخري المهاجرين.

وقد رتب أهل التواريخ الصحابة على طبقات:

الأولى منهم: أول الناس إسلاماً؛ كخديجة، وعلي، وزيد، وأبي بكر الصديق رضي الله عنهم ومن تلاهم، ولم يتأخر إلى دار الندوة.

الثانية: أصحاب دار الندوة، وفيها أسلم عمر رضي الله عنه.

الثالثة: المهاجرون إلى الحبشة.

الرابعة: أصحاب العقبة الأولى، وهم سُبّاق الأنصار.

الخامسة: أصحاب العقبة الثانية.

السادسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين.

السابعة: المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بعد هجرته وهو بقُباء قبل بناء مسجده.

الثامنة: أهل بدر الكبرى.

التاسعة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

العاشرة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة.

الحادية عشرة: الذين هاجروا بعد الحديبية، وقبل الفتح الثانية.

الثانية عشرة: الذي أسلموا يوم الفتح.

الثالثة عشرة: صبيان أدركوا النبي ﷺ، ورأوه.

الرابعة عشرة: أهل الصفّة المتقدِّم ذكرُهم.

* * *

ذكر سلاحه وأثاثه

كان لـه سيف يقال لـه: مأثور، ورثـه من أبيـه، والعَضْب، وذو الفقار، والصَّمصامة، والقلعي، والبتار، والحتف، والرسوب، والمخذم، والقضيب، فتلك عشرة أسياف.

وكان له درع يقـال له: ذات الفضـول؛ لطولـه، وذات الوشاح، وذات الحواشي، ودرعان: السعدية، وفضة، ويقال: إن السعدية كانت درع داود ـ عليه السلام ـ التي لبسها لقتال جالوت، والبتراء، والخرنق، فتلك سبع.

وله من القِسِيِّ: الروحاء، والصفراء، والزوراء، والكتوم.

وكانت له جعبة، وهي الكنانة، يجمع فيها نبله، ومنطِقة من أديم مبشور، حلقها، وإبزيمها، وطرفها فضة، وثلاثـة أتراس، كان فيها ترس عليه صورة عقاب، فوضع يده عليه، فأذهب الله ذلك التمثال.

وكان له خمسة أرماح: ثلاثة من بني قَيْنُقاع، والمثوي، والمنثني.

وكان لـه حربـة تسمى: النبعـة، وحربـة كبيرة اسمها: البيضاء، وحربة صغيرة دون الرمح شبه العكاز يقال لها: العنزة.

وكان له مِغْفَران، وراية سوداء مربّعة، يقال لها: العقاب، وراية بيضاء، يقال لها: الرينـة، مكتـوب على راياتـه: لا إله إلا الله محمـد رسول الله. وكان فُسْطاطُه يسمى: الكن.

وكان له قضيب يسمى: الممشوق، وقدح يسمى: الريان، وآخر

مُضَبَّب فيـه ثـلاث ضباب من فضـة وحلقـة، كان للسفـر، وثالـث من زجاج.

وكان لـه تور من حجـارة يقال لـه: المِخْضَب، يتوضأ فيه، وركوة تسمى: الصادرة، ورَبعة إسكندرانية من هدية المقوقس، يجعل فيها مشطاً من عاج، ومكحلة، ومِقْراضاً، وسواكاً، ومرآة.

وكان لـه أربعة أزواج خفاف، أصابها من خيبر، ونعلان سبتيان، وخُفٌّ ساذج أسود من هدية النجاشي، وقصعة، وسرير، وقطيفة.

وكان له خاتم من فضة، وخاتم من ذهب لبسه ثم طرحه، وخاتم من حديد ملوي بفضة، نقشه: محمد رسول الله.

وكان يتبخر بالعود، ويطرح معه الكافور.

وترك يوم مات ثوبي حبـرة، وإزاراً عُمانيـاً، وثوبين صحاريين، وآخر سحولياً، وجُبَّة يمنية، وكساءً أبيض، وقلانس صغاراً لاطية ثلاثاً أو أربعاً، وإزاراً طوله خمسة أشبار، وخميصة، وملحفة مُوَرَّسة.

وكان له رداء مربَّع، وفِراش من أَدَمٍ حشوُه ليـفٌ، وكساء أحمر، وكسـاء من شعر، وكساء أسود، ومنديل يمسح بـه وجهـه، وقدح من عيدان، يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل، وسرير ينام عليه، قوائمه من ساج، فكان الناس بعده يحملون عليه موتاهم؛ تبركاً به.

* * *

أول فرس ملكه سماه: السكب، وملاوح، والمرتجز، ولِزاز هدية المقوقس، والضَّرِب هدية ابن أبي البراء، واللحيف هدية فروة بن عامر الجذامي، وسُبحة؛ من قولهم: فرس سابح: إذا كان حسنَ مَـدِّ اليدين في الجري، وأفراس غيرها، وهي: الأبلق، وذو العقال، وذو اللمَّـة، والمرتجل، والسرحان، واليعسوب، واليعبـوب، والبحر، والأدهم، والمرواح، والطرف، والنجيب، وغير هؤلاء.

وأما البغال والحمير: فكان لـه بغلة شهباء يقال لها: دُلْدُل هدية المقوقس، مع حمار يقال لـه: يعفور، وبغلة يقال لها: فضة هدية فروة، مع حمار يقال له: عفير فوهـب البغلـة لأبي بكر ﷺ، وبغلة هدية ابن العَلْماء صاحـب أيلة، وبغلـة هدية صاحـب دُومـة الجنـدل، مع جبـة من سندس.

وأما النعم: فكانت له ناقة تدعى: القصواء، وهي التي هاجر عليها، والجدعاء، والعضباء.

وأما لقاحه: فكانت له عشرون لقحـة بالغابة، يأتي لبنها أهله كل ليلة، وكـان لـه لقاح غـرر، منهن: الحسنـاء، والسمـراء، والعريس، والسعدية، والبغوم، والبشيرية، ومهرة، والشقراء.

وأما منائحه: فكان لـه سبع من الغنم: عجـوة، وزمزم، وسقيا، وبركة، وورسة، والحلال، وإطراف.

وسبعة أَعْنُز يرعاهن ابنُ أم أيمن[1]. والله أعلم.

* * *

فصل فيمن استغاث به ﷺ فأغيث في القديم والحديث

أول من استغاث به: آدم ـ عليه السلام ـ، قال رسول الله ﷺ: «لما اقترفَ آدمُ الخطيئةَ، قال: يا ربِّ! أسألُكَ بحقِّ محمدٍ إلاَّ ما غفرتَ لي. قال الله تعالى: يا آدمُ! وكيف عرفتَ محمداً، ولم أخلقْه؟ قال: لأنك يا ربِّ لما خلقتني بيدك، ونفخْتَ فيَّ من رُوحك، رفعتُ رأسي، فرأيت على قوائمِ العرشِ مكتوباً: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمتُ أنك لم تُضِف إلى اسمك إلاَّ أحبَّ الخلق إليك، قال: يا آدم! وإذ قد سألتني بحقه، فقد غفرتُ لك، ولولا محمدٌ، ما خلقتُك»[2].

وعن زيد بن أرقم، قال: كنت مع النبيِّ ﷺ في بعض سِكَك المدينة، فمررنا بخباء أعرابي، فإذا ظبيةٌ مشدودةٌ في الخِباء، فقالت: يا رسول الله! إن هذا الأعرابيَّ صادني، ولي خِشْفان في البرية، وقد تَعَقَّد اللبنُ في أخلافي، فلا هو يذبحني فأستريح، ولا يدعُني فأرجع إلى خِشْفَيّ في البرية، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن تركتُك ترجعين؟»،

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٢٠).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٠٢)، وفي «المعجم الصغير» (٩٩٢)، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٦٧٢)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قالت: نعم، وإلاَّ عذبني الله عذاب العشار، فأطلقها رسول الله ﷺ، فلم تلبث أن جاءت تَلَمَّظ، فشدَّها رسول الله ﷺ إلى الخباء، وأقبل الأعرابي ومعه قربة، فقال له رسول الله ﷺ: «أتَبِيعُنِيْها؟»، قال: هي لك يا رسول الله، فأطلقَها رسولُ الله ﷺ.

قال زيد بن أرقم: فأنا ـ والله ـ رأيتها تسيح في البرية، وتقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله[1].

* ذكر قصة الجمل المستجير بالنبي ﷺ:

عن تميم بن أوس الدارِيِّ، قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ، إذ أقبل بعير يعدو حتى وقف على هامة رسول الله ﷺ فزعاً، فقال له رسول الله ﷺ: «أيُّها البعيرُ! اسْكُنْ، فإن تَكُ صادقاً، فلكَ صدقُك، وإن تَكُ كاذباً، فعليكَ كذبُك، مع أن الله تعالى قد آمَنَ عائذَنا، وليس بخائبٍ لائذُنا».

فقلنا: يا رسول الله! ما يقول هذا البعير؟ فقال: «هذا بعير همَّ أهلُه بنحره، وأكلِ لحمه، فهرب منهم، فاستغاث بنبيكم».

فبينما نحن كذلك، إذ أقبل أصحابه، فلما رآهم البعير، عاد إلى هامة رسول الله ﷺ، فلاذ بها، فقالوا: يا رسول الله! هذا بعيرنا هرب منا منذ ثلاثة أيام، فلم نَلْقَه إلا بين يديك، فقال رسول الله ﷺ: «أَما إنه يشكو، فبِئْسَتِ الشِّكايةُ».

---

(١) تقدم تخريجه. وفي بعضه نكارة، كما قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ١٤٩).

فقالوا: يا رسول الله! ما يقول؟ قال: «إنه يقول: إنه رُبِّيَ في أَمْنِكم أَحوالاً، وكنتم تحملون عليه في الصيف في موضع الكلأ، فإذا كان في الشتاء، رحلتم عليه إلى موضع الدفء، فلما كبر، استفحلتموه، فرزقكم الله إبلاً سليمة، فلما أدركَتْه هذه السنةُ الخصيبة، هممتم بنحره، وأكلِ لحمه».

فقالوا: والله قد كان ذلك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما هذا جزاء المملوك الصالح من مواليه».

قالوا: يا رسول الله! إنا لا نبيعه، ولا ننحره.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبتُم، قد استغاثَ بكم، فلم تُغيثوه، وأنا أَوْلى بالرحمة منكم؛ لأن الله قد نزعَ الرحمةَ من قلوبِ المنافقين، وأسكَنَها في قلوب المؤمنين»، فاشتراه رسول الله ﷺ بمئة درهم، وقال: «أيها البعير! انطلق، فأنت حُرٌّ لوجه الله تعالى».

فرغا على هامة رسولِ الله، فقال له رسول الله ﷺ: «آمين»، ثم رغا الثانية، فقال رسول الله ﷺ: «آمين»، ثم رغا الثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «آمين»، ثم رغا الرابعة، فبكى رسول الله ﷺ.

فقلنا: يا رسول الله! ما يقول هذا البعير؟ فقال: «قال: جزاكَ الله أيها النبي عن الإسلام والقرآن خيراً، قلت: آمين، قال: حقن الله دمَ أمتك من أعدائها كما حقنتَ دمي، قلت: آمين، قال: سكّن الله رعبَ أمتك يومَ القيامة كما سَكَّنت رعبي، قلت: آمين، قال: لا جعلَ الله بأسَها بينها،

فبكيت، وقلت: هـذه خصالٌ سألتُ ربي، فأعطانيهـا، ومنعني هـذه، وأخبـرني جبـريل عن الله: ألا إن فنـاء أمتك بالسيف، جرى القلم بما هو كائن»[1].

* **ذكر قصة رجل فقير من القراء استغاث بالنبي ﷺ عند قبره:**

كان بعض المتصدِّرين في القراءة بالجامع العتيق بمصر، قد حلف بالطلاق الثلاث أنه لا يجيز أحداً يقـرأ عليـه القرآن مستحقاً الإجازة إلا بعشرة دنانير، فاتفق أن قرأ عليه رجل فقير، فلما أكمل، سأله الإجازة فلم يجزه بيمينه، فتألم خاطره، فاجتمع بأصحابه، فجمعوا له خمسة دنانير، فأتى بها الشيخَ، فلم يأخذها، فخرج من عنده، فرأى المحمل يُدار به، فقال: والله! لا أنفقت هذه إلا في الحج، فاشترى ما يحتاجه، وسار حتى وصل إلى مكة، فلما قضى مناسكه، رحل إلى المدينـة الشريفـة، فلما وصل إلى قبر رسول الله ﷺ، قـال: السلام عليكَ يا رسول الله، ثم قرأ عشراً جمع فيـه الأئمـة السبعة، وقال: هذه قراءتي على فلان عن فلان عنك عن جبـريل ـ عليـه السلام ـ عن الله تعـالى، وقـد سألـت شيخي الإجازة، فأبى، وقد استغثت بك يا رسول الله في تحصيلها.

---

(١) عزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ١٤٤) إلى ابن ماجـه، ولـم أجده فيه. وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ١٤٢) عن أبي محمد عبدالله ابن حامد الفقيـه في «دلائل النبوة» بإسناده. ثم قال ابن كثيـر: هذا حديث غريب جـداً، لـم أر أحـداً من هؤلاء المصنفين في الدلائل أورده سوى هذا المصنف، وفيه غرابة ونكارة في إسناده ومتنه أيضاً، والله أعلم.

ثم نام، فرأى النبيَّ ﷺ، فقال لـه: سلِّمْ على شيخك، وقل لـه: رسولُ الله يقول لكَ: أجِزني بلا شيء، فإن لم يصدِّقْك، فقل له: بأمارة زُمراً زُمراً.

فلما وصل الفقير إلى مصر، اجتمع بشيخـه، وبلّغه الرسالـة بغير أمـارة، فلم يصدِّقـه، فقال لـه: بأمارة زُمراً زُمراً، فصاح الشيخ، وخرّ مغشياً عليه.

فلما أفاق، سأله أصحابه عن ذلك، قال: كنت كثيراً ما أتلو القرآن، فمررت يوماً على قولـه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨]، فحلفت أن لا أقـرأ القرآن إلا متدبِّـراً فهماً، فأقمتُ لا أتجاوز من القرآن إلا اليسير مدَّة طويلة، حتى نسيتُه، فكفّـرت عن يميني، وشرعت في حفظـه، فبينمـا أنـا أتلو ذات يوم، إذ مررتُ على قـولـه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾[فاطر: ٣٢] الآية. فقلت: ليت شعري، من أي الأقسام أنـا؟ ثم قلـت: لست من الثاني، ولا من الثالـث بيقيـن، فيعني أن أكـون من القسم الأول، فنمـت تلك الليلة حزيناً، فرأيـت النبيَّ ﷺ، فقال لي: بشّـر قُرّاءَ القرآن أنهم يدخلون زُمَراً زُمَراً.

ثم أقبـلَ على ذلك الفقير يقبِّـل وجهَه، وقال: أُشهِدكم عليَّ: أنني قد أجزتُه، ليقرأ ويُقرِئ من شاء أين شاء.

وكل ذلك ببركة الاستغاثة برسول الله ﷺ[1].

وقال إبراهيمُ بنُ طريف: سمعت أبي يقول: ظهرتْ لي لُمعةُ برص في كتفي، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله! ألا ترى ما حلَّ بي؟ فمسح بيده على كتفي، فانتبهتُ وقد ذهب البرصُ عني.

* * *

ذكر أخبار الأسود العَنْسي، ومُسَيلمة الكذَّاب، وسَجاحِ، وطلحةَ

* **أما الأسود**، فاسمه عَبْهَلَة بنُ كعب، ويقال له: ذو الخِمار، وكان يُشَعْبِذ لقومه، ويُري الجهّال الأعاجيب، ويَسبي بمنطقه قلبَ من يسمعه، وقيل له: ذو الخِمار؛ لأنه كان يقول: يأتيني ذو خمار، وهو ممن ارتدَّ وتنبأ من الكذابين، وكاتَبَه أهلُ نجران، وكان هناك من المسلمين عمرُو ابنُ حَزْم، وخالد بنُ سعيد بن العاص، فأخرجهما أهلُ نجران، وسلَّموهما إلى الأسود، ثم سار الأسود من نجران إلى صنعاء، فملَكَها، وصفا له

---

(١) الاستغاثة بالميت أو الغائب وسؤاله ـ نبياً كان أو غيره ـ لم يرد عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وما يروى في هذا الباب من الأحاديث والآثار لا ترقى إلى درجات الصحة المقبولة التي يسوغ الاحتجاج بها؛ كهذه الآثار التي ذكرها المؤلف، وقد كره العلماء كمالك رحمه الله وغيره أن يقوم الرجل عند قبر النبي ﷺ يدعو لنفسه، وكذا كرهوا أن تقصد قبور الأنبياء وغيرهم للدعاء والصلاة عندها، والله أعلم.

ملكُ اليمن، واستفحلَ أمرهُ، وجعـل يستطير استطارةَ الحريق، وكـان خليفته في مذحِج عمرُو بنُ مَعْد يكرب.

فلما بلغ رسولَ الله ﷺ ذلـك، أرسل إلى نفـر من أهل اليمن: أن يحاولوا الأسود، إما غِيلةً، أو مصادمـة، وأمرهـم أن يستنجـدوا رجالاً سماهم لهم، وأرسل إلى أولئك النفر أن يُنجـدوهم، فاجتمعـوا بامرأة الأسود، وكان الأسود قد قتل أباها، فقالت: والله! إنه أبغضُ الناس إليَّ، ولكن الحرس محيطون بقصره، فانقِبوا عليـه البيت، فنَقَبوا، ودخلـوا إليه، وخالطوه فقتلوه، واحتزُّوا رأسه، فخار كخُوار الثـور، فابتـدرت الحرس الباب، فقالوا: ما هذا؟ فقالت زوجتـه: النبي يوحى إليه، وكان الشيطان قبل ذلك يأتي إليه، فيوسوس لـه، فيغطُّ، ويعمل بما قال، فلما طلع الفجر، أمروا بالمـؤذن، فقال: أشهد أن محمـداً رسول الله، وأن عبهلَة كذاب.

وأرسل أصحابُ رسول الله ﷺ إليه بخبر الأسود، فسبق خبرُ السماء إليه، فأخبـر الناسَ بذلك، وذلـك قبل وفاتـه ـ عليـه الصلاة والسلام ـ بقليل، ووصل الكتاب بقتل الأسود في خلافة أبي بكر ﵁، فكان كما أخبر به رسول الله ﷺ، وكان قتله قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، وكان من أول خروج الأسود إلى قتله أربعة أشهر.

* **ذكر أخبار مسيلمة**: وقد ذكرنا أنـه قَدِمَ على رسول الله ﷺ في وفد بني حنيفة، فلما عاد الوفـد، ارتدَّ، وكان فيـه دهاء، فكذب لهم، وادعى النبوَّة، وتسمَّى: رحمـان اليمامـة، وخاف أن لا يتم لـه مرادُه،

فقال: إن محمداً قد أشرَكَني معه، وجعل يسجَعُ لقومه، ويضاهي القرآن، فمن قوله: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صِفاقٍ وحَشَا.

ومن قوله: سبح اسم ربك الأعلى، الذي يسر على الحبلى، فأخرج منها نسمة تسعى، من بين أضلاع وحَشَا، يا ضفدعَةُ بنتَ الضفدعين، نِقِّي فجاد ما تنقين، وسجي، فحسن ما تسجين، إلا الماء تكدرين، وإلا الشاربَ تمنعين، والليلِ الأسحم، والدبِّ الأدلم، والجدع الأزلم، ما انتهكت أسيدٌ من مَحْرَم.

ومنه: والليلِ الدامس، والذيب الهامس، ما قطعت أُسيد من رَطْب ولا يابس.

وكان يقصد بذلك نصرة أسيد على خصومهم.

ومنه: والشاة وألوانها، وأعجبها السودان وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، وإنه لعجب محض، وقد حرم المذق، ما لكم لا تمجعون.

وكان يقول: والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، لحما وسمناً، لقد فُضِّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر.

وكان صاحب نيروجات، ويقال: إنه أولُ من أدخلَ البيضةَ في القارورة، وأول من وصل جناحَ الطير المقصوص.

وجاءتـه امرأة، فقالت: ادعُ الله لنخلِنا ولمائنا؛ فإن محمـداً دعـا للقوم، فجاشت آبارهم، قال: كيف صنع؟ قالت: دعـا بإناء فيـه ماء، فتمضمض، ومجـه فيه، فأفرغـوه في تلك الآبار، فعمت، ففعـل هـو كذلك، فغارت تلك المياه.

وقال له رجل: بارك على ولدي؛ فإن محمـداً يبـارك على أولاد أصحابه، فلم يؤتَ بصبيٍّ مسح على رأسه، وحنّكه، إلا قرع ولثغ.

وتوضأ في حائط، وصب ماء وضوئه فيه، فلم ينبت.

وكانوا إذا سمعوا سجعه، قالوا: نشهد أنك نبي.

ثم وضع عنهم الصلاة، وأحلَّ لهم الخمر والزنـا، ونحـو ذلك، فتبعه بنو حنيفة إلا القليل.

وكتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمةَ رسولِ الله إلى محمد رسولِ الله، أما بعـد: فإن لنا نصفَ الأرض، ولقريشٍ نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

وبعث الكتاب مع رجلين: عبدالله بن النوَّاحة، وحِجْر بن عُمير، فقال لهما رسول الله ﷺ: «أتشهدا أني رسولُ الله؟»، قالا: نعم، قال: «أَتَشْهَدا أنَّ مسيلمةَ رسولُ الله؟»، قالا: نعم، إنـه قد أُشْرِكَ معك، قال: «لولا أنَّ الرسولَ لا يُقتل، لَضربْتُ أعناقَكُما»[1].

ثم كتب إليـه رسول الله ﷺ: «من محمـدٍ رسولِ الله إلى مسيلمـةَ

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٦١)، عن نعيم بن مسعود الأشجعي.

الكذَّاب، أَمَّا بعدُ: فإِنَّ الأرضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ من عبادِه، والعاقبةُ للمتَّقين»[1]، وقد أهلكتَ اليمامةَ ـ أبادَكَ اللهُ ومن ضربَ معكَ ـ.

وقُتِلَ مسيلمةُ الكذابُ في أيام أبي بكر ﷺ، وكان أبو بكر قد أرسل لقتاله جيشاً، وقدّم عليهم خالدَ بنَ الوليد، فقتله وَحْشِيٌّ بالحربة التي قتلَ بها حمزةَ عمَّ النبي ﷺ، وشاركَه في قتله رجلٌ من الأنصار.

وكان مقام مسيلمةَ باليمامة.

وقُتِلَ من المسلمين جماعة من القراء من المهاجرين والأنصار.

ولما رأى أبو بكر ﷺ كثرةَ من قُتِلَ، أمرَ بجمع القرآن من أفواه الرجال، وجريد النخل، والجلود، وترك ذلك المكتوبَ عندَ حفصةَ بنتِ عمر زوجِ النبي ﷺ.

ولما تولى عثمان ﷺ، ورأى اختلافَ الناس في القرآن، كتب من ذلك المكتوب الذي كان عند حفصة نسخاً، وأرسلها إلى الأمصار، وأبطل ما سواها ـ والله أعلم ـ.

* **ذِكْرُ سَجاحِ بنتِ الحارثِ بن سويدٍ التميميةِ**: كانت قد تنبأت في الرِّدَّة بعد موت رسول الله ﷺ بالجزيرة في بني تغلب، فاستجاب لها هذيل، وجماعة، واتبعها بنو تميم، وأخوالها من تغلب، وغيرهم من بني ربيعة، فقصدت قتال أبي بكر ﷺ، فراسلت مالك بن نُوَيرة،

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٣١).

ودعته إلى الموادعة، فأجابها، ومنعها من قصد أبي بكر، وحملَها على أحياء من بني تميم، فأجابت، وقالت: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب، فذهبوا، فكانت بينهم مقتلة، ثم ذهبت إلى اليمامة، فهابها مسيلمة، وخاف أن يتشاغل بحربها، فيغلبه ثُمامةُ بنُ أثال عاملُ رسول الله ﷺ، فأهدى لها هدية، واستأمنها، وقال لأصحابه: اضربوا لها قبة، وخمروها بالطيب، لعلها تذكر الباه، ففعلوا، فلما أتته، قالت له: اعرضْ لي ما عندك، فقال: إني أريد أن أخلو معك حتى نتدارسَ، فلما خلت معه، قالت له: اقرأْ عليَّ ما يأتيك به جبريل، فقال: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحَشَا، فقالت: وما أنزل عليك أيضاً؟

قال: ألم تر أن الله خلق النساء أفراجاً، وجعل الرجال لهن أزواجاً، فنولج لهن إيلاجاً، ثم نخرج ما شئنا إخراجا، فينتجن لنا إنتاجاً.

قالت: صدقت، إنك نبي، فقال لها: هل لك أن أتزوجك، فيقال: نبي تزوج نبية، فقالت: نعم، فقال لها:

أَلاَ قُومِي إِلَى النَّيْكِ	فَقَدْ هُيِّي لَكِ المَضْجَعْ
فَإِنْ شِئْتِ فَفِي البَيْتِ	وَإِنْ شِئْتِ فَفِي المَخْدَعْ
فَإِنْ شِئْتِ فَمُلْقَاةً	وَإِنْ شِئْتِ عَلَى أَرْبَعْ
وَإِنْ شِئْتِ بِثُلْثَيْهِ	وَإِنْ شِئْتِ بِهِ أَجْمَعْ

فقالت: بل به أجمع، يا رسول الله؛ فإنه للشمل أجمع.

فقال: بذلك أوحي إلي.

فأقامت معه ثلاثاً، ثم خرجت إلى قومها، فقالت: إني قد سألته، فوجدت نبوته حقاً، وإني تزوجته، فقالوا: مثلك لا يتزوج بغير مهر، فقال مسيلمة: مهرها أني قد رفعتُ عنكم صلاة الفجر والعتمة.

ولم تزل سجاح في أخوالها من تغلب، حتى نفاهم معاوية عاماً بريع فيه، فأسلمت سجاحِ، وحَسُن إسلامها، وانتقلت إلى البصرة، وماتت بها ـ والله أعلم ـ.

* **ذكر طليحة بن خويلد:** فإنه ادعى النبوة، وتبعه جماعة، وقوي أمره.

ومن كلامه: والحمام واليمام، والصرد الصوَّام، قد صمن قبلكم [بـ]أعوام، وليبلغن ملكنا العراق والشام.

وقاتله خالد بن الوليد في الردَّة، ثم أسلم، وخرج نحو مكة معتمراً في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فمر بجنبات المدينة، فقيل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به؟ خلُّوا عنه؛ فقد أسلم، وصحَّ إسلامه، وقاتلَ في الفتوحات، فقُتل يوم نهاوند.

ووقعت نهاوند مع الأعجام في سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه.

* * *

مجلس في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ، وما جاء في ذلك من الثواب والتقريب ورفع الدرجات

روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «إذا سمعتُم المؤذِّنَ، فقولوا مِثْلَ ما يقولُ، ثم صَلُّوا عَلَيَّ؛ فإنَّه مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً، صَلَّى اللهُ عليهِ بِها عَشْراً، ثم سَلُوا ليَ الوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّها منزلَةٌ لا تَنْبغي إلاَّ لعبدٍ واحِدٍ، وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنا هُوَ، فَمَنْ سأَلَ ليَ الوَسيلَةَ، حَلَّتْ لهُ الشَّفاعَةُ»[1].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الدعاء موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يصعَدُ منه شيء حتى تصلِّي على نبيِّكَ ﷺ[2].

فإذا فعلتَ، انخرقَ الحجاب، ودخل الدعاء، وإن لم تفعل ذلك، رجع ذلك الدعاء[3].

وروي عنه عليه الصلاة والسلام: أنه قال: «من صلَّى عَلَيَّ صلاةً، صلَّى اللهُ عليه عشرَ صلواتٍ، وحَطَّ عنهُ عَشْرَ خَطِيئاتٍ، ورفعَ له عَشْرَ دَرَجاتٍ»[4].

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٢) رواه الترمذي (٤٨٦).

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفردوس»، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٣٧٩٩)، عن أبي بردة رضي الله عنه.

ورواه: ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨٧٠٣)، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٠٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٨٩١)، وابن حبان في =

وفي رواية: «وكَتَبَ له عَشْرَ حَسَناتٍ»[1].

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من قالَ: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ، وأنزِلْه المَنْزِلَ المُقَرَّبَ عندَكَ يومَ القيامةِ، وَجَبَتْ له شَفاعَتي»[2].

وعنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ في كتابٍ، لم تَزَلِ الملائكةُ تَستغفِرُ له ما دامَ اسمي في ذلكَ الكتابِ»[3].

وعنه ﷺ: «إنَّ أَنْجاكُمْ يومَ القِيامَةِ مِنْ أَهْوَالِها ومَوَاطِنِها، أكثرُكُمْ عَلَيَّ صَلاةً»[4].

صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلَّم وشرَّف وكرَّم.

* * *

فصل في كيفية الصلاة على النبي ﷺ

روي عنه ﷺ: أنه سُئِل: كيف نُصلِّي عليك؟

= «صحيحه» (٩٠٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، دون قوله: «ورفع له عشر درجات».

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧٩٠)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٠٨)، والبزار في «مسنده» (٢٣١٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٤٨٠)، وفي «المعجم الأوسط» (٣٢٨٥)، عن رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، جميعهم بلفظ: «المقعد المقرب».

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٨٣٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥/ ٢٧٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال: «قولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما صلَّيت على [آل] إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، اللهمَّ بارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ، كما بارَكْتْ على [آل] إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجيدٌ»[١].

وروي عنه عليه الصلاة والسلام: أنه قال: «قولوا: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وأَزواجِه وذُرِّيَّتِهِ كما صَلَّيْتَ على [آل] إبراهيمَ، وبارِكْ على محمدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِهِ كما بارَكْتَ على [آل] إبراهيمَ في العالَمين إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[٢].

وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: حدثني رسول الله ﷺ، وعدَّهُنَّ في يدي، قال: «عَدَّهُنَّ في يدي جبريلُ ـ عليه السلام ـ، وقال جبريل: هكذا أُنزلتُ بهنَّ من عنـدِ ربِّ العزة: اللهمَّ صَلِّ على محمـدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما صَلَّيْتَ على إبراهيمَ وعَلَى آلِ إبراهيمَ إنَّـكَ حَميـدٌ مجيدٌ، اللهمَّ بارِكْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مجيدٌ، اللَّهُمَّ وتَرَحَّمْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ كما ترحَّمْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيـدٌ مَجِيـدٌ، اللهم وتَحَنَّنْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما تَحَنَّنْتَ على إبرهيمَ وعلى آل إبراهيمَ إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهمَّ وسَلِّمْ على محمدٍ وعلى آلِ محمدٍ

---

(١) رواه البخاري (٤٥١٩، ٥٩٩٦)، ومسلم (٤٠٦)، عن كعب بن عُجرة ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٣١٨٩، ٥٩٩٩)، ومسلم (٤٠٧)، عن أبي حميد ﷺ.

كما سَلَّمْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[1].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنـه قال: الصلاةُ على النبيِّ ﷺ أمحقُ للذنوب من الماء البارِدِ للنار، والسلامُ عليه أفضلُ من عِتْقِ الرقاب[2].

قال ابنُ الفاكهاني: قلت: وإنما كان أفضلَ من عتق الرقاب ـ والله أعلم ـ؛ لأن عتق الرقاب في مقابلته العتقُ من النار، ودخـولُ الجنـة، والسلامُ عليه في مقابلتـه سلامُ الله تعالى، وسلامٌ من الله تعالى أفضلُ من مئة ألف ألف جنة، فناهيك بها من مِنَّةٍ.

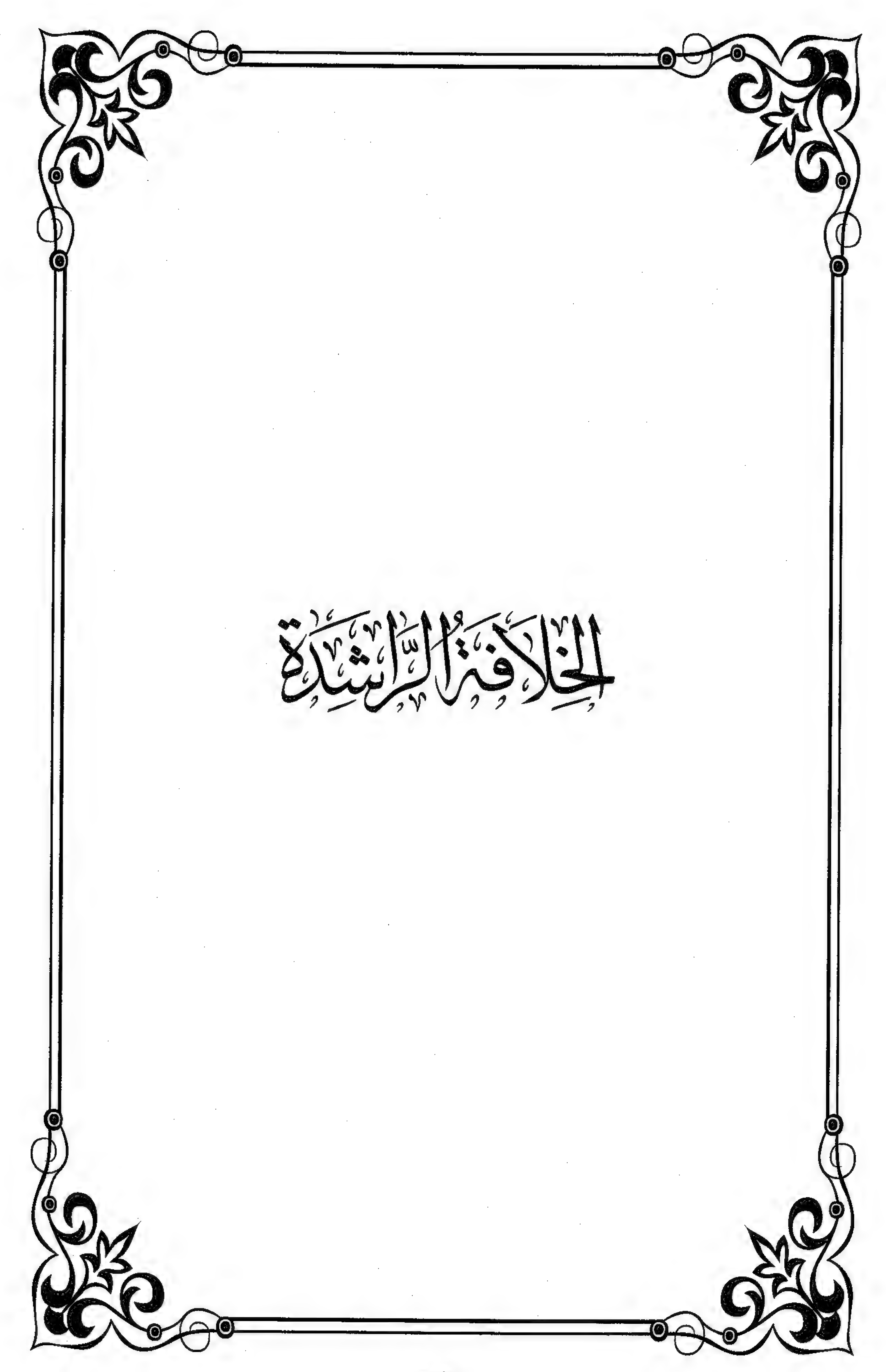
فنسأل الله أن يرزقنا مرافقته في الجنة، وأن يجعله وقاية لنا من كل شر وجُنَّة، آمين، إنـه وليُّ ذلك، والقادُر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلَّم.

❐ ❐ ❐

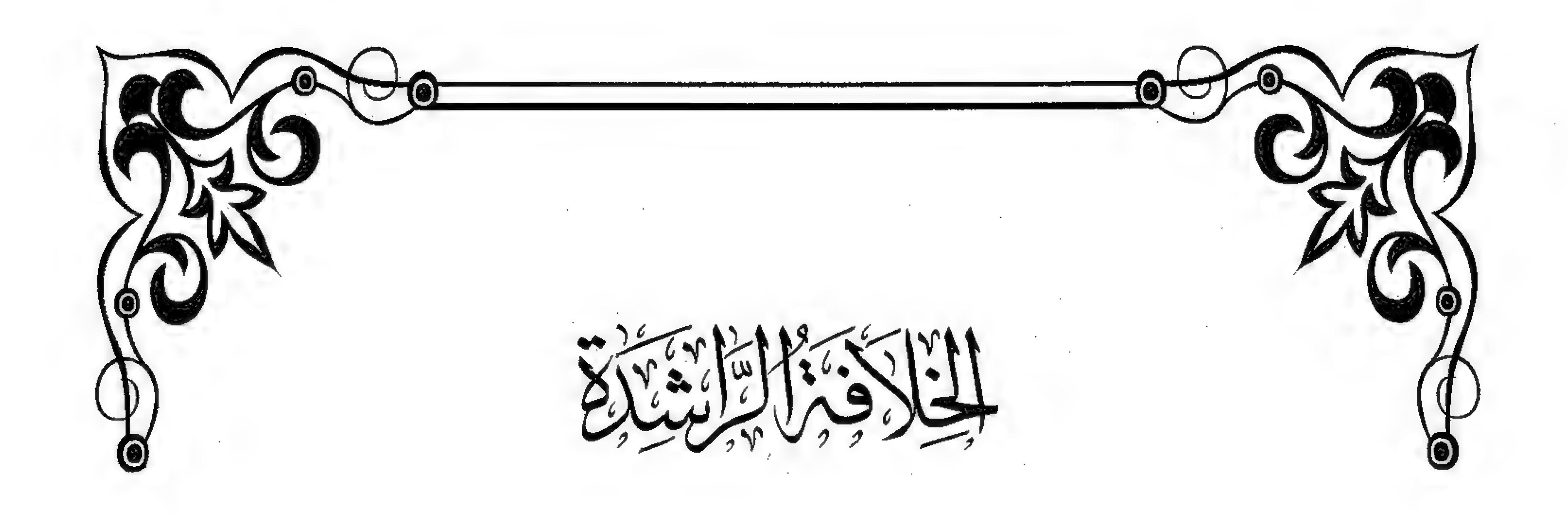
---

(١) رواه البيهقي في «شـعب الإيمان» (١٥٨٨)، وفي إسناده عمرو بن خالـد الواسطي الوضاع، كما قال ابن الملقن في «البدر المنير» (٤/ ٩٥).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٦١).



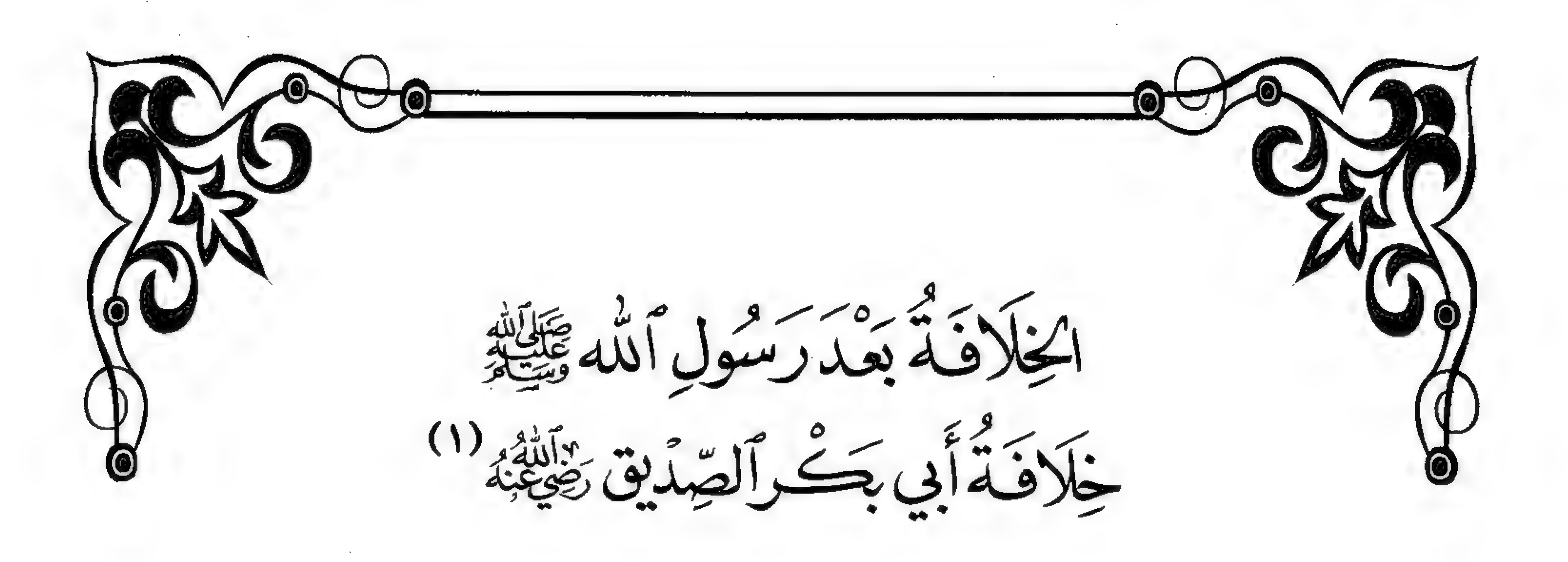
الخلافة الراشدة



الخلافة الراشدة

في المـدة التي نص عليها، وهي ثلاثـون سنة، فأوَّلُهم أبـو بكـر الصديق رضي الله عنه، وسُمي: خليفةَ رسول الله، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أول من سُمي: أميرَ المؤمنين، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان يُقال له: ذو النورين؛ لأنه تزوج ابنتي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم ابنه الحسن رضي الله عنه، ثم من بعدهم صارت الخلافة مُلكاً، وسنذكر ذلك في ترجمة الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، إن شاء الله تعالى.

* * *



الخلافة بعد رسول الله ﷺ

خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١)

هو عبدُالله بنُ أبي قُحافةَ عُثمانَ بنِ عامرِ بنِ عمرِو بنِ كعبِ بنِ سعدِ ابنِ تَيْمِ بنِ مُرّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيِّ بنِ غالبٍ، القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ، يلتقي مع رسول الله ﷺ في مُرّة بن كعب، وأمُّه أمُّ الخير سلمى بنتُ صخر بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

أسلم أبواه، واسم أبي بكر: عبدُالله، وهو الصحيح المشهور.

وقيل: اسمه عتيق، والصواب الذي عليه العلماء كافة: أنّ عتيقاً لقبٌ له لا اسم، ولُقِّب عتيقاً؛ لعتقه من النار، وقيل: لحسن وجهه.

---

(١) جاء على هامش الأصل: «كان اسم أبي بكر قبل الإسلام عبد الكعبة، فسماه رسول الله ﷺ عبدالله، وأما عمر وعثمان وعلي فلم يختلف في أسمائهم لا في الجاهلية ولا في الإسلام والله أعلم.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي، وأقرؤهم أُبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم».

واجتمعت الأُمة على تسميته الصِّدِّيق؛ لأنه بادَرَ إلى تصديق رسول الله ﷺ، ولازَمَ الصدقَ، وكانت له في الإسلام المواقف الرفيعة، منها: قضيته ليلة الإسراء، وثباته وجوابه للكفار في ذلك، وهجرته مع رسول الله ﷺ، ثم ثباته في وفاته عليه الصلاة والسلام، وخطبته الناس، وتسكينهم، ثم قيامه في قضية البيعة بمصلحة المسلمين، ثم قيامه في قتال أهل الردة، ثم ختم ذلك بمهمٍّ من أحسن مناقبه، وأجلِّ فضائله، وهو استخلافُه على المسلمين عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه، فمَهَّد به الإسلام، وأعزَّ به الدين، وأسلم على يديه خلق من الصحابة، ومناقبه غير محصورة.

هو أعلمُ الناس، وأزهدُهم، وأكثرهم تواضعاً في أخلاقه ولباسه ومطعمه، وكان لبسه في خلافته الشملة والعباءة.

وكان رضي الله عنه إذا مُدح، يقول: اللهمَّ أنتَ أعلمُ بي من نفسي، وأنا أعلمُ بنفسي منهم، اللهمَّ اجعلْني خيراً مما يظنون، واغفرْ لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

وهو أول خليفة في الإسلام اجتمعت الأمة على صحة خلافته، وقدّمته الصحابة رضي الله عنهم؛ لفضله[1].

---

(١) جاء على هامش الأصل: «قال في «الاستيعاب»: وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً نحيفاً، أبيض خفيف العارضين أجنأ لا تستمسك أزرته تسترخي عن حِقويه، معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الأشاجع. هكذا وصفته بنته عائشة رضي الله عنها».

* **ذكر نشأته**: ولد ﷺ بعد عام الفيل بثلاث سنين، ونشأ بمكة، وكان صفته: أبيضَ اللون، طويل، وقيل: آدم، نحيف الجسم، خفيف العارضين.

بويع له بالخلافة في اليوم الذي قُبِض فيه رسول الله ﷺ بسَقيفة بني ساعِدَةَ في العشر الأوسط من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وامتنع جماعةٌ من بيعته، ومالوا مع عليٍّ ﷺ.

ثم إن عمر ﷺ توجه إلى عليٍّ بأمر أبي بكر، فحضر إليه، وبايعه.

وروت عائشة رضي الله عنها: أن علياً لم يبايع حتى ماتت فاطمةُ بعدَ ستة أشهر لموت أبيها ﷺ، ورضي عنها.

وفي أيام أبي بكر ﷺ قُتِل مسيلمة الكذاب، وعشرة آلاف رجل من قومه، وأمر بجمع القرآن ـ كما تقدم ذكره في خبر مسيلمة ـ.

ولما حضرته الوفاة، عهد لعمر بن الخطاب ﷺ، ثم توفي بالمدينة الشريفة ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء، لثمانِ ليال بقيْنَ من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، وكانت وفاته بالسُّم، فقيل: إن اليهودية سمّته في أرز، وقيل غير ذلك.

وخلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

وغسّلته زوجته أسماء بوصيته، وصلى عليه عمر بن الخطاب، وحُمِل على سرير رسول الله ﷺ، وهو سرير كان من خشب ساج وهو منسوج بالليف، ودُفِن في حجرة عائشة رضي الله عنها ليلاً، ورأسه

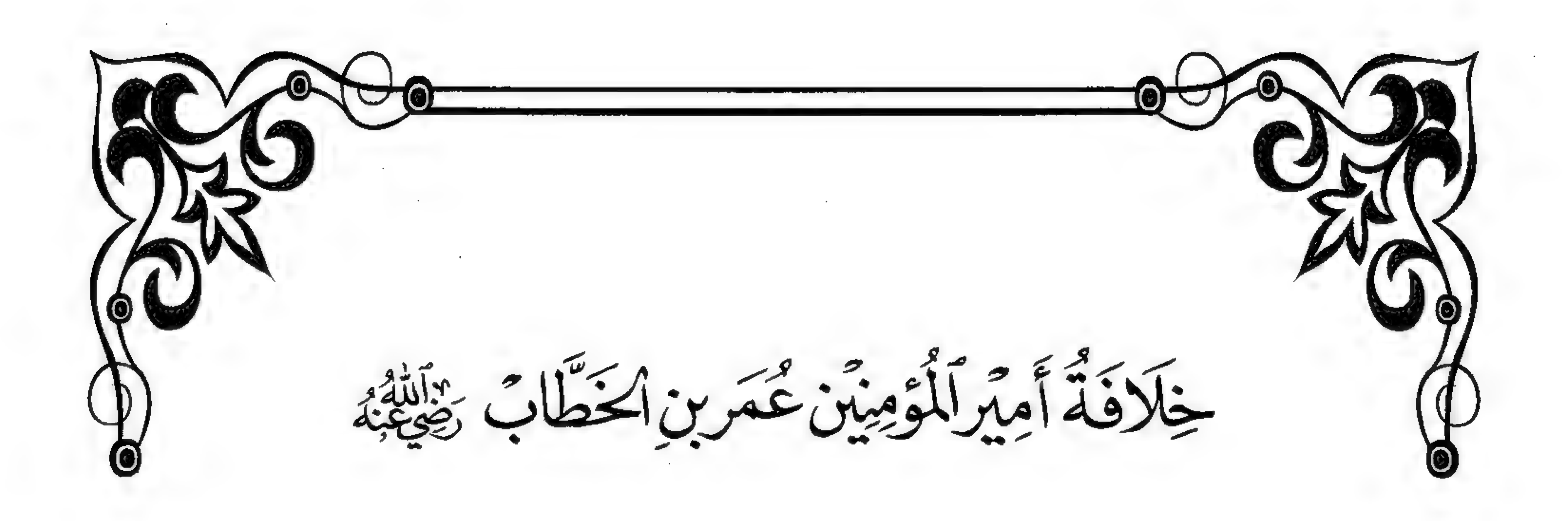
عند كتفَيْ رسول الله ﷺ، وورثه أبوه أبو قحافةَ، ولا يُعرف خليفةٌ ورثه أبوه غيره؛ فإنّ أباه توفي بعده في خلافة عمر في سنة أربع عشرة، وعمره سبع وتسعون سنة.

وكان له رضي الله عنه من الولد: عبدالله، وعبد الرحمن، ومحمد، وخَلَّف أسماء أم عبدالله بن الزبير، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

ومناقبه رضي الله عنه لا يمكن استقصاؤها، ولا الإحاطة بعُشْرِ مِعشارها، فهو أفضل الصحابة على الإطلاق، وخير الناس بعد رسول الله بالاتفاق.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *



خِلَافَةُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

هو أبو حفص عمرُ بنُ الخطابِ بنِ نُـفَيلِ بنِ عبدِ العُزّى بنِ رياحِ بنِ عبدِالله بنِ قرطِ بنِ رزاحِ بنِ عديٍّ بنِ كعبِ بنِ لُؤَيٍّ بنِ غالبٍ.

وفي كعب يجتمع نسبُه مع نسب رسول الله ﷺ، القرشَيُّ العدويُّ، أميرُ المؤمنين رضي الله عنه.

وأمه خيثمة بنتُ هاشم، ويقال: هشام بن المغيـرة بن عبيدالله بن عمر بن مخزوم.

وسمي بالفاروق؛ لأنه فرّق بين الحق والباطل.

وهو أول من سُمي بأمير المؤمنين، سماه عديُّ بن حاتم.

وُلِد رضي الله عنه بعـد الفيل بثلاثَ عشرةَ سنة، أسلم بعـد أربعين رجلاً، وإحدى عشرةَ امرأةً، فما هو إلا أن أسلم، فظهر الإسلام بمكة، وكان النبي ﷺ قال: «اللهمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بِأَحَبِّ الرَّجُلَيْنِ إليكَ: عمرَ بنِ الخطابِ، أو عَمْرِو بنِ هشامٍ ـ يعني: أبا جهل ـ»[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٨١)، والإمام أحمـد في «المسند» (٢/ ٩٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٨٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وعن حذيفة قال: لَمَّا أسلم عمر، كان الإسلامُ كالرجلِ المقبِلِ لا يزداد إلا قرباً، فلما قُتل عمر، كان الإسلامُ كالرجل المدبِرِ لا يزداد إلا بعداً[1].

وكان إسلامه رضي الله عنه في السنة الخامسة من النبوة، وهاجر إلى المدينة حين أراد النبي صلى الله عليه وسلم الهجرة، فتقدم قدامه.

وكان شديداً على الكفار والمنافقين، وهو الذي أشار بقتل أسارى بدر، فنزل القرآن على وفق قوله.

وأمّا زهده وتواضعه: فمن المشهورات التي استوى الناس في العلم بها وكان قميصه فيه أربعة عشر رقعة، أحدها من أديم.

و[أما] **فضائله** رضي الله عنه الثابتةُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح، فأكثرُ من أن تُحصر.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه قال لعمر بن الخطاب: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! ما لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً، إلاَّ سلكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ»[2].

وتولى عمر رضي الله عنه الخلافة باستخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن شاور الصحابة، فأشاروا به، ثم دعا أبو بكر عثمانَ بنَ عفان، فقال: (اكتبْ: بِسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قُحافَة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حين

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٤٨٨).

(٢) رواه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٣٩٦)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

يؤمِن الكافر، ويوقِن الفاجر، ويَصْدُق الكـاذب، إني مستخلِفٌ عليكم عمر بن الخطـاب، فاسمعوا لـه وأطيعـوا، فإن عَدَل، فذلك ظنّي به، وعلمي فيه، وإن بدّل، فلكلِّ امرئٍ ما اكتسب، والخيرَ أردتُ، ولا أعلمُ الغيبَ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ثم أمره، فختم الكتاب، وخرج به إلى الناس، فبايعوا عمر جميعاً، ورضوا به.

ولما أراد أبـو بكر أن يقلِّد عمـرَ الخلافـة، قال لـه عمـر: أَعْفِني يا خليفةَ رسول الله؛ فإني غنيٌّ عنها.

قال: بل هي فقيـرةٌ إليـك، قال: ليس لي بها حاجـة، قال: هي محتاجة إليك، فقلده الخلافة على كُره منه، ثم أوصاه بما أوصاه.

فلما خرج، رفع أبو بكر يديه، ثم قال: (اللهمَّ إني لم أُرِدْ بذلك إلا صلاحَهم، وخفتُ عليهم الفتنةَ، فولَّيت عليهم خيارَهم، وقد حضرني من أمرك ما حضرني، فاخْلُفني فيهم؛ فهم عبادك، ونواصيهم في يديك، وأصلِحْ لهم وُلاتَهم، واجعلـه من خلفائك الراشـدين، يتبـع هدي نبي الرحمة، وأصلح له رعيته).

وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبو بكر رضي الله عنه.

وأول خطبة خطبها، قال: (يا أيها الناس! والله! ليس فيكم أحـد أقوى من الضعيف عندي حتى آخـذَ الحقَّ لـه، ولا أضعـف عندي من

القوي حتى آخذَ الحقَّ منه.

ثم أولُ شيءٍ أمر به: أنْ عزل خالد بن الوليد عن الإِمرةِ، وولّى أبا عبيدة بن الجراح على الجيش والشام، وأرسل بذلك إليهما، ثم سار أبو عبيدة، ونازل دمشق من جهة باب الجابية، ونزل خالد من جهة باب توما وباب شرقي، ونزل عمرو بن العاص بناحية أخرى، وحاصروها قريباً من سبعين ليلة، وفتح خالد ما يليه بالسيف، فخرج أهل دمشق، وبذلوا الصلح لأبي عبيدة من الجانب الآخر، وفتحوا له الباب، فآمَنهم، ودخل، والتقى مع خالد في وسط البلد، وبعث أبو عبيدة بالفتح إلى عمر رضي الله عنه.

وفي أيامه فتح العراق، وأمر ببناء البصرة، فاخْتُطَّت في سنة أربعَ عشرةَ، وقيل: في سنة خمس عشرة.

ثم فُتِحَت حِمْص بعد حصار طويل على يد أبي عبيدة، ثم سار إلى حماة، وكانت في زمن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ مدينة عظيمة، وكذلك كانت في زمن اليونان، إلا أنها في زمن الفتوح وقبلَه كانت صغيرة، فخرج الروم الذين[1] بها إليه، فصالحهم على الجزية لرؤوسهم، والخراج على أرضهم، وجعل كنيستهم العظمى جامعاً، وهو الجامع بالسوق الأعلى من حماة.

ثم سار أبو عبيدة إلى شَيْزَر، فصالحه أهلها على صلح أهل حماة، وكذلك أهلُ المعرَّة.

(١) في الأصل: «التي».

ثم فتح اللاذقيةَ عَنوةً، وفتح جبلة، وانطرسوس.

ثم فتح بعد ذلك حلب، وأنطاكية، ومنبج، ودلوك، وسرمين، ومرعش في سوريا.

ولما فُتِحت هذه البلاد، وهي سنة خمس عشرة، وقيل: ست عشرة، أيسَ هرقلُ من الشام، وسار إلى قسطنطينية من الرها، ولما سار هرقل علا على نَشَز من الأرض، ثم التفتَ إلى الشام، وقال: السلامُ عليك يا سوريا، سلام لا اجتماعَ بعده، ولا يعود إليك رومي بعدها إلا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم، وليته لم يولد، فما أَجَلَّ فِعْلَهُ، وأَمَرَّ فِتْنَتَهُ على الروم.

ثم فتحت قيسارية، وصبصطية وبها قبر يحيى بن زكريا، ونابلس، ولُدّ، ويافا، وتلك البلاد جميعها.

وأمّا بيت المقدس، فطال حصاره، وطلب أهله من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل الشام؛ بشرط أن يكون عمر بن الخطاب رضي الله عنه متولياً أمرَ الصلح، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فتقدم عمر رضي الله عنه إلى القدس، وفتحها، واستخلف على المدينة عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك في سنة خمس عشرة من الهجرة.

ويوم فتح عمر رضي الله عنه بيت المقدس، قال لكعب: أين ترى أن أبني مُصَلًّى للمسلمين أمامَ الصخرة، أو خلفَها؟ قال: خلفَها، فقال: يا بن اليهود! خالطتك يهودية، بل أبنيه أمامها؛ إِنَّ لنا صدورَ المساجد.

ثم وضع الدواوين وفرض العطاء للمسلمين.

ثم فتح المسلمون تكريت، والموصل.

وفي سنة سبع عشرة اختُطَّت الكوفة، وفي هذه السنة اعتمر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وأقام بمكة عشرين ليلة، ووسَّع في المسجد الحرام، وهدم منازل قوم أَبَوا أن يبيعوها، وجعل أثمانها في بيت المال، وتزوج أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمُّها فاطمةُ رضي الله عنها.

وفتح المسلمون الأهواز.

وفي سنة ثمان عشرة كان طاعون عمواس بالشام، مات فيه أبو عبيدة بن الجراح، واسمه: عامر بن عبدالله بن الجراح الفِهْري، أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة.

وفي سنة تسع عشرة فُتِحَت مصر، والإسكندرية على يد عمرو بن العاص، والزبير بن العوام.

وفي سنة عشرين توفي بلال مؤذن رسول الله ﷺ، وهو مولى أبي بكر الصديق، ولم يؤذِّن بعد رسول الله ﷺ، توفي بدمشق، ودُفِنَ عند الباب الصغير.

وفي سنة إحدى وعشرين كانت وقعة نهاوند مع الأعاجم، وانتصر المسلمون، وفُتِحَت الدينَور، والضميرة، وهمدان، وأصفهان.

وفي هذه السنة توفي خالد بن الوليد وقبرُه بحمص، وقيل: بالمدينة.

وفي سنة اثنتين وعشرين فُتِحَت أذربيجان، والري، وجرجان، وقزوين، وزنجان، وطبرستان، وطرابلس الغرب، وغير ذلك.

وفيها ـ أعني: سنة اثنتين وعشرين ـ توفي أُبَيُّ بنُ كعب بن قيس، وهو من وَلد مالك بن النجار، وكان يكنى: أبا المنذر، أحدُ كُتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وهو الذي أمر الله تعالى رسولَه ﷺ أن يقرأ القرآن على أُبَيّ بن كعب المذكور، وقال رسول الله ﷺ: «أقرأ[1] أُمَّتي أُبَيٌّ بَعْدِي»[2].

وقيل: مات سنة ثلاثين في خلافة عثمان.

* **كراماته:** من كرامات عمر رضي الله عنه: أنه كان يخطُب يوم الجمعة بالمدينة، فقال في خطبته: (يا ساريةُ، الجبلَ الجبلَ)، فالتفت الناسُ بعضُهم لبعض، فلم يفهموا مراده، فلما صلى صلاته، قال له عليٌّ: ما هذا الذي قلتَه؟ قال: أوَسمعتَه؟ قال: نعم، أنا وكلُّ مَنْ في المسجد، قال: (وقع في خَلَدي أن المشركين هزموا إخواننا، وركبوا أكتافَهم، وأنهم يمرُّون بجبل، فإن عَدَلوا إليه، قاتلوا من وجدوا، فظفروا، وإن جاوزوه، هلكوا، فخرج مني هذا الكلام)، فجاء البشير بعد شهر، فذكر

---

(١) في الأصل: «أقرأكم».

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٥٥٦)، عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه، دون قوله: «بعدي».

ورواه الترمذي (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٢٤٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب».

أنهم سمعوا في ذلك اليوم وتلك الساعة ـ حين جاوزوا الجبل ـ صوتاً يشبه صوتَ عمر: يا سارية بن حصين! الجبلَ الجبلَ، فعدلنا إليه، ففتح الله علينا.

* **فضائله** رضي الله عنه: وفضائلُه أشهرُ من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصر، جاهد في الله حقَّ جهاده، فجيّش الجيوش، وفتح البلاد، ومَصَّرَ الأمصار، وأعزَّ الإسلام، وأذلَّ الكفر، وهو أولُ مَنْ جمع الناسَ لصلاة التراويح، وكان متواضعاً، يشتمل بالحياء، ويحمل القِرْبة على كتفه، وأكثرُ مركوبه الإبل.

ومن عماله: سعيد بن عامر بن حكيم على حمص.

ومن عماله على المدائن: سلمان الفارسي، وكان ناسكاً زاهداً.

* **ذكر وفاته** رضي الله عنه: ذُكر أنه خرج لصلاة الصبح في جماعة، فضربه أبو لؤلؤة غلامُ المغيرة بن شعبةَ ـ لما وقف يصلِّي ـ بخنجر برأسين، فطعنه ثلاث طعنات، إحداهن تحت سُرَّته، وهي التي قتلته، وطَعَن اثني عشر رجُلاً من أهل المسجد، فمات منهم ستة، ثم نحر نفسه بخنجره، فمات ـ لعنه الله ـ.

ولما طعنه أبو لؤلؤة، وقع على الأرض، ثم قال: أفي الناس عبدُ الرحمن بن عوف؟ قالوا: نعم يصلي بالناس، وقال لولده عبدِالله: انظر مَنْ قتلني؟ فقال: يا أمير المؤمنين! قتلك أبو لؤلؤةَ غلامُ المغيرة ابن شعبة، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قتلي على يد رجُل سجدَ لله سجدةً واحدة.

ثم بعث ابنهَ عبدَالله إلى عائشة رضي الله عنها، وقال: قل لها: يقرأ عليك عمرُ السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين؛ فإني لست اليوم أميراً، ويقول لك: إنه لاحِقٌ بربه، أفتأذنين له أن يُدفَن مع صاحبيه؟

فجاء عبدالله إلى عائشة، فاستأذن عليها، فأذنت له، فبلّغها رسالة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فتأوهت، وبكت، وقالت: لقد كنت أشمُّ رائحةَ رسول الله ﷺ في أبي بكر، فلما مات، كنت أشم رائحته في أمير المؤمنين عمر، مالي وللدنيا أفقِدُ فيها الأحبابَ واحداً بعد واحد؟!

ثم قالت له: أبلغْ أميرَ المؤمنين مني السلام، وقل له: ألا إنها كانت ادَّخرت ذلك لنفسها، ولكنها آثرتْكَ اليوم على نفسها.

فلما رجع عبدالله، قال له عمر: ما وراءك يا عبدالله؟ قال: الذي تُحبّ، قد أَذِنت لك عائشة، قال: الحمدُ لله، ما كان شيء أهمَّ إليَّ من ذلك، فإذا أنا قُبِضت، فارجعْ إلى عائشة، فاستأذنها ثانيةً، فربما تكون استحيت مني وأنا حَيّ، فلا تستحيي مني وأنا ميت.

وأوصاهم أن يقتصروا في كفنه، ولا يتغالوا.

وتوفي يوم السبت سلخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودُفِن يوم الأحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وغسّله ابنُه عبدالله، وحُمِل على سريرِ رسولِ الله ﷺ، وصُلِّي عليه في مسجده، وصلَّى بهم عليه صُهيبٌ، وكبّر عليه أربعاً، ونزل في قبره ابنه عبدُالله، وعثمان بن عفان، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف.

وكانت خلافته رضي الله عنه عشر سنين، وستة أشهر، وثمانيـة أيام، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين ـ على الصحيح المشهور ـ.

والصحيح: أنّ سِنَّ رسول الله ﷺ، وسنَّ أبي بكر، وعمر، وعلي، وعائشة ثلاث وستون سنة.

وعهِدَ بالخلافة إلى النفر الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وهم: عليٌّ، وعثمان، وطلحـة، والزبير، وسعدٌ رضي الله عنهم، بعد أن عرضها على عبد الرحمن بن عوف، فأبى، وشرطَ أن يكون ابنُه عبدُالله شريكاً في الرأي، ولا يكون له حظٌّ في الخلافـة، وجعل لهم مدة ثلاثة أيام، وقال: لا يمضي اليـوم الرابع إلا ولكم أمير، وإن اختلفتم، فكونوا مع الذين معهم عبد الرحمن بن عوف.

وكان عمر رضي الله عنه طُوالاً، أصلعَ، أبيضَ، يعلوه حمرة.

وقيل: كان آدمَ اللون، شديدَ الأُدمة، وعليه أكثر أهل العلم[1].

وكان له من الولد: عبدالله، وحفصة، أمُّهما زينبُ بنتُ مظعون، وعبيدُالله، أمُّه مُلَيْكَـة بنت جَرْول الخزاعية، وعاصم، أمُّه جميلـةُ بنت عاصم، وفاطمـة وزيـد، أمُّهما أمُّ كلثـوم بنـتُ علي بن أبي طالـبٍ من فاطمة رضي الله عنهم، وعبد الرحمن، وفاطمة، وبنات أُخَر.

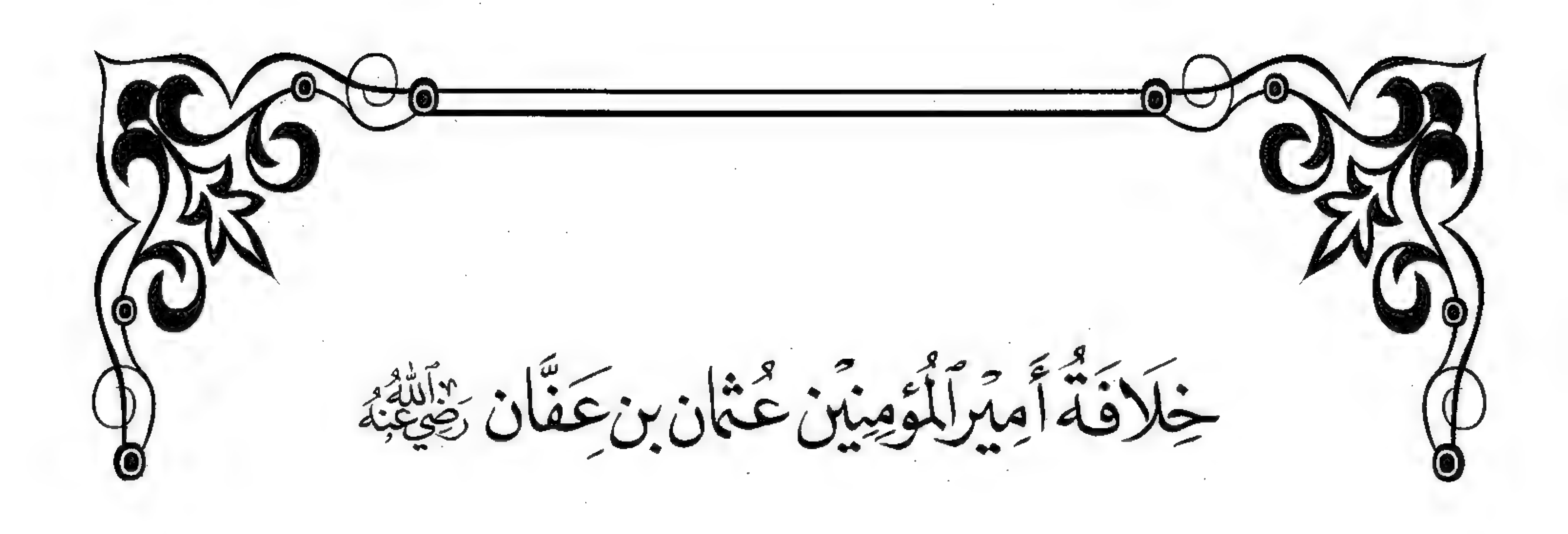
---

(1) جـاء على هامـش الأصـل: «قـال في «الاستيعـاب» في تـرجمـة عمـر بن الخطاب رضي الله عنه: آدم شديد الأدمة، طوالاً كث اللحيـة أصلع أعسر بَسِراً، وكان يخضب بالحناء والكتم».

وكان له من الموالي: أسلم، وأبو أمية جدُّ المبارَكِ بن فضالةَ بن أبي أمية، ومهجع، استشهد يوم بدر، وذكوان وهو الذي سار من مكة إلى المدينة في يوم وليلة.

ولعمر رضي الله عنه أخبار كثيرة في أسفاره مع كثير من ملوك العرب والعجم، وما كان في أيامه من الكوائن والأحداث، وفضائلُه وأحوالُه غير محصورة رضي الله تعالى عنه.

* * *



خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو أبو عَمْرٍو، ويقال: أبو عبـدالله، وأبو ليلى، عثمانُ بنُ عَفَّانَ بنِ أبي العاصِ بنِ أميـةَ بنِ عبدِ شمسِ بنِ عبـدِ منـافِ بنِ قصيٍّ، الأمويُّ، القرشيُّ، المكيُّ، ثم المدني، أمير المؤمنين.

وأمُّه أَرْوى بنتُ كُرَيز - بضم الكاف وفتح الراء - ابنِ ربيعةَ بنِ حبيبِ ابنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ منافٍ، وأمُّها أمُّ حكيمٍ البيضاءُ بنتُ عبد المطلب عمةُ رسولِ الله ﷺ.

ويقال لعثمان: ذو النُّورَيْن؛ لأنه تزوَّج بنتَي رسولِ الله ﷺ، إحداهما بعد الأخرى، ولا يُعرَف أحد تزوج بنتي نبي غيره، تزوج رقية قبل النبوة، وتوفيـت عنـده في أيام غـزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

ثم تزوج بأختها أم كلثوم بنـت رسول الله ﷺ، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة.

وقد ولد رضي الله عنه في السنة السادسة بعد الفيل، ولما مات عمر رضي الله عنه، اجتمع أهل الشورى، وهم: علي، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف،

وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر. ومضى عليٌّ إلى العباس، وتكلم معه، فقال له: هذا الرهط لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم له غيرنا، وايم الله لا ننالُه إلا بِشَرٍّ لا ينفع معه خير.

ثم جمع عبد الرحمن بن عوف الناسَ بعد أن أخرج نفسَه عن الخلافة، فدعا علياً، فقال: عليك عهدُ الله وميثاقُه لتعملَنَّ بكتاب الله، وسنة رسوله، وسيرة الخليفتين من بعده؟ فقال: أرجو أن أفعل وأعمل مبلغ علمي وطاقتي، ودعا بعثمان، وقال له مثلَ ما قال لعلي، فرفع عبدُ الرحمن رأسَه إلى سقف المسجد، ويدُه في يد عثمان، وقال: (اللهمَّ اسمعْ واشهد أنِّي جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان)، وبايعه.

فقال علي: ليس هذا بأول يوم تظاهرتم علينا فيه، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، والله ما وَلَّيتَ عثمانَ إلا ليردَّ الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن، فقال عبد الرحمن: يا عليُّ! لا تجعل على نفسك حجة وسبيلاً.

فخرج عليٌّ وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله.

بويع له بالخلافة رضي الله عنه لثلاثٍ مضين من المحرم سنة أربع وعشرين، ولما بويع، رقا المنبر، وقام خطيباً، وحمد الله، وأثنى عليه، ثم نزل، وأقرَّ ولاةَ عمر سنة؛ لأنه كان أوصى بذلك، ثم عزل وولَّى، وجهز الجيوش للغزو.

ولما دخلت سنة ثلاثين: فيها بَلَغَ عثمانَ رضي الله عنه ما وقع في أمر

القرآن؛ من أن أهل العراق يقولون: قرآننـا أصحُّ من قرآن أهل الشام؛ لأننا قرأنا على أبي موسى الأشعري، وأهلُ الشام يقولون: قرآننا أصحُّ؛ لأننا قرأنا على المقداد ابن الأسود، وكذلك غيرهم من الأمصار، فأجمع رأيه ورأي الصحابة، على أن يحمل الناس على المصحف الذي كُتِب في خلافة أبي بكر ﷺ، وكان مُودَعاً عند حفصـةَ زوجِ النبيِّ ﷺ، ويحرق ما سِواه من المصاحف التي بأيدي الناس، ففعل ذلك، ونسخ من ذلك، المصحف مصاحفَ، وحُمل كلٌّ منها إلى مصرٍ من الأمصار، وكـان الذي تولى نسخَ العثمانيـة بأمر عثمان: زيـد بن ثابـت، وعبـدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي.

وقال عثمان: إذا اختلفتم في كلمة، فاكتبـوها بلسان قريش؛ فإنما نزل القرآن بلسانهم.

وفي هذه السنة: سقط من عثمان خاتمُ النبي ﷺ، وكان من فضة، مكتوب فيه ثلاثة أسطر: محمد، رسول، الله، وكان النبي يتختم فيه، ويختم الكتب التي كان يرسلها إلى الملوك، ثم تختَّم بعدَه أبـو بكر، ثم عمر، ثم عثمان إلى أن سقط في بئر أريس.

وفي سنة اثنتين وثلاثين: توفي عبـدالله بن مسعود، وكـان جليلَ القدر في الصحابة، وهو أحدُ القُرَّاء ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفي سنة أربع وثلاثين: توفي المقداد بن الأسود، وهـو المقداد ابن عمرو بن ثعلبة، ونسب إلى الأسودِ بنِ عبدِ يغوثَ؛ لأنه كان قد حالفَ الأسودَ المذكور في الجاهلية، فتبناه، فعُرف بالمقداد ابن الأسود، فلما

نزل قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾[الأحزاب: ٥]، قيل له: المقداد بن عمرو، ولم يكن في يوم بدر من المسلمين صاحب فرس غيرُ المقداد ـ في قول ـ، وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان عمره نحو سبعين سنة.

ثم لما دخلت سنة خمس وثلاثين: فيها قدم من مصر جمع، قيل: ألف، وقيل: سبع مئة، وقيل: خمس مئة، وكذلك قدم من الكوفة جَمْعٌ، وكذلك من البصرة، وكان هوى المصريين مع عليٍّ، وهوى الكوفيين مع الزبير، وهوى البصريين مع طلحةَ، فدخلوا المدينة.

ولما جاءت الجمعة التي تلي دخولهم المدينة، خرج عثمان رضي الله عنه، فصلى بالناس، ثم قام على المنبر، وقال للجموع المذكورة: يا هؤلاء! الله يعلم، وأهل المدينة يعلمون: أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ.

فقام محمد بن مسلمة الأنصاري، فقال: أنا أشهد بذلك، وثار القوم بأجمعهم، فحَصَبوا الناسَ حتى أخرجوهم من المسجد، وحُصِب عثمانُ حتى خرّ على المنبر مغشياً عليه، فأُدخل دارَه، وقاتل جماعةٌ من أهل المدينة عن عثمان، منهم: سعد بن أبي وقاص، والحسن بن علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبو هريرة رضي الله عنهم.

فأرسل إليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف، فانصرفوا، وصلى عثمان بالناس بعد ما نزلت الجموع المذكورة في المسجد ثلاثين يوماً.

ثم منعوه الصلاة، فصلى بالناس أميرُهم الغافقيُّ أميرُ جمعِ مصر،

ولزم أهلُ المدينـة بيوتهم، وعثمانُ محصورٌ في داره، ودام ذلك أربعين يوماً، وقيل: خمسين يوماً، وآخر الحال أنهم تَسَوَّروا على عثمان رضي الله عنه من دار لزقَ داره، ونزل عليه جماعة، فقتلوه ظلماً، فضربـه رجل بعمود على جبهته، وضربـه الآخر بسيفٍ على عاتقـه، وضربـه رجل بسيف، فاتقاها بيده، فقطعها، فقال: أما إنها أولُ كفٍّ خَطَّت في المصحف.

وقُتِل رضي الله عنه وهو صائم، والمصحف بين يديه يتلو فيه.

وكان مقتله رضي الله عنه يوم الأربعاء، لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين، وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة، إلا اثني عشر يوماً.

واختلف في عمره، فقيل: خمس وسبعون، وقيل: اثنان وثمانون، وقيل: تسعون، وقيل: غيـر ذلك، ومكـث ثلاثـة أيام لم يُدفـن؛ لأن المحارِبين لـه منعوا من ذلك، ثم أمر عليٌّ بدفنـه، ودُفِن ليلاً بالبقيـع، وأُخفي قبره ذلك الوقت، ثم ظهر.

وأما شمائله: فإنه كان في نهاية الجُود والكرم والسخاء، وهو الذي جهّز جيش العُسرة بجملةٍ من ماله.

وروي: أنه دخل على رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ ثوبَـه عليـه، وقال رسول الله ﷺ: «كيف لا أَسْتَحْيي مِمَّنْ تَسْتَحْيِي منهُ ملائِكةُ السَّماء»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠١)، عن عائشة رضي الله عنها.

وانفتح بقتل عثمان بابُ الشرِّ والفتن.

وحجَّ بالناس في خلافته عشر سنين متوالية، ويوم قُتِل كان له عند خازنه من المال مئة ألف وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه مئه ألف دينار، وخلَّف خيلاً وإبلاً كثيرة.

وفي أيامه اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور.

وفي زمنه كانت غزاة الإسكندرية، ثم سابور، ثم إفريقية، ثم قبرص، وإصطخر الأخيرة، وفارس الأولى والأخيرة، ثم طبرستان، وسجستان، ثم الأساورة في البحر، ثم مرو.

وكان عثمان رضي الله عنه حسنَ الوجه، رقيقَ البشرة، أسمر اللون، كثير الشعر، بين الطويل والقصير، وبشَّره رسول الله ﷺ بالجنة على بَلْوى تصيبه، وهو أحدُ العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحدُ الستة أصحابِ الشورى، الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد الخلفاء الراشدين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأعتق عشرين مملوكاً وهو محصور.

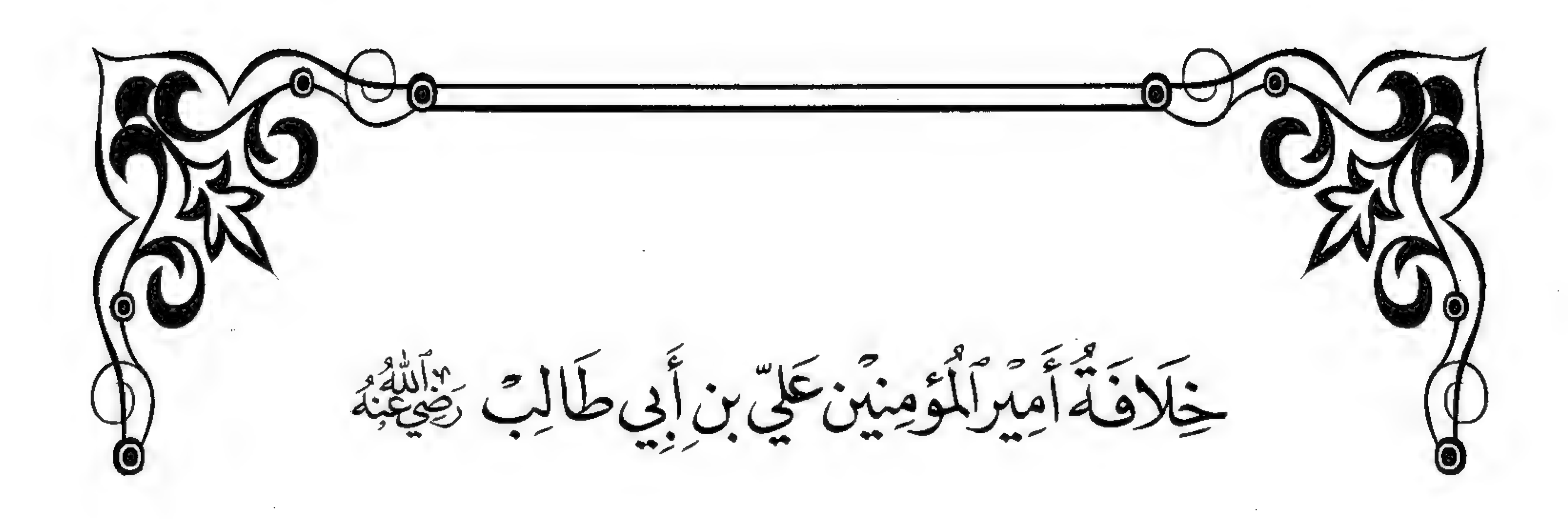
وكان له من الأولاد: عبدالله ـ الأكبر ـ أمُّه فاختةُ بنتُ غزوان، وعبدالله ـ الأصغر ـ أمُّه رقيةُ بنتُ رسول الله ﷺ، وعمر، وأبان، وخالد، وسعد، والوليد، والمغيرة، وعبد الملك، وأم سعيد، وأم أبان، وأم عمرو، وأم عائشة.

ومَلَكَ أموالاً جَزِيلة انتُهبت يومَ الدار.

وكان قاضيه زيد بن ثابت، وحاجبه موران مولاهُ، وكاتبه مروان بن الحكم بن العاص ابنُ عمه ﷺ.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *



خِلَافَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيّ بن أَبِي طَالِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

هو عليُّ بنُ أبي طالبِ بنِ عبد المطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبـدِ منافٍ، واسمُ أبي طالب: عبد مناف، القرشيُّ الهاشميُّ، المكيُّ المدنيُّ الكوفيُّ، أميرُ المؤمنين، وابنُ عمِّ سيدِ المرسلين، وأمُّـه فاطمةُ بنتُ أسدِ بن هاشمِ ابنِ عبدِ منافٍ، الهاشميةُ، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، أسلمت، وهاجرت إلى المدينة، وتوفيـت في حياة رسول الله ﷺ، وصلَّى عليها، ونزل في قبرها.

وكنيته رضي الله عنه: أبو الحسن، وكنّاه رسول الله ﷺ: أبا تراب[1]، وكانت أحبَّ إليه مِنْ كل ما يُنادى به.

وأسلم رضي الله عنه وهو ابن عشر سنين، وقيل: ابن ثمان سنين، وله في جميع المشاهد آثار مشهورة، وأحوال مذكـورة، وأخباره في الشجاعة وآثاره في الحروب مشهورة.

وأما عِلْمه، فكان من العلوم بالمحل العالي.

وأما الأحاديث الواردة في الصحيح في فضله، فغير محصورة.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٠)، ومسلم (٢٤٠٩)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

وأما زهدُه: فهو من الأمـور المشهـورة، التي يشترك في معرفتها الخاص والعام.

ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصى.

بويع بالخلافة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل عثمان، يوم الجمعة، لخمـس بقيـن من ذي الحجـة، سنة خمس وثلاثين، جاءت الصحابـة وغيرهم إلى دار علي، فقالوا: نبايعك؛ فأنـت أحـق بها، فقال: أكون وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً، فأبوا عليـه، فأتى المسجد، فبايعوه، وقيل: بايعوه في بيته.

وأول من بايعه: طلحةُ بن عبدالله، وكانت يد طلحةَ مشلولةً من نوبة أحد، فقال حبيب بن ذؤيب: إنا لله، أولُ من بدأ بالبيعة يدٌ شلاَّء، لا يتمُّ هذا الأمر، وبايعه الزبير والباقون.

وامتنع من البيعة جماعة، وسُمُّوا: المعتزلة؛ لاعتزالهم بيعة علي.

ثم بعد مبايعة علي بأربعة أشهر هرب طلحة والزبير إلى مكة، وقالا: إنما بايعنا خشيةً على نفوسنا.

*** ذكر مسير عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبيرِ إلى البصرة:**

لما ولي عليٌّ بن أبي طالب الخلافة، فارقه طلحة، والزبير، ولحقا بمكة ـ كما قدمنا ـ، واتفقا مع عائشة رضي الله عنها، وكانت قد مضت إلى الحج، وعثمانُ محصور، ولما بلغ عائشةَ قتلُ عثمان، اعتظمت ذلك، ودعت إلى الطلب بدمه، وساعدها على ذلك طلحةُ، والزبير، وعبدُالله بن عامر،

وجماعة من بني أمية، وجمعوا جمعاً عظيماً، واتفق رأيهم على المضي إلى البصرة للاستيلاء عليها، وقالوا: معاوية بالشام قد كفانا أمرها، وكان عبدالله بن عمر قد قدم من المدينة، فدعوه إلى المسير معهم، فامتنع، وساروا، وأعطى يَعْلَى بن مُنْيَة عائشةَ الجملَ المسمى بـ: عسكر، اشتراه بمئة دينار، فركبته، فضربوا في طريقهم مكاناً يقال له: الحَوْأَب، فنبَحَهُم كلابُه، فقالت عائشة: أيُّ ماء هذا؟ فقيل: هذا ماء الحوأب، فصرخت عائشة بأعلى صوتها، وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول، وعنده نساؤه: «لَيْتَ شِعْرِي أَيَّتُكُنَّ تَنْبَحُهَا كِلاَبُ الحَوْأَبِ؟»، ثم ضربت عضدَ بعيرها، وقالت: ردوني، أنا ـ والله ـ صاحبة ماء الحوأب، فأناخوها يوماً وليلة، وقال لها عبدالله بن الزبير: إنه كذب ـ يعني: ليس هذا ماء الحوأب ـ، ولم يزل بها، وهي تمتنع، فقال لها: النجاء النجاء، فقد أدرككم علي بن أبي طالب، فارتحلوا نحو البصرة، واستولوا عليها بعد قتال مع عثمان بن حُنيف، وقُتِل من أصحابه أربعون رجُلاً، وأُمْسِكَ عثمان، فنُتِفَت لحيته وحواجبه، وسُجِن، ثم أُطلِق[1].

*** ذكر مسير علي رضي الله عنه إلى البصرة:**

ولما بلغ علياً مسيرُ عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة، سار نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة، منهم أربع مئة ممن بايع تحت الشجرة، وثمان مئة من الأنصار، وكان مسيرُه في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين،

---

(١) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء الحموي (١/ ٢٣٧).

ولما وصل إلى ذي قـار، أتاه عثمان بن حُنيف، وقال: يا أمير المؤمنين! بعثتَني ذا لحية، وجئتك أمردَ، فقال: أصبتَ أجراً وخيراً.

*** وقعـة الجمل:**

واجتمع إلى[1] عليٍّ من أهل الكوفـة جمـعٌ، واجتمـع إلى عائشة وطلحة والزبير جمعٌ، وسار بعضهم إلى بعض، بمكان يقال له: الخريبة، في النصف من جمـادى الآخرة، ووقـع القتال، وعائشة راكبـةٌ الجمل المسمى: عسكر، في هودج، وقـد صار مثل القنفذ من النشاب، وتمت الهزيمة على أصحاب عائشة وطلحة والزبير.

ورمى مروانُ بن الحكم طلحـةَ بسهم، فقتلـه، وكلاهما كانا مـع عائشة.

وقيل: إنه طلب بذلك أخذ ثأر عثمان منه؛ لأنه نسبه إلى أنه أعان على قتل عثمان.

وانهزم الزبير طالباً المدينة، وقطعت على خطام الجمل أيدٍ كثيرة، وقتل ـ أيضاً ـ من الفريقين خلق كثير، ولما كثـر القتل على خطام الجمل، قال علي: اعقـروا الجمل، فضربـه رجل، فسقـط، فبقيـت عائشة في هودجها إلى الليل، فأدخلها محمد بن أبي بكر أخوها إلى البصرة، أنزلها في دار عبدالله بن خلف.

وطـاف عليٌّ على القتلى من أصحـاب الجمـل، وصلَّى عليهم،

---

(١) في الأصل: «على».

ودفنهم، ولما رأى طلحةَ قتيلاً، قال: إنا لله وإنا إليـه راجعون، لقد كنتُ أكره أن أرى قريشاً صرعى.

ثم قُتل الزبير، وأتى قاتلُـه برأسـه إلى علي، فقال علي: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بَشِّرُوا قاتِلَ الزُّبيرِ بِالنَّارِ»[1].

ثم أمر علي عائشةَ بالرجوع إلى المدينة، وأن تقرَّ في بيتها، فسارت في مستهل رجب، وشيَّعها الناس، وجهَّزها عليٌّ بما احتاجت إليه، وسَيَّر معها أولادَه مسيرة يوم، وتوجَّهت إلى مكة، وأقامت للحج تلك السنة، ثم رجعت إلى المدينة.

وقيل: كانت عدة القتلى يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف.

وسار علي إلى الكوفة، ونزلها، وانتظم لـه الأمرُ بالعراق، ومصر، واليمن، والحرمين، وخراسان، ولم يبق خارجاً عنـه إلا الشام، وفيـه معاوية، وأهلُ الشام مطيعون له، فأرسل إليهم جرير بن عبدالله البجلي؛ ليأخذ البيعة على معاوية، ويطلب منه الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار، وسار جرير إلى معاويـة، فماطله، وكـان عمرو بن العاص بفلسطين، فقدم عمرٌو على معاوية، واتفقا على قتال علي.

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ٤٢١)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
وروي عن علي موقوفـاً بلفـظ: «واللهِ ليَدخُلَنَّ قاتلُ ابنِ صفيـةَ النارَ». رواه الطيالسي في «مسنده» (١٦٣)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٠٥)، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٨٩)، عن زر بن حبيش.

* وقعة صِفِّين:

ولما قدم عمرٌو على معاوية، واتفقا على حرب عليٍّ ـ كما ذكرناه ـ، قدم جريرُ بن عبدالله البجليُّ على عليٍّ، فأعلمه بذلك، فسار علي من الكوفة إلى جهة معاوية، وسار عمرو ومعاوية من دمشق بأهل الشام إلى جهة علي، وتأنى معاويةُ في مسيره، حتى اجتمعت الجموع بصفِّين، وخرجت سنة ست وثلاثين، والأمرُ على ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين: والجيشان بصفين، ومضى المحرَّم، ولم يكن بينهم قتال، بل مراسلات يطول ذكرُها، ولم ينتظم بها أمر، ولما دخل صفر، وقع بينهما القتال فيه، وكانت بينهم وقعات كثيرة، قيل: كانت تسعين وقعة، وكان مدة مقامهم بصفين مئةً وعشرة أيام.

وكان عدد القتلى بصفين من أهل الشام خمسة وأربعين ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرين ألفاً، منهم ستة وعشرون رجلاً من أهل بدر، وكان علي قد تقدم إلى أصحابه، أن لا تقاتلوهم حتى يبدؤوا هم بالقتال، وأن لا تقتلوا مُدْبِراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، وأن لا تكشفوا عورة.

وقاتل عمار بن ياسر رضي الله عنه مع علي قتالاً عظيماً، وكان قد نيف عمره على تسعين سنة، ولم يزل يقاتل حتى استُشهد رضي الله عنه، وفي الصحيح المتفق عليه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تقتلُ عَمَّاراً الفِئَةُ الباغِيَةُ»[1].

وبعد قتل عمار رضي الله عنه انتدب عليٌّ اثني عشر ألفاً، وحمل بهم على

(١) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٢٩١٥)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عسكر معاوية، فلم يبق لأهل الشام صفٌّ إلا انتقض، ثم تقاتلوا، وكانت ليلة الجمعة، واستمر القتال إلى الصبح، وروي أن عليًّا كَبَّر تلك الليلة أربعَ مئة تكبيرة، وكانت عادته أنه كلما قتل قتيلاً، كبّر، ودام القتال إلى ضحى يوم الجمعة.

ولما رأى عمرو ذلك، قال لمعاوية: هَلُمَّ نرفع المصاحفَ على الرماح، ونقول: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، ففعلوا ذلك، ولما رأى أهل العراق ذلك، قصدوا الإجابة، فقال علي: امضوا على حقكم وصدقكم في قتال عدوكم، ثم قال: ويحكم! والله! ما رفعوها إلا خديعة ومكيدة، ثم وقع بين علي وقومه اختلاف في القول.

ولما كَفُّوا عن القتال، سألوا معاوية: لأيِّ شيء رفعت المصاحف؟ فقال: تبعثوا حكماً منكم، وحكماً منَّا، ونأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله، ثم نتبع ما اتفقا عليه، فوقعت الإجابة من الفريقين إلى ذلك.

ووقع اختلاف في القول فيمن يكون حكماً، فاستقر الحال على أن يكون أبو موسى الأشعري من جهة علي، وأخرج معاويةُ عمرَو بنَ العاص ابنِ وائل، واجتمع الحكمان عند عليّ.

وكتبوا بحضوره: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى أمير المؤمنين علي، فقال عمرو: هو أميرُكم، وأما أميرُنا، فلا، فقال الأحنف: لا تمسح اسمَ أمير المؤمنين، فقال الأشعث بن قيس: امحُ هذا الاسم، فأجاب عليٌّ، ومحاه، وقال علي: الله أكبر مشبه بنبيه، وإني ـ والله ـ لكاتبُ رسولِ الله يوم الحديبية، فكتب: محمد رسول الله، فقالوا: لستَ

برسول الله، ولكن اكتبِ اسمكَ واسم أبيك، فأمرني رسول الله ﷺ بمحوه، فقلت: لا أستطيع، فقال: «فأرني»، فأريته، فمحاه بيده، فقال لي: «إِنَّكَ ستُدْعَى إلى مثِلها، فتُجيب»[1]، فقال عمرو: سبحان الله! أشبَهَنا بالكفار ونحن مؤمنون.

وكتب الكتاب، فمنه: هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضَى عليٌّ على أهل الكوفة ومَنْ معهم، وقاضَى معاويةُ على أهل الشام ومَنْ معهم: أننا ننزل عند حكم الله وكتابه، ونحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحَكَمان في كتاب الله، وهما أبو موسى الأشعري عبدُالله بن قيس، وعمرو بن العاص، عَمِلا به، ومالم يجدا في كتاب الله، فبالسنَّة العادلة، وأخَذَ الحَكَمان من علي ومعاوية، ومن الجُنْدَين المواثيقَ: أنهما أمينان[2] على أنفسهما وأهلهما والأمة، فهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وأجَّلا القضاء إلى رمضان من هذه السنة، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك، أخراه، وكتب في يوم الأربعاء، لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يوافي علي ومعاوية، موضعَ الحكمين بِدُومة الجندل في رمضان، فإن لم يجتمعا لذلك، اجتمعا في العام المقبل بأَذْرُح[3].

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٧٦) بلفظ: «أما إن لك مثلها، ستأتيها وأنت مضطر».

(٢) في الأصل: «أمضيا».

(٣) في الأصل: «بأدراج».

ثم سار علي إلى العراق، وقدم إلى الكوفة، ولم يدخل الخوارج معه، واعتزلوا عنه.

ثم في هذه السنة بعث عليٌّ للميعاد أربع مئـة رجل، فيهم أبو موسى الأشعري، وعبدالله بن عباس؛ ليصلي بالناس، ولم يحضر علي.

وبعث معاوية عمرَو بن العاص في أربع مئة رجل، ثم جاء معاوية، واجتمعوا بِأَذْرُح، وشهـد معهم عبـدالله بن عمـر، وعبدالله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة.

والتقى الحَكَمان، فدعا عمرٌو أبا موسى الأشعري أن يجعل الأمر إلى معاوية، فأبى، وقال: لم أكن لأُوَلِّيه، وأَدَعَ المهاجرين الأولين.

ودعـا أبو موسى عَمْراً إلى أن يجعل الأمر إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب، فأبى عمرو، ثم قال عمرو: ما ترى أنت؟ فقال: أرى أن نخلع علياً ومعاوية، ونجعل الأمرَ شورى بين المسلمين، فأظهر له عمرٌو أن هذا هو الرأي، ووافقه عليه، ثم أقبلا إلى الناس، وقد اجتمعوا، فقال أبو موسى: إنَّ رأْيَنا قد اتفق على أمر، نرجو به صلاح هذه الأمـة، فقال عمرو: صَدَق، تقدَّمْ فتكلم يا أبا موسى.

فلما تقدم، لحقه عبدالله بن عباس، وقال له: ويحك! والله! إني أظن أنه خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدِّمْه قبلَك، فأنا لا آمَنُ أن يخالفك، فقال أبو موسى: إنا قد اتفقنا، فحمِـدَ الله، وأثنى عليـه، وقال: يا أيها الناس! إنا لم نرَ أصلحَ لأمر هذه الأمـة من أمرٍ قد اجتمع عليه رأيي ورأي عمرٍو، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة

الأمرَ، فيولوا منهم من أحبوا، وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولُّوا عليكم مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلاً، ثم تنحى.

وأقبل عمرٌو، فقام مقامه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلعُ صاحبه كما خلعه، وأُثبتُ صاحبي، فإنه وليُّ عثمانَ، والطالبُ بدَمِه، وأحقُّ الناس بمقامه.

فقال له أبو موسى: ما لَكَ لا وَفَّقك اللهُ غدرتَ وفجرت؟!

وركب أبو موسى، ولحق بمكةَ حياءً من الناس، وانصرف عمرو وأهلُ الشام إلى معاوية، فسلَّموا عليه بالخلافة، ومن ذلك الوقت أخذ أمرُ عليٍّ في الضعف، وأمرُ معاوية في القوة.

ولما اعتزلت الخوارجُ علياً، دعاهم إلى الحق، فامتنعوا، وقتلوا كلَّ من أرسله إليهم، وكانوا أربعة آلاف، ووعظهم، ونهاهم عن القتال، فتفرقت منهم جماعة، وبقي مع عبدالله بن وهب جماعة على ضلالتهم، وقاتلوا، فقُتلوا عن آخرهم، ولم يُقتل من أصحاب عليٍّ سوى سبعة أنفس، أَوَّلُهم: يزيد بن نُويرة، وهو ممن شهد مع رسول الله ﷺ غزوة أحد.

ولما رجع علي إلى الكوفة، حض الناس على المسير إلى قتال معاوية، فتقاعدوا، وقالوا: نستريح، ونصلح عدتنا، فاحتاج علي لذلك أن يدخل الكوفة.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين: فيها جهز معاويةُ عمرَو بن العاص

بعسكر إلى مصرَ لقتال محمـد بن أبي بكر الصـديق، فقاتلـه، فهزمهم عمرو، وقُتِل محمدُ بن أبي بكر، وأُحرِق بالنار، ودخل عمرٌو إلى مصرَ، وبايع أهلَها لمعاويةَ، ولما بلغ عائشةَ قتلُ أخيها، جزعت عليـه، وبقيت في دبر كل صلاة تدعو على معاويـةَ وعمرِو بن العاص، وضمَّت عيالَ أخيها إليها، ولما بُلِّغ علي مَقْتَلَهُ، جزع عليه، وقال: عند الله نحتسبه.

ثم بعث معاوية سراياه بالغارات على أعمال علي، فتنهب الأموال، وترجع بها إليه، وتهزم الناس، وتتابعت الغارات على بلاد عليّ رضي الله عنه، وهو مع ذلك يخطب الناس الخطبَ البليغة، ويجتهـد على الخروج إلى قتال معاوية، فيتقاعد عنه عسكره.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين والأمر كذلك.

ثم دخلت سنة أربعين: وعليٌّ بالعراق، ومعاويةُ بالشام، وله معها مصرُ، وكان عليٌّ يقنُت في الصلاة، ويدعو على معاوية، وعلى عمرو ابن العـاص، وعلى الضحاك، وعلى الوليـد بن عقبـة، وعلى الأعـور السلمي.

ومعاوية يقنت في الصلاة، ويدعو على علي، وعلى الحسن، وعلى الحسين، وعلى عبدالله بن جعفر.

وفي هذه السنـة: سَيَّر معاويـةُ بُسْـرَ[1] بنَ أَرطـاة في عسكـر إلى الحجاز، فأتى المدينةَ، وبها أبو أيوبِ الأنصـاريُّ عاملاً لعلي، فهرب،

---

(١) في الأصل: «بشر».

ولَحِقَ بعليٍّ، ودخل بُسْرٌ[1] المدينةَ، وسَفَكَ فيها الدماءَ، واستَكْرَهَ الناسَ على البيعة لمعاوية.

ثم سار إلى اليمن، فقَتَل أُلُوفاً من الناس، فهرب منه عُبَيد[2] الله بن عباس عاملُ عليٍّ باليمن، فوجد لعُبيدالله ابنين صبيين، فذبحهما، وأتى في ذلك بعظيمة.

وقد وقع في هاتين الواقعتين ـ وهما: وقعة الجمل، ووقعة صفين ـ مشاجرات بين الصحابة، وأشياء لم نذكرها؛ مَسْكاً عن الخوض في ذلك؛ فإن المَسْك عن ذكر ذلك أولى.

وسئل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن وقعة الجمل وصفين، وما كان فيهما، فقال: تلك دماء كَفَّ الله يديَّ عنها، وأنا أكره أن أغمسَ لساني فيها.

ولِعليٍّ في قتال الخوارج عجائبُ مشهورةٌ.

وفي سنة أربعين من الهجرة: اجتمع بمكة جماعة من الخوارج، فتذاكروا ما الناس فيه من الحرب والفتنة، فتعاهد ثلاثةٌ منهم على قتل: معاوية، وعلي بن أبي طالب، وعمرو بن العاص، واتفقوا على أن لا يرجع منهم أحد، إلى أن يقتل صاحبه، أو يُقتل، وهم: عبد الرحمن ابن ملجم المرادي ـ لعنه الله ـ، والبرك بن عبدالله التميمي، وعمرو بن

---

(1) في الأصل: «بشر».

(2) في الأصل: «عبد».

بكير التميمي، فقال ابن ملجم: أنا أقتل علياً، وقال البرك: أنا لمعاوية، وقال عمرو: أنا لعمرو.

وتواعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان، وقيل: إحدى وعشرين، فخرج ابن مُلْجم، فلما وصل الكوفة، أتى قَطام ابنةَ عمِّه، وكان علي ﷺ قتل أباها وأخاها يوم النهر، وكانت أجمل أهل زمانها، فخطبها عبد الرحمن بن ملجم، فقالت: لا أتزوجك حتى تعطيني ما أسألك، قال: لا تسأليني شيئاً إلا أعطيتك، قالت: ثلاثةُ آلاف، وعبدٌ، وقينةٌ، وقتلُ علي بن أبي طالب، فقال: ما سألتِ لك مهراً، إلا قتل علي، فلا تذكريه، فقالت: بلى، التمس غِرَّته، فإن أصبتَه، شفيت نفسي، ونفعك العيش معي، وإن هلكت، فما عند الله خيرٌ لك من الدنيا، فقال: قد أعطيتُك ما سألت، وخرج.

[وقال ابن جرير]:

فَلاَ مَهْرَ أَغْلَى مِنْ عَلِيٍّ وَإِنْ عَلاَ
وَلاَ فَتْكَ دُونَ فَتْكِ ابْنِ مُلْجِمِ

ثلاثة آلاف وعبد وقينة
وضرب علي بالحسام المخدم

ثم أخذ سيفاً مسموماً، وجلس قبالة الباب الذي يخرج منه علي إلى المسجد، فلما خرج علي ﷺ لصلاة الصبح، فشد عليه ابن ملجم ـ لعنه الله ـ، وضربه على قَرْنه بالسيف، فأوصله دماغه.

فقال علي ﵁ لما ضرب: لا يفوتنّكم الرجل، فشدَّ الناس على ابن ملجم، ورموه بالحجر، فضرب ساقه رجل من همدان، وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه، فصرعه، وأقبل به إلى الحسن.

ثم دعا عليٌّ ﵁ الحسن والحسين، فأوصاهما بتقوى الله، وقول الحق.

فقال رجل من القوم: ألا تعهد يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن أتركهم كما تركهم رسولُ الله ﷺ.

وبقي ﵁ الجمعة والسبت، ومات ليلة الأحد تاسع عشر رمضان، سنة أربعين، وكُفن في ثلاثة أثواب.

واختلف في موضع قبره، فقيل: دفن مما يلي قبلة المسجد بالكوفة، وقيل: عند قصر الإمارة، وقيل: حوّله ابنه الحسن إلى المدينة، ودفنه بالبقيع عند قبر زوجته فاطمة ﵄.

والأصح، وهو الذي ارتضاه ابن الأثير وغيره: أن قبره هو المشهور بالنجف، وهو الذي يزار اليوم، وعمره ثلاث وستون سنة، ومدة خلافته أربع سنين، وتسعة أشهر.

ثم إن الحسن ﵁ صلى الفجر، وصعد المنبر، فأراد الكلام، فخنقته العَبْرة، ثم نطق، فحمد الله تعالى، واحتسب عند الله مصابه، ووعظ، ثم أطرق الحسن، فبكى الناس بكاء شديداً، ثم نزل الحسن، فجرد سيفه، ودعا بابن ملجم، ثم قام إليه فضربه بالسيف، فاتقاه ابن

ملجم بيده، ثم أسرع فيه السيف، فقتله.

وقيل: لما أراد الحسنُ قتلَ ابن ملجم، قال عبدالله بن جعفر: دعوني حتى أَشفي نفسي منه، فقطع يديه ورجليه، وأحمى مسماراً حتى صار كالجمرة، ثم أكحله به، ثم إن الناس أخذوه، فدرجوه في بواري، ثم طلوها بالنفط، وأشعلوها بالنار.

هذا ما كان من ابن ملجم.

وأما ما كان من البرك التميمي: فإنه ذهب إلى معاوية، فطعنه بخنجر في أليته، وهو قائم يصلي، فأُخذ، وأُوقف بين يديه، فقال له: ويلك! من أنت؟ وما خبرك؟ فقال له: لا تقتلني؛ فإنا ثلاثة تبايعنا على قتلك، وقتل علي، وعمرو بن العاص، فاحبسني عندك، فإن كانا قُتِلا، فخلِّ سبيلي، فأمر معاوية بقتله، فقُتِل في ذلك اليوم.

وأما عمرو بن بكير التميمي: فانطلق إلى عمرو بن العاص، فوجد خارجةَ بنَ حبيبةَ صاحبَ شرطته يصلي بالناس غداة ذلك اليوم، وتخلف عمرو عن الصلاة بالناس؛ لعارض عرض له، فظن أنه عمرو، فضربه بالسيف فقتله، فأُخذ، وأُوقف بين يدي عمرو، فسأله عن خبره، فقص عليه القصة، وأخبره أن علياً ومعاوية رضي الله عنهما قد قُتِلا في هذه الليلة، فأمر به، فقُتل في الحال، ولما قُدِّم للقتل، جزع، فقيل: أتجزع من الموت، وقد قدمت على هذا الفعل؟! فقال: لا ها والله، ولكن يفوز صاحباي بقتل علي ومعاوية، ولا أفوز بقتل عمرو! فأمر عمرو بضرب عنقه وصلبه.

ولما مات علي رضي الله عنه، صلى عليه ابنه الحسن، وقيل: كان عنده

فضل من حنوط رسول الله ﷺ أوصى أن يحنط به.

* **ذكر صفاته** رضي الله عنه: كان شديد الأدمة، عظيم العينين، بَطيناً، أصلعَ، عظيمَ اللحية، كثير شعر الصدر، مائلاً إلى القِصَر، حسنَ الوجه، لا يُغير شيبته، كثير التبسم، وكان حاجبه قنبر مولاه، وصاحب شرطتـه نعثل بن قيسٍ الرباحي، وقاضيه شريحاً.

وأبناؤه من فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ: الحسن، والحسين، ومحسن، وزينب، وأم كلثوم.

ثم تزوج بعدها أُمَّ البنين بنتَ حزام الكلابية، فولِد له منها: العباس، وجعفر، وعبدالله، وعثمان، قُتِل هؤلاء الأربعة مع أخيهم الحسين.

وتزوج ليلى بنتَ مسعود بنِ خالد النهشلي التميمي، وولِد له منها: عبيدالله، وأبو بكر، قتلا مع الحسين أيضاً.

وتزوج أسماءَ بنتَ عميس، وولد له منها: محمد الأصغر، ويحيى.

وولد له من الصهباء بنتِ ربيعة الثعلبية: عمر، ورقية.

وتزوج أمامـةَ بنتَ أبي العـاص بن الربيـع بن عبد شمس بن عبـد مناف، وأمُّها زينبُ بنت رسول الله ﷺ، وولد له منها: محمد الأوسط.

وولِد له من خولةَ بنتِ جعفر الحنفية: محمدٌ الأكبرُ المعروف بابن الحنفية.

وكان له بنات من أمهاتٍ شتى، منهن: أم حسن، ورملة الكبـرى من أم سعدٍ بنتِ عروة.

ومن بناته: أم هانئ، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة.

فجميعُ بنيه المذكورون أربعة عشر، لم يعقب منهم إلا خمسة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعباس، وعمر.

* **وأما فضائل علي ومناقبه كثيرة، منها**: مشاهدُه المشهورة بين يدي رسول الله ﷺ، وأُخُوَّةُ رسول الله ﷺ له، من سبق إسلامه، وقوله ـ عليه السلام ـ: «مَنْ كُنْتَ مَوْلاَهُ، فعليٌّ مَوْلاَهُ»[1]، وقوله: «أَقْضَاكُمْ عَلِيٌّ»، والقضاء يستدعي معرفة أبواب الفقه كلها؛ بخلاف قوله: «أَفْرَضُكُمْ زَيْدٌ، وَأَقْرَؤُكُمْ أُبَيٌّ»[2].

ودخل مرةً إلى بيت المال، فوجد الذهب والفضة، فقال: يا صفراء! اصْفَرِّي، ويا بيضاءُ! ابْيَضِّي، وغُرِّي غيري، لا حاجةَ لي فيكِ.

ومناقبه أكثرُ من أن تحصر، وأشهرُ من أن تذكر رضي الله عنه.

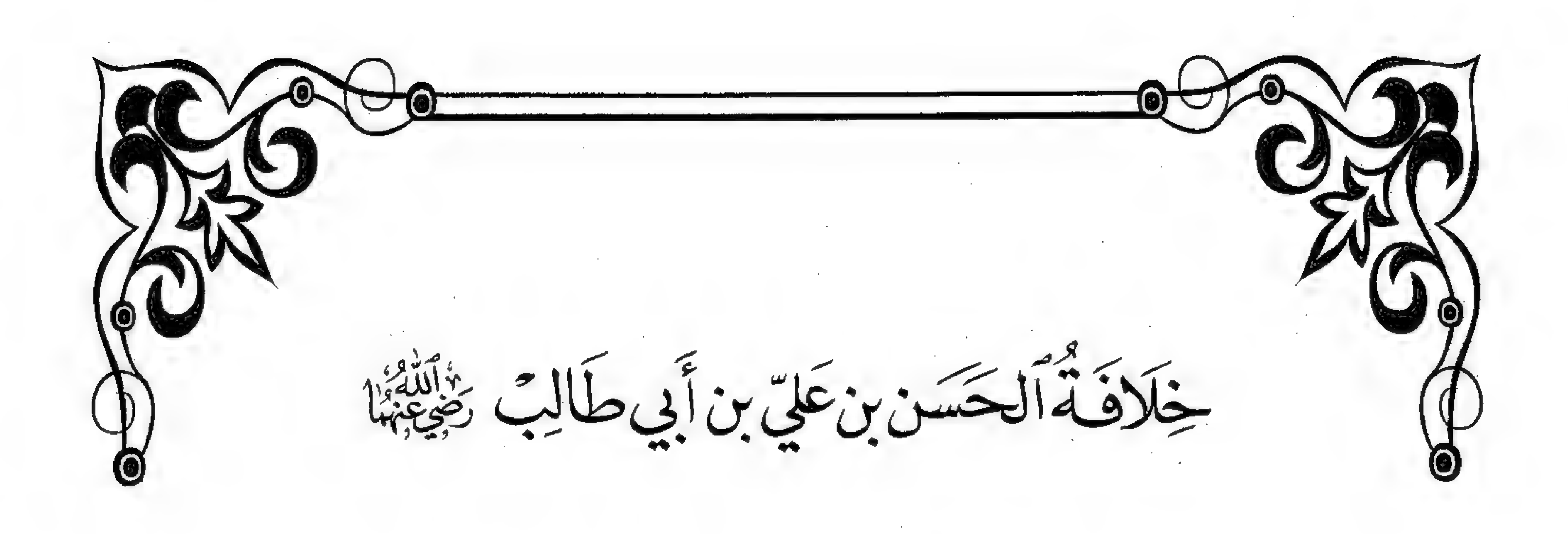
وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٣٧١٣)، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، وابن ماجه (١٢١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨١٤٥)، عن بُرَيدة بن الحصيب وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي (٣٧٩٠)، وابن ماجه (١٥٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٢٤٢)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.



خِلَافَةُ ٱلحَسَن بن عَليّ بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

هو أبو محمد الحسنُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالبِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ، القرشيُّ، الهاشميُّ، المدنيُّ، سبطُ رسول الله ﷺ وريحانتُه، وابن فاطمةَ الزهراء سيدةِ نساءِ العالمين.

وُلد رضي الله عنه في نصف رمضان، سنة ثلاث من الهجرة، سماه النبي ﷺ: الحسن، وعَقَّ عنه يوم سابعه، وحلق شعره، وأمر أن يتصدق بِزِنته فضةً، وأرضعته أم الفضل امرأةُ العباس مع ابنها قُثَمَ.

بويع بالخلافة يوم مات أبوه، وكان أشبهَ الناس برسول الله ﷺ، وكان حليماً كريماً ورِعاً، دعاه ورعُه وحلمه إلى أن ترك الدنيا والخلافةَ لله تعالى.

ولي الخلافةَ بعد قتل أبيه رضي الله عنه، وبايعه أكثرُ من أربعين ألفاً، كانوا بايعوا أباه، وبقي نحو ستة أشهر خليفةً بالحجاز واليمن والعراق وخراسان، وغير ذلك.

ثم سار إليه معاوية من الشام، وسار هو إلى معاوية، فلما تقاربا، علم أنه لن تُغلب إحدى الطائفتين، فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليمَ الأمر إليه، على أن تكون له الخلافةُ بعده، وعلى أن لا يطالب أحداً من

أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان أيام أبيه، وغير ذلك من القواعد، فأجابه معاوية إلى ما طلب، واصطلحا على ذلك، وظهرت المعجزةُ النبوية في قوله ﷺ للحسن: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1]، فسَلَّم الأمرَ إلى معاوية في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الهجرة.

وكانت مدة خلافته نحو ستة أشهر، ولما سَلَّم الأمرَ إلى معاوية، خطب، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال:

أما بعد:

فإن أَكْيَسَ الكَيْسِ التُّقى، وأحمقَ الحمقِ الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفتُ فيه أنا ومعاويةُ، إنما هو حقُّ امرئٍ كان أحقَّ به مني، وهو حقٌّ لي تركتُه لمعاوية، إرادةً لصلاح الأمة، وحَقْناً لدمائهم، وإن الله تعالى قد هداكم بأَوَّلِنا، وحقنَ دماءكم بآخرِنا، وإن هذا الأمر مدة، والدنيا دول.

وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١].

وبخلافة الحَسَن بيانُ قوله ﷺ: «الخِلافَةُ بعدي ثلاثونَ سنةً»[2]؛

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٧)، عن أبي بكْرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨١٥٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٢١)، عن سَفِينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ.

لأن أبا بكر رضي الله عنه تقلدها سنتين، وثلاثة أشهر، وعشرة أيام، وعمر رضي الله عنه عشر سنين، وستة أشهر، وثمانية أيام، وعثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وعلي رضي الله عنه أربع سنين، وتسعة أشهر، والحسن رضي الله عنه نحو ستة أشهر، فذلك ثلاثون سنة.

روى سفينةُ: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سنةً، ثم تعودُ مُلْكاً عَضوضاً»[1]، وكان آخر ولاية الحسن تمام ثلاثين سنة؛ لأن ابتداء خلافة أبي بكر رضي الله عنه في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وانتهاء خلافة الحسن في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الهجرة.

وعاش الحسن بالمدينة إلى أن مات بها مسموماً، في شهر ربيع الأول، سنة تسع وأربعين، وله سبع وأربعون سنة.

وقيل: مات ليلة السبت لثمان خلون من المحرم سنة خمسين، وصلَّى عليه سعيدُ بن العاص، ودُفِن بالبقيع، وهو أكبر من الحسين بسنة.

وتزوج الحسن كثيراً من النساء، وكان مِطْلاقاً، وكان له خمسة عشر ولداً ذكراً، وثمان بنات، وكان يشبه جده رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من رأسه إلى سُرَّته، وكان الحسين يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرته إلى قدميه.

---

(١) تقدم تخريج الشطر الأول منه، وروى الشطر الثاني: الطيالسي في «مسنده» (٢٢٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨٧٣)، عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما.

ولما بلغ معاويةَ موتُ الحسن، خرَّ ساجداً، فقال بعض الشعراء:

أَصْـبَحَ اليَـوْمَ ابْـنُ هِنْـدٍ شَـامِتاً
ظَـاهِرَ النَّخْـوَةِ إِذْ مَـاتَ الحَـسَنْ

يـا بْـنَ هِنْـدٍ إِنْ تَـذُقْ كَـأْسَ الـرَّدَى
تَـكُ فـي الـدَّهْرِ كَـشَيْءٍ لَـمْ يَكُـنْ

لَـسْتَ بِالبَـاقِي فَـلا تَـشْمَتْ بِـهِ
كُـلُّ حَـيٍّ لِلمَنايـا مُـرْتَهَنْ

ومن فضائل الحسن: في الصحيح قول النبي ﷺ: «الحسنُ والحسينُ سَيِّدا شَباب أَهْلِ الجَنَّةِ، وَأَبُوهُما خَيْرٌ مِنْهُمَا»[1].

وروي: أنه قال عن الحسن: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، سَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[2].

وروي: أنه مرَّ بالحسن والحسين وهما يلعبان، فطأطأ لهما عنقَه، وحملهما، وقال: «نِعْمَ المَطِيَّةُ مَطِيَّتُهُمَا، وَنِعْمَ الرَّاكِبَانِ هُمَا»[3].

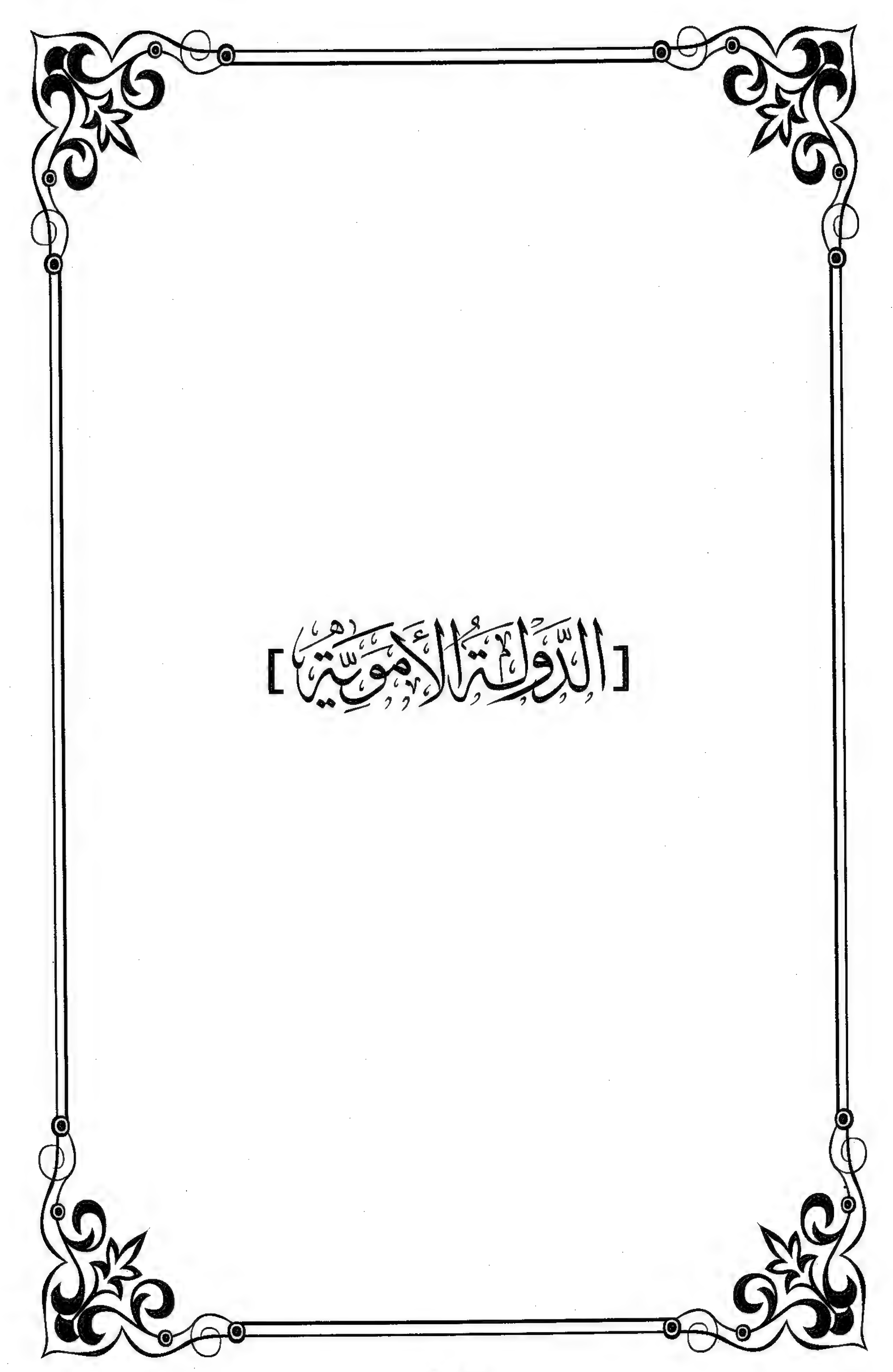
❒ ❒ ❒

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه (١١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤٧٨٠)، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٦٠٨)، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٦٧٧)، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.



[الدولة الأموية]





[الدولة الأموية]

خلفاء بني أمية

وهم أربعة عشر خليفة: أولهم: معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم: مروان الجعدي، وكان مدة ملكهم نيفاً وتسعين سنة، وهي ألف شهر تقريباً.

قال القاضي جمال الدين بن واصل ـ رحمه الله ـ: إن ابن الأثير قال في «تاريخه»: إنه لَمَّا سار الحسن من الكوفة، عرض له رجل، فقال: يا مسوِّدَ وجوهِ المؤمنين، فقال: لا تعذِلْني؛ فإن رسولَ الله ﷺ أُرِيَ في منامه: أن بني أمية يَنْزون على منبره رجلاً فرجلاً، فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١ ـ ٣]، يملكها بعد[ك] بنو أمية[1].

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤٧٩٦).

وانظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٣/ ٢٧٤)، «والمختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ١٢٧).

ولم يكن على أحـد من خلفاء بني أمية لقب معروف، إلا أن بعض الرواة ذكر أنهم كانت لهم ألقاب، ونحن نذكر لقب كلٍّ واحد منهم، عند ابتداء ترجمته، كما نفعله في خلفاء بني العباس، وخلفاء الدولة العلوية الفاطمية؛ ليطلع على ذلك.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الناصر لدين الله معاوية بن أبي سفيان

هو أبو عبد الرحمن، معاويةُ بن أبي سفيانَ صخرِ بنِ حربِ بنِ أميةَ ابنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ منافٍ، يجتمع هـو والنبي ﷺ في عبد منافِ بنِ قصيٍّ، القرشيُّ، وأمُّه: هندُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ عبدِ شمس، يجتمع أبوه وأمه في عبدِ شمس.

أسلم هو، وأبوه أبو سفيان، وأخوه يزيد بن أبي سفيان، وأمـه هند في فتح مكة.

وكان معاوية يقول: إنه أسلم يومَ الحديبية، فكتم إسلامه من أبيه وأمه.

شهد مع رسول الله ﷺ حُنَيناً، وأعطاه من غنائم هوازن مئة بعير، وأربعين أوقية، وكان هو وأبوه من المؤلَّفة قلوبهم، ثم حَسُنَ إسلامُهما، وكان أحدَ الكُتَّاب لرسول الله ﷺ.

ولما بَعَث أبو بكر الجيوش إلى الشام، سار معاوية مع أخيه يزيد،

فلما مات يزيد، استخلفه على عمله بالشام، وهي دمشق، وأقره عمرُ ﵁ مكانَه، فأقام أميراً على الشام مدة خلافـة عمر، ثم أَمَّره عثمان، وولي الخلافةَ بعد ذلك عشرين سنة.

بويع له البيعة التامة لما خلع الحسنُ نفسَه، وسلَّم الأمرَ إليه.

قال محمد بن سعد: بقي معاويةُ أميراً عشرين سنة، وخليفةً عشرين سنة ـ تقريباً ـ.

وقال الوليد بن مسلم: كانت خلافته تسع عشرة سنة ونصفاً.

وهو من الموصوفين بالدهاء والحِلْم، وهو أولُ من قامت له الرجال من الخلفاء، وأول من قِيْدت بين يديه الجنائب، وأول من اتخذ المقاصر في الجوامع، وأول ما عمر مقصورة جامع دمشق، وهو أول من أقام على رأسه حرساً، وأول من اتخذ الخصيان في الإسلام، وأول من بلغ درجات المنبر خمس عشرة درجة، وأول من صنـع المنبر في المسجد الحرام، وزاد في منبر سيدنا رسول الله ﷺ بعد أن أراد نقله، فأتاه أبو هريرة وجابر، وقالا: ننشدك الله أن لا تفعل، فأجابهما، وهـو أول من علق الستور، واتخذ الحرس وأرباب الشرط، واستخدم الحجاب، وركب الهماليج، ولبس الخـز والوشـي الخفيـف، وعمـل الطراز بمصر واليمن والرهـا والإسكندرية، واقتنى الضياع، واستكتب النصارى، وجلس على السرير والناسُ تحته، وأمر بهدايا النيروز.

وحج بالناس سنة أربع وأربعين، وسنة إحدى وخمسين، واستخلف في بقية خلافته من يحج، وكان يقول: أنا أول الملوك.

وكان معاوية كثير الحلم والعفو والكرم، وكان يجيز الحسن والحسين في كل سنة، لكل واحد ألف ألف درهم، وكذلك عبدالله بن جعفر، وعبدالله بن عباس، لكل واحد ألف ألف درهم.

ودخل عليه الحسن يوماً، وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعده تحت رجليه، وقال له: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة تزعم أني لستُ أهلاً للخلافة؟ فقال الحسن: أوعجبٌ ما قالت؟ قال: كل العجب، قال: أعجبُ من هذا جلوسي عندَ رجليك، فاستحيا معاوية، واستوى جالساً.

ثم قال: أقسمتُ عليك أبا محمد إلاَّ أخبرتني كم عليك من الدَّين؟ قال: مئة ألف درهم، فقال: يا غلام! أعط أبا محمد ثلاث مئة ألف درهم: مئة ألف يقضي بها دينه، ومئة ألف يفرقها على مواليه، ومئة ألف يستعين بها على نوائبه، وأنجزها له الساعة، فأخذها الحسن، وانصرف.

فقال يزيد: يا أبت! ما رأيتُ كاليوم، استقبلَكَ بما تكره، وأعطيته هذا العطاء! فقال: يا بُني! وما نريد؟ إن الحق ـ واللهِ ـ لهم، وحقهم، فإذا أتوك، فأجزل لهم العطية.

وروي: أن معاوية حجَّ في سنة خمسين، وأمر بحمل منبر رسول الله ﷺ إلى الشام، فلما حُمل، كسفت الشمس، وظهرت النجوم بالنهار، فلما رأى ذلك، خاف، وجزع، وأمر بردِّه إلى موضعه، وزاد فيه ستَّ درجات.

وله أخبار كثيرة في السخاء والحلم.

وقدم عليه جماعة من الرجال والنساء في أيام خلافته، ممن استطال عليه قبل الخلافة، فيذكرهم بما وقع منهم، فيعتذرون إليه، فيعاملهم بالحلم، ويجزل لهم العطاء.

ولما أراد أن يبايع لابنه يزيد، أرسل إلى زياد يستشيره في ذلك، ويأمره بأخذ البيعة على أهل العراق، فكتب إليه زياد: كتبتَ إليَّ تأمرني أن أدعو أشراف الكوفة وأهل البصرة إلى بيعة يزيد بولاية العهد من بعدك، فما تقول الناس في يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغات، ويتجاهر بشرب الخمر، واتخاذ المعازف، وفي الناس الحسينُ بن علي بن أبي طالب، وعبدُ الرحمن بن أبي بكر، وعبدُالله ابن عمر، وعبدُالله بن العباس، وعبدُالله بن الزبير، العابدون الزاهدون المتواضعون لله، الفقهاءُ في دين الله، ولكن إن تخلَّق يزيدُ بأخلاق هؤلاء القوم، يوشك أن يُمَوَّهَ أمرُه على الناس.

فغضب معاوية [وقال]: ويلي على ابن سمية، والله! لأَرُدَّنَّه إلى أبيه وأمِّه البغيِّ.

فتوفي زياد بالكوفة سنة ثلاث وخمسين.

ثم إن معاوية بعث لعبدالله بن عمر بمئة ألف درهم، وذكر له بيعة يزيد، فقال: أراد معاويةُ أن أبيع ديني، فهو إذن عندي رخيص، فامتنع من ذلك.

ثم كتب معاوية إلى عماله أن يوفدوا له الوفود من الأمصار، فحضر

إليه خلقٌ، فمنهم من أطاع، ومنهم من امتنـع، ولـم يزل معاوية يداري الأمر، حتى بايعه أكثرُ الناس بالعراق والشام، ثم سار إلى الحجـاز في ألف فارس، فلما دنا من المدينـة، لقيه الحسين بن علي، وابنُ الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وابن عمر رضي الله عنهم، فلما نظروه، قالوا: لا مرحباً، ولا سهلاً، وأقبلوا معه، لا يلتفت إليهم، وخرجوا إلى مكـة، وأقاموا بها، وخطب معاوية بالمدينة، فذكر يزيد، ومدحه، ثم دخل على عائشة، فوعظته، لما بلغها عنه من ذكر الحسين وأصحابه، وتهديدهم بالقتل.

ثم خرج إلى مكة، فلما قضى نسكه، وحمل أثقاله، وقرب مسيره، أحضرهم معاوية، وقال لهم: قد علمتم سيرتي فيكم، وصلتي لأرحامكم، ويزيدُ أخـوكم، وابنُ عمكم، وقـد أردتُ أن تقدمـوه باسم الخلافـة، وتكونون أنتم تعزلون، وتولون، وتَجْبُون المال، وتقسمونه، لا يعارضكم في شيء من ذلك، فسكتوا، فقال: ألا تجيبـون؟ - مرتين -، فأجابـوه بجواب لم يرضَـه، قال: إني قـد أحببت أن أخبركم أنـه قـد أحذر من أعذر[1]، إني كنت أخطب، فيقوم إلي القائم منكم، فيكذبني على رؤوس الأشهاد، فأحمل ذلك، وأصفح، وإني قائم بمقالة، وأُقسم بالله! لئن ردَّ عليَّ أحد منكم كلمـةً في مثل هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها، حتى يسبقها السيف إلى رأسه.

ثم دعا بصاحـب حرسه بحضرتهم، فقال لـه: أقم على رأس كلِّ

---

(١) في الأصل: «أحذر».

رجل من هؤلاء رجلين، مع كل واحد منهما سيف، فإن ذهب أحد منهم يردُّ عليَّ كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفيهما.

وخرجوا معه حتى رقا المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن هؤلاء الرهط سادة الناس وخيارهم، لا يُقضى أمرٌ دونَهم، وإنهم قد رجعوا وبايعوا ليزيد، فبايِعوا على اسم الله، فبايع الناس، ثم ركب معاوية، وانصرف إلى المدينة، فلقي الناسُ أولئك النفرَ، فقالوا لهم: زعمتم أنكم لا تبايعون، فلما أُرضيتم وأُعطيتم، بايعتم، قالوا: والله! ما فعلنا، قالوا: فما منعكم أن تردُّوا على الرجل؟ قالوا: كادَنا، وخِفْنا القتل.

وبايعه أهل المدينة، ثم انصرف إلى الشام، فأقام بها حتى حضره الموت.

وأنشد معاوية وقد تجلَّدَ للعائدين في مرضه:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ
أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا
أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ

وكان يزيدُ عند موت أبيه غائباً بقرية حوارين من عمل حمص، وأحضر معاويةُ الضحَّاكَ، ومسلِمَ بنَ عقبة، وحَمَّلهما رسالةً لابنه يوصيه بالعدل والإحسان للرعية، خصوصاً الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وحذره من ابن الزبير.

ثم إنه أوصى أن يكفَّن في قميص كان رسولُ الله ﷺ كساه إياه، وأن يُجعل مما يلي جسدَه، وكان عنده قلامةُ أظفارِ رسول الله ﷺ، فأوصى أن تُسحق، وتُجعل في عينيه وفمـه، وقال: افعلوا ذلك، وخَلُّوا بيني وبينَ أرحم الراحمين، ثم قضى نَحْبَهُ.

وكانت وفاته في النصف من رجب، **سنة ستين من الهجرة**، وعمره ثمان وسبعون سنة، وقيل: ستة وثمانون سنة، وقيل: غير ذلك، وصلى عليه الضحاك، ودُفن بمقبرة دمشق، وكان ابنه غائباً ـ كما تقدم ـ، فأرسلوا إليه البريد، فلم يدركه إلا وقد مات، فصلى على قبره.

وكان معاوية أبيضَ اللون، جميلاً، وروي: أنه قال: ما زلتُ أطمع بالخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: «إِنْ وُلِّيتَ فَأَحْسِنْ»[1].

وروي عن عبد الرحمن بن أبي عميرة الصحابي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال لمعاوية: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِياً مَهْدِيّاً»[2].

وفي أيامه في **سنة ثلاث وأربعين** توفي عمرو بن العاص.

وفي **سنة أربـع وأربعين** توفيـت أم حبيبـة بنـتُ أبي سفيـان زوجُ النبي ﷺ.

وفي **سنة خمسين** توفي دِحْية الكلبي المنسوبُ إلى كلب بن وبـرة،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٣٨٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٨٤٢)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢١٦)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٦).

قال النبيَّ ﷺ: «أَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِجِبْرِيلَ دِحْيَةُ الْكَلْبِـيُّ»[1].

وفي أيامه ـ أيضاً ـ توفيت عائشة رضي الله عنها في سنة ثمان وخمسين.

وتوفي أبو هريرة رضي الله عنه في سنة تسع وخمسين.

أولاده: يزيد، وعبد الرحمن، وعبدالله، وهند، ورملة، وصفية، وعائشة.

كاتبه: عبدُالله بن أوس.

قاضيه: فضَالةُ بن عبيد الأنصاري.

وطبيبه: زيدٌ مولاه، ثم صفوانُ مولاه.

نقشُ خاتمه: لكلِّ عملٍ ثواب، وقيل: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله وحده.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة يزيدَ بنِ معاويةَ، ولقَّبَ نفسَه: المستنصر على أهل الزيغ

هو يزيدُ بنُ معاويـة بن أبي سفيانَ بنِ حربٍ، مولده في سنة خمس

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٢٥٠)، عن ابن شهاب الزهـري مرسلاً. وروى مسلمٌ نحوه (١٦٧) مرفوعاً عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وعشرين، وأمه ميسونُ بنتُ بَحْدَلٍ الكلبيةُ، أقام يزيدُ معها في البادية، وتعلم الفصاحة ونظم الشعر هناك في بادية بني كلب، وكان سبب إرساله مع أمه هناك: أن معاوية سمع ميسون تنشد هذه الأبيات، وهي:

لَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وَبَيْتٌ تَخْفُقُ الأَرْيَاحُ فِيهِ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ

وَبَكْرٌ يَتْبَعُ الأَظْعَانَ صَعْبٌ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفِ

وَكَلْبٌ يَنْبَحُ الأَضْيَافَ دُونِي
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هِرٍّ أَلُوفِ

وَخِرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٌ[1]
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَلِيفِ

فقال معاوية: ما رضيتِ يا ابنةَ بحدل، حتى جعلْتِني علجاً عليفاً؟! الحقي بأهلك، فمضت إلى بادية كلب، ويزيدُ معها.

بويع له بعد وفاة والده بيعة الولاية، وقد كان عقد له ولاية العهد

(١) في الأصل: «ثقيف».

ـ كما تقدم ـ، ولما أفضى الأمر إليه، دخل منزله، فلم يظهر للناس ثلاثة أيام، فاجتمع ببابه أشراف العرب، ووفود البلدان، ليعزوه بأبيه، ويهنوه بالخلافة، فلما كان اليوم الرابع، خرج وهو أشعثُ أغبرُ، وصَعِدَ المنبرَ، فحمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان حبلاً من حبال الله، أمدَّه الله ما شاء أن يمدَّه، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دونَ مَنْ قبله، وخيراً ممن بعده، إن يغفر الله له، فهو أهلُه، وإن يعذبه، فبذنبه، وقد وليت الأمرَ بعده، وإذا أراد الله شيئاً، كان، فاذكروا الله، واستغفروه، ثم نزل، ودخل منزله، وأذن للناس، فدخلوا عليه، وقاموا يعزونه ويهنئونه بالخلافة، وأمر لكلِّ واحد بمال على قدره.

ودخل عليه عبدُ الملك بن مروان يوماً، فقال: يا أمير المؤمنين! أُرَيضةٌ لك إلى جانب أرض لي، ولي فيها سَعَة، فأَقطعنيها، قال: يا عبد الملك! إنه لا يتعاظمني كبير، ولا أُخْدَع عن صغير، أخبرني عنها، وإلا سألتُ غيرك، قال: يا أمير المؤمنين! ما بالحجاز مالٌ[1] أعظمُ منه قدراً، قال: قد أقطعتك ذلك، فشكره عبد الملك، ودعا له، فلما ولَّى، قال يزيد: الناس يزعمون أن هذا خليفة، فإن صدقوا، فقد صانعناه، وإن كذبوا، فقد وصلناه.

وكان يزيد صاحبَ طُرُد وجوارح، وكلاب وقرود، تنادمه على الشراب، وفي أيامه استُعملت الملاهي، وظهر شربُ الشراب والسماع.

---

(١) في الأصل: «مالاً».

وكان له قرد يسمَّى: أبا[1] القيس، وكان يُحضِرُه مجلسَ منادمته، ويطرح له مُتَّكأً، وكان إذا رآه، قال: شيخ من بني إسرائيل، مسخه الله قرداً، وربما وثب القرد، فقعد على عاتقه، وربما غبَّ معه في كأسه.

وربما اجتمع الناس لركوب يزيد، فيقول: قد بدا لي في الركوب، ولكن يركب أبو قيس، فيركب القرد، ويمر على أهل الشام، فيومئ لهم بالسلام، كما يفعل يزيد.

ويزيدُ أولُ من جمع الشراب والغناء، وكان يُنْبَذُ له من عسل الطائف، وزبيبها، ويفتق له بالمسك، وكان يلعب بالكلاب، ويلبس المصبَّغات، ويتجاهر بشرب الخمر.

وروي: أن أباه أنكر عليه شربَ الخمر، فأنشد:

أَمِنْ شَرْبَةٍ مِنْ مَاءِ كَرْمٍ شَرِبْتُهَا
غَضِبْتَ عَلَيَّ الآن طَابَ لِيَ السُّكْرُ
سَأَشْرَبُ فَاغْضَبْ لاَ رَضِيتَ كِلاَهُمَا
حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِي عُقُوقُكَ وَالخَمْرُ

ولما مات القرد، كفَّنه ودفنه، وأمر أهل الشام، فدخلوا عليه وعزَّوه فيه.

وذُكِر في قُبح سيرة يزيد وذمِّها، ما اتفق في أيامه من قتل الحسين

---

(١) في الأصل: «أبو».

ابن علي رضي الله عنهما، وقَتْلِ من صَحِبَهُ مِنْ أهلِهِ، وسَبْيِ حَرِيمِـهِ، وحَمْلِ رَأْسِهِ الكريمةِ على العُود، والطوافِ بها، ووضعِها بين يديه.

وسببُ قتل الحسين رضي الله عنه: أنـه لما مات معاوية رضي الله عنه، أرسل أهلُ الكوفة إلى الحسين رضي الله عنه: إنّـا قد حَبَسْنا أنفسَنا على بيعتك، ونحن نموتُ دونَك، ولسنا نحضُر جمعةً ولا جماعةً بسببك.

وطولب الحسين بالبيعة ليزيد بالمدينة، فسام التأخر، وخرج يتمادى بين مواليه، ولحق بمكة، وأرسل بابن عمه مسلمِ بنِ عقيل، وقال: سـر إلى أهل الكوفة، فإن كان حقاً ما كتبوا به، فأرسل عَرِّفني حتى ألحقَ بك.

فخرج مسلم من مكـة في النصـف من شهر رمضـان، حتى قـدم المدينة، فودع القبر الشريف، وقدم الكوفـة لخمس خلون من شوال، فلما شاع قدومه، بايعه من أهل الكوفـة اثنا عشر ألفاً، وقيل: ثمانية عشر ألف رجل، فكتب مسلم بن عقيل بالخبر إلى الحسين، وسأله القـدوم، فلما هم الحسين بالخروج إلى العراق، أتاه ابن عباس، ونصحه، وأمره بعدم الخروج، فلم يقبل.

واتصل الخبر بيزيد بن معاوية، فكتب إلى عبيدالله بن زياد بولاية الكوفة، فخرج ابن زياد من البصرة مسرعاً، حتى قدم الكوفة، فدخلها في أهله وحشمه، وظفر بمسلم، فضرب عنقه، وأمر بجثته، فصُلبت، وحُملت رأسـه إلى دمشق، وهو أول قتيل صُلبت جثته من بني هاشم، وأولُ رأس حُمل من رؤوسهم إلى دمشق.

ولما وصل الحسين ﷺ إلى القادسية، أُخبر بقتل مسلم بن عقيل، فهمّ بالرجوع، فلم يطعه إخوة مسلم، وقالوا: والله! لا نرجع حتى نصيب بثأرنا، أو نُقتل كلُّنا، فقال الحسين ﷺ: لا خير في الحياة بعدَكم، ثم سار حتى لقي خيل عبيدالله بن زياد، وقد غدا إلى كربلاء، ومعه خمس مئة فارس من أهل بيته، ونحو مئة رجل، فلما كثرت العساكر على الحسين، أيقن أنه لا[1] محيص له، فقال: اللهمَّ احكمْ بيننا وبين قومٍ دَعَونا لينصرونا، ثم هم يقتلونا، اللهمَّ اشهدْ، فلم يزل يقاتل حتى قُتل ﷺ، وقاتل قاتِلَه، وكان متولي قتله رجل من مذحج، فاحتز رأسَه الكريمة، وانطلق بها إلى عبيدالله بن زياد، وهو يقول:

أَوْقِرْ رِكَابِي فِضَّةً وَذَهَبَا
أَنَا قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحَجَّبَا

قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أُمّاً وَأَبَاً
وَخَيْرَهُمْ إِذْ يَنْسُبُونَ النَّسَبَا

وأتى ذلك الرجلُ البائس بالرأس الكريمة إلى داره، فوضعها، وأكفأ عليها إناء، ونام في فراشه، فقالت له زوجته: ما الذي أتيتَ به؟ قال: أتيتك بعزِّ الأبد، وفخر الدهر، أتيتُك برأس الحسين بن علي، فقالت له: حسبُك الله! لقد خسرتَ الدنيا والآخرة، تأتي الناسُ بالذهب

---

(١) في الأصل: «لما».

والفضة، وتأتيني برأس ابنِ بنتِ رسول الله ﷺ؟! لا جمعتْ رأسي ورأسَك مخدةٌ أبداً.

وبعث ابن زياد بالرأس الكريمة إلى يزيدَ بن معاوية، مع ذلك الرجل المذحجي، فدخل على يزيد، وعنده أبو بريرة الأسلميُّ، فوضع الرأسَ الشريفةَ بين يديه، فجعل يزيدُ ينكث ثنايا الحسين رضي الله عنه بقضيب كان في يده، ويقول:

نُفَلِّقُ هَاماً مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ
عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

فقال له أبو بريرة: ارفعْ قضيبك، فوالله! لربما رأيتُ فا رسولِ الله ﷺ على فيه وهو يقبِّله.

وفي رواية: أنه قال له: ثكلتك أمُّك يا يزيدُ! أتنكثُ ثنايا طالما قَبَّلها رسولُ الله ﷺ؟!

وروي: أن الفاعل لذلك عبيدالله بن زياد لما جاء إليه رأس الحسين، جعل يقرع فم الحسين بقضيب في يده، فقال له زيدُ بنُ أرقم: ارفعْ هذا القضيبَ، فوالذي لا إله غيرُه! لقد رأيتُ شفتَي رسولِ الله ﷺ على هاتين الشفتين، ثم بكى.

وبعث ابن زياد بالرأس، وبالنساء والأطفال إلى يزيد بن معاوية، فوضع يزيد رأس الحسين بين يديه، واستحضر النساء والأطفال، ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم، وأن يبعث أميناً معهم يوصلهم

إلى المدينة، فجهزهم إلى المدينة.

وقُتل الحسين ﷺ يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين بكربلاء، وقُتل معه جماعـة من إخوته وأولاده، وأولاد أخيه الحسن، وأولاد أعمامه: عقيل، وجعفر.

ومات الحسين وهو ابن خمس وخمسين سنة، ووُجد به حين قُتل ثلاثة وثلاثون طعنة، وقُتل معه من الأنصار أربعة.

واختُلف في موضع رأس الحسين، فقيل: جهز إلى المدينة، ودفن عند أمه.

وقيل: دفن عند باب الفراديس.

وقيل: إن خلفاء مصر نقلوا من عسقلان رأساً إلى القاهرة، ودفنوه بها، وبنوا له مشهداً معروفاً بمشهد الحسين.

ولما اشتُهر جورُ يزيدَ وظلمُـه، وقتلُ آل الرسول، والتجاهرُ بشرب الخمور، اجتمع أهل المدينـة على إخراج عامله عثمان بن محمد بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم، وسائر بني أمية، بإشارة ابن الزبير، فلما بلغ ذلك يزيد، سيَّر الجيوشَ إلى أهل المدينة من الشام، وعليهم مسلم بن عقبة المزني، فانتهبَ المدينةَ، وقتـل أهلَها، فبايعوه أنهم عبيدٌ ليزيد، وسمى المدينة: تَلْبَة، وقد سماها رسول الله ﷺ: طَيْبـة، فسُمِّي مسلمٌ هذا: مجرم، وكانت وقعة عظيمة في الموضع المعروف بالحرّة، قُتل فيها خلائقُ من بني هاشم والأنصار وغيرِهم، وبضع وسبعون رجلاً من

سائر قريش، ومثلهم من الأنصار، وأربعة آلاف من سائر الناس.

ثم بايع مسلمٌ الناسَ على أنهم عبيـدٌ ليزيد ـ كما تقدم ـ، فمن لم يبايـعْ، أَمَرَ فيه بالسيف، غيـر علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعلي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب.

ثم خرج مسلم عن المدينة يريد مكة في جيوش أهل الشام، وانتهى الجيش إلى قديد، فمات مسلم بن عقبة هناك، فاستخلف على الجيش الحصين بن نمير، فسار الحصين بالجيش، فأتى مكـة، لأربع بقين من المحرم سنة أربع وستين.

*** ذكر حصار عبدالله بن الزبير:**

ولما قدم الحصين مكـة، حاصر عبدالله بن الزبيـر أربعين يومـاً، وعاذ ابنُ الزبيـر بالبيـت الحرام، وقـد سمَّى نفسَه بالعائـذ بالله، واشتُهر بهذا الاسم، ونصب الحصينُ المناجيق والعـرادات على مكـة والمسجد الحرام من الجبال والفجاج، وابنُ الزبير في المسجد، فتواترت أحجار المنجنيق والعـرادات على البيت، ورُمي مـع الأحجـار بالنار والنفط، ومشاق الكتان، وغير ذلك، وانهدمت الكعبة، واحترقت، ووقعت صاعقة، فأحرقت من أصحاب المناجيق أحدَ عشر رجلاً، وذلك في يوم السبت، لثلاث خلون من ربيع الأول من هذه السنة، قبل وفاة يزيد بأحد عشر يوماً.

وقد اشتد الأمر على أهل مكـةَ وابنِ الزبيـر، ولـمـا علم الحصينُ بموت يزيد، قال لعبدالله بن الزبير: من الرأي أن تدع دمـاء القتلى بيننا وبينكم، وأقبِـلْ لأبايعك، واقـدم إلى الشام، فامتنـع عبدالله بن الزبير من

ذلك، فارتحل الحصين راجعاً إلى الشـام، ثم ندم ابن الزبير على عدم الموافقة، وسار مع الحصين مَنْ كان بالمدينة من بني أمية، وقدموا الشام.

وليزيد أخبار عجيبة، وسير ذميمة، وكانت وفاته بحوارين من عمل حمص، لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة أربع وستين، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافتـه ثلاث سنين، وثمانية أشهر، وكان آدَمَ، جعداً، أحور العين، بوجهـه آثارُ جُدَري، حسنَ اللحية خفيفَها، طويلاً، وخلّف عدة بنين وبنات، والله أعلم.

* * *

خلافة الراجعِ إلى الله معاوية بنِ يزيدَ بنِ معاوية رضي الله عنه

هو أبـو ليلى، معاويـةُ بنُ يزيدَ بنِ معاويـةَ بنِ أبي سفيان، وهـذه الكنية للمستضعف من العرب، أمـه أمُّ هاشم، وقيل: أم خالد بنت أبي هاشم.

وكان رضي الله عنه آدمَ اللون كما نقل [. . . .][1]، ربعة، نحيفاً، استخلفه أبوه عند وفاته في رابع عشر ربيع الأول، **سنة أربع وستين**، وعمره إحدى وعشرون سنة، ولما ولي، أقام شهرين والياً، وهو محجوب لا يُرى.

ثم خرج بعد ذلك، فحمـد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إنْ كانت الخلافة لمعاوية وعقبه وأهلـه، فلقد نالوا منها سَعَةً ودنيا فيما تقدم، وإن كانت لآل علي بن أبي طالب، فلقد كفى بآل معاويـة تباراً،

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل.

والله! لا تقلَّدْتُ أمراً بين اثنين أبداً، ثم لم يلبث أن مات بعـد أيام ـ رحمه الله، ورضي عنه ـ.

ولما حضرته الوفاة، اجتمع إليه مواليه، فقيل: اعهدْ إلى من رأيت من أهل بيتك، فجمع الناس، وقال: قد ضعفتُ عن أمركم، ولم أجد مثـلَ عمرَ بنِ الخطاب لأستخلفـه، ولا مثل أهل الشورى، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا مَنْ أحببتم.

وقال: والله! ماذقت حلاوة خلافتكم، فكيف أتقلد وِزْرَها؟ اللهمَّ إني بريء منهـا، مُتخلٍّ عنهـا، ثم دخل منزلـه، وتغيَّب فيـه حتى مات ـ رحمه الله ـ، ودُفِن بدمشق إلى جانب أبيـه، وصلَّى عليه الوليدُ بن عتبةَ ابنِ أبي سفيان ليكون الأمر له من بعده، فلما كبر الثانيةَ، طُعِن، فسقط ميتـاً قبل تمـام الصـلاة، وزال الأمر عن بني حرب، فلم يكن فيهم من يرومها، وصلَّى عليه مروان بن الحكم.

ولم يكن لمعاوية هذا عَقِبٌ، وكانت خلافته ثلاثة أشهر، وقيل: أربعين يوماً، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة عائذ بيت الله عبدالله بن الزبير

لما مات يزيد بن معاويـة، بايع الناسُ بمكة عبدَالله بن الزبير، وكان مروان بن الحكم بالمدينـة، فقصد المسيرَ إلى عبدالله بن الزبير ومبايعتَه،

ثم توجه مع من توجَّه من بني أمية إلى الشام.

وقيل: إن ابن الزبير كتب إلى عامله بالمدينة أن لا يترك بها من بني أمية أحداً.

ولو سار ابن الزبير مع الحصين إلى الشام، أو صانعَ بني أميةَ ومروانَ، لاستقرّ أمره، ولكن لا مردّ لما قدّره الله تعالى.

ولما بويع عبدُالله بن الزبير بمكة، وكان عبيدالله بن زياد بالبصرة، فهرب إلى الشام، وبايع أهلُ البصرة ابنَ الزبير، واجتمعت له العراقُ والحجاز واليمن، وبَعَث إلى مصر، فبايعه أهلُها، وبايع له في الشام سراً الضحّاكُ بن قيس، وبايع له بحمص النعمانُ بن بشير الأنصاريُّ، وبايع له بقنسرين زُفَرُ بن الحارث الكلابي، وكاد يتمُّ له الأمر بالكلِّية.

وكان عبدالله بن الزبير شجاعاً، كثير العبادة، وكان به البخل، وضعفُ الرأي.

ثم أرسل ابن الزبير المختارَ بن عُبيد إلى الكوفة؛ ليستخرج له من أهلها جنداً، فنزل ناحية منها، وانضاف إليه جماعةٌ من أهلها، وابتنى لنفسه داراً، واتخذ بستاناً، أنفق عليه أموالاً عظيمة، أخرجها من بيت مال المسلمين، وفرّق الأموال على الناس تفرقة واسعة، وكتب إلى ابن الزبير أن يعتد له بما أنفق من بيت المال، فأبى ابن الزبير ذلك عليه، فخلع المختارُ طاعتَه، وجحد بيعتَه، وكتب إلى عليٍّ بن الحسين يعرفه أنه يبايعه، ويبايع له الناس، ويظهر دعوته، فأبى عليُّ بن الحسين قبولَ ذلك.

فكتب المختار إلى محمد بن الحنفية في ذلك، فاستشار ابنَ عباس، فقال: لا تفعل، فأطاعه.

واشتد أمرُ المختار بالكوفة، واتبع قتلَةَ الحسين، فقتلهم، وقتل شِمْرَ بنَ ذي جَوْشَن الذي تولى قتلَ الحسين، ثم قتل عمرَ بنَ سعدِ بنِ أبي وقاص صاحبَ الجيش الذين[1] قتلوا الحسين، وهو الذي أمر أن يُداس صدرُ الحسين وظهرُه بالخيل، ثم أرسل الجنود لقتال عبيدالله بن زياد، وكان قد استولى على الموصل، وقدم على الجيش إبراهيم بن الأشتر النخعي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وهُزمت أصحاب ابن زياد، وقُتل عبيدالله بن زياد، قتله إبراهيم بن الأشتر في المعركة، وأخذ رأسه، وأحرق جثته، وانتقم الله للحسين بالمختار، وإنْ لم تكن نيةُ المختار جميلة، فمال أهل الكوفة إلى المختار، وأحبوه.

وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة ـ شرفها الله ـ، وكان ذلك في سنة أربع وستين، وكانت حيطانها قد مالت من ضرب المنجنيق، فهدمها، وحفر أساسها، وشهد عنده سبعون من شيوخ قريش: أن قريشاً حين بنت الكعبة، عجزت نفقتهم، فنقصوا من سعة البيت سبعةَ أذرع من أساس إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ الذي أسّسه هو وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، فبناه عبدالله بن الزبير، وزاد فيه السبعة أذرع، وأدخل الحِجْر فيها، وأعادها على ما كانت عليه أولاً، وجعل لها بابين: باباً يُدخل منه،

---

(١) في الأصل: «الذي».

وباباً يخرج منه.

فلم يزل البيت على ذلك حتى قَتَلَ الحجاجُ ابنَ الزبير، وبعث إلى عبد الملك بن مروان يُعْلِمُه بما زاد ابن الزبير، فأمر عبدُ الملك بهدمه وردِّه إلى ما كان عليه في حياة رسول الله ﷺ، ويجعل له باباً واحداً، ففعل الحجاج ذلك.

ويأتي ذكرُ مقتل ابن الزبير، وما فعله الحجاج في البيت الحرام في ترجمة عبد الملك بن مروان ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وخلاصة الأمر: أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بنى الكعبة، ـ وهي بيت الله الحرام ـ كما تقدم ذكره، وذكرُ ولدِه سيدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعدَ مضيِّ مئة سنة من عمر إبراهيم، واستمر بناؤه نحو ألفي سنة، وسبع مئة سنة، وخمسة وسبعين سنة، إلى أن هدمته قريش في سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله ﷺ، وبنوه ـ كما تقدم في السيرة الشريفة ـ، وهو **البناء الثاني**، واستمر نحو اثنتين وثمانين سنة، ثم هدمه الحُصَين، وأحرقه في أيام يزيد بن معاوية ـ كما تقدم في ترجمة يزيد ـ، وذلك في سنة أربع وستين من الهجرة، ثم بناه عبدالله بن الزبير على قواعد إبراهيم، وهذا **البناء الثالث**، واستمر نحو تسع سنين، ثم هدمه الحجاج، وقتلَ ابنَ الزبير في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة، ثم بناه الحجاج على ما كان عليه في حياة رسول الله ﷺ، وهو **البناء الرابع**، واستمر على ما هو عليه إلى هذا التاريخ، وهو أواخر سنة ست وتسعين وثمان مئة.

وكانت الكعبة تُكسى القَباطِيَّ، ثم كُسيت البُرودَ، وأولَ من كساها الديباجَ: الحجاجُ بن يوسف.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

خلافة المؤتمن بالله مروان بن الحكم

هو أبو عبد الملك مروانُ بنُ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ بنِ منافٍ، وأمُّه آمنةُ بنتُ علقمةَ بنِ صفوانَ الكنانيةُ، ومولده سنة اثنتين من الهجرة، وأسلم أبوه الحكم عام الفتح، ونفاه رسول الله ﷺ إلى الطائف، ولما توفي رسول الله ﷺ، كلّم عثمانُ أبا بكر في ردِّه؛ لأنه عمه، فلم يفعل، وكذلك سأل عمرَ، فلم يفعل، فلما ولي عثمان، ردَّه، وقال: إن رسول الله ﷺ وعدني أن يردَّه.

وتوفي الحكمُ في خلافة عثمان بن عفان.

وكان مروان قصيراً دميماً، كثير السفه في اللفظ.

بويع له في خلافة ابن الزبير بعد أن افترق الناس فرقتين: فريقاً يهوى بني أمية، وفريقاً يهوى ابن الزبير، ووقع بينهم خلاف، وجرى بينهم وقائع وحروب، ثم استقر أمر الشام إلى مروان، ودخلت مصر في طاعته في سنة خمس وستين.

أمر مروانُ الناس بالبيعة لابنه عبد الملك، ومن بعده لأخيه

عبد العزيز، وفي هذه السنة مات مروان بدمشق بالطاعـون، وكانت وفاته فجأة لثلاث خلون من رمضان، سنة خمس وستين، وقيل: إن زوجتـه خنقته، وقيل: إنها سمَّته.

وكانت مدة ولايته تسعة أشهر، وثمانية عشر يوماً، وعمره ثلاث وستون سنة.

أولاده: أبو الوليد عبـدُ الملك، وعبد العزيز، ومحمد، ومعاوية، وعبيدالله، وعبدالله، وداود، وعبد الرحمن، وعمر، وبشر.

كاتبه: سفيان الأحول.

وقاضيه: أبو إدريس الخولاني.

وحاجبه: أبو سهيل مولاه.

نقش خاتمه: بالله ثقتي ورجائي.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

خلافة الموفق لأمر الله عبد الملك بن مروان

هو أبو الوليد، عبدُ الملك بنُ مروانَ بنِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ منافٍ، وأمُّه عائشةُ بنت معاويـةَ بنِ المغيرةِ بنِ أبي العاص.

ولد سنة ست وعشرين من الهجرة في خلافـة عثمان ﷺ، وكان

رجلاً رَبْعاً، أبيض، ليس بالنحيف، وهو أول من سُمي عبد الملك في الإسلام، وكان أَفْوَهَ، مفتوحَ الفم، مشبك الأسنان بالذهب، وكان يكنى: رشح الحَجَر؛ لبخله، وأبو الذباب؛ لبَخره.

بويع له في ثالث شهر رمضان، سنة خمس وستين، ووعد الناس يوم بويع خيراً، ودعاهم إلى إحياء الكتاب والسنة، وإقامة العدل.

وكان قبل ولايته مشهوراً بالعلم والصدق والدين، فلما تولى الخلافة، استهوته الدنيا، فتغير عن ذلك.

وكان يحب الفخر والمدح، فكثرت في أيامه الشعراء، وكان من فحول شعرائه: جرير، والفرزدق، والأخطل.

*** ذكر شيء مما اتفق في أيامه:**

لما استقر في الخلافة، ودخلت سنة ست وستين، فيها ابتدأ عبد الملك ببناء القبة على الصخرة الشريفة، وعمارة المسجد الأقصى، فكملت العمارة سنة ثلاث وسبعين، وذلك لأن عبد الملك منع الناسَ من الحج؛ لئلا يميلوا مع ابن الزبير، فضجُّوا، فبعث رجاءَ بنَ حيوةَ، ويزيدَ بنَ سلام بأموال جزيلة إلى بيت المقدس، فبُنيت القبة، وفُرشت بالرخام الملون وغيرِه من البُسط الملونة، وعمل فيه صورة الصراط، وباب الجنة، وقَدَمَ الرسول، ووادي جهنم؛ ليشتغل الناس بذلك عن الحج، فكان ابن الزبير يشنِّع على عبد الملك بذلك، ويأتي ذكر ذلك في ترجمة أبي المقدام رجاء بن حيوة بن جرول الكندي في حرف الراء ـ إن شاء الله تعالى ـ.

*** ذكر غير ذلك:**

قد تقدم ـ في خلافة ابن الزبير ـ تتبعُ المختار بن عبيد لقتلَةِ الحسين، وقتلهم، وقتل عُبيدالله بن زياد، ثم إن المختار أقام بالعراق إلى سنة سبع وستين فبعث إليه ابن الزبير أخاه مصعباً فقتل المختار وملك العراق إلى سنة إحدى وسبعين، فجهز عبدُ الملك الجيوش لمحاربة مصعبِ ابن الزبير، فتلاقوا بدير الجاثليق، فقُتِل مصعب، وحُملت رأسه إلى عبد الملك، وقَتل عبدُ الملك عمرَو بنَ سعيدِ بنِ العاصِ الأشدقَ.

وبعث عبدُ الملك الحجاجَ بنَ يوسفَ إلى حرب عبدالله بن الزبير بمكة، فأتى الحجاجُ الطائفَ، فأقام بها شهوراً، ثم زحف إلى مكة، فحاصر ابنَ الزبير في هلال ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين، ودام الحصار حتى غلت الأسعار، وأصاب الناسَ مجاعةٌ.

وزاد الحَجاجُ في الحصار والقتال، ورمى الكعبةَ بالمنجنيق، فلما رمى به، أرعدت السماء وأبرقَتْ، فخاف أهل الشام من ذلك، فصاح الحَجاج بالناس: إن هذه صواعقُ تهامة، وأنا ابنها، وقام فرمى بنفسه، فزاد ذلك، حتى إن قعقعة البرق تزيد على حس الحجارة، وجاءت صاعقة تتبعها أخرى، فقتلت من أصحاب الحجاج اثني عشر رجلاً، وزاد خوفُ أهل الشام، فقال الحَجاج لأصحابه: إنهم مصيبهُم ما أصابكم، فلما أصبحوا، صعقت السماء، فقُتل بعضُ أصحاب ابن الزبير، فقال الحجاج لأصحابه: ألم أقلْ لكم إنه مصيبهُم ما أصابكم؟

وخرج ابن الزبير، فقاتل قتالاً شديداً، وتكاثر أهل الشام ألوفاً من

كل باب، فشدخوه بالحجارة، فانصرع، فانكبَّ عليه موليان لـه، فقتلوا جميعـاً، وتفرق أصحابـه، فأمر بـه الحجاجُ، فصُلب، وكان ذلك يوم الثلاثاء، لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، **سنة ثلاث وسبعين**، بعد قتال سبعة أشهر.

ولما قُتل ابن الزبير، كَبَّر أهلُ الشام؛ لفرحهم بقتله، وكان له من العمر حين قتل نحو ثلاث وسبعين سنة، وهو أول من ولِـد من المهاجرين بعد الهجرة، وكـان كثيـر العبادة، مكـث أربعين سنة لم ينزع ثوبـه عن ظهره، وبعـد قتله بثلاثـة أشهر توفي عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعمره سبع وثمانون سنة.

وكانت خلافة ابن الزبير تسع سنين؛ لأنه بويع له سنة أربع وستين، وكان سلطانه بالحجاز والعراق وخراسان وأعمال الشرق، وكانت له رضي الله عنه جُمَّة مفروقة طويلة، ولما صُلب، علَّق الحجاجُ إلى جانبه كلباً ميتاً، ومنع والدتَه من دفنـه، وكان لها من العمر مئـة سنـة، ثم كتب الحجـاج إلى عبد الملك يخبره بصلبه، فكتب إليه يلومه، ويقول له: هلاَّ خلَّيت بينه وبين أمه؟ فأذن لها الحجاج، فدفنته، وماتت بعده بقليل، وهي أسماء بنتُ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت تُدعى: ذات النطاقين.

وتقدم في ترجمة ابن الزبير ذكرُ هدم الحجاج الكعبة، وإعادتها.

وفي سنة سبع وسبعين: أمر عبد الملك بضرب الدراهم والدنانير، وهو أول من أحدث ضربهـا في الإسلام، فانتفـع الناس بذلـك، وكان

النقش عليها على الجانب الواحد: الله أحد، وعلى الآخر: الله الصمد، وكانت الدنانير والدراهم قبل ذلك رومية وكِسْرَوية.

وكان عبد الملك يسرع إلى سفك الدماء، وكذلك كان عماله، ولو لم يكن غير الحجاج بن يوسف، لكفاه في الظلم والجَور، وسفك دماء الأخيار الصالحين، وخَتَم أيدي جماعة منهم بالرصاص استخفافاً بهم، كما يفعل بأهل الذمة، منهم: جابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وسهل ابن سعد.

ويكفي في قبح سيرته قتلُ سعيد بن جبير، ولم يعش الحجاج بعدَه إلا نحو شهر أو شهرين، وما مات الحجاج حتى وقعت في جوفه الآكلة، فمات.

وعِدّة من قتله الحجاج صبراً مئة ألف، وعشرون ألفاً.

ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، وركب في يوم جمعة، فسمع ضجة المحبوسين، فالتفت إلى ناحيتهم، وقال: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون: ١٠٨]، فلم يركب بعدها، ومات في تلك الجمعة.

وتوفي عبد الملك في يوم الخميس، لخمس عشرة ليلة مضت من شوال، **سنة ست وثمانين**، وعمره ستون سنة، وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير، واجتمع له الناس ثلاث عشرة سنة، وأربعة أشهر تنقص سبع ليال، وكان بالشام وما والاها قبل قتل ابن الزبير سبع سنين، ونحو تسعة أشهر.

أولاده: الوليد، ويزيد، وهشام، وسليمان، ومروان الأكبر، ومروان الأصغر، ومعاوية، وعبدالله، ومسلمة، والمنذر، ومحمد، وسعيد، والحَجَّاج، وغيرهم.

كاتبه: روح بن زنباع، وقبيصة بن ذؤيب.

حاجبه: يوسف مولاه، وغيره.

نقش خاتمه: أؤمن بالله مخلصاً.

والحمد لله وحده.

* * *

خلافة المنتقم لله الوليد بن عبد الملك

هو أبو العباس، الوليدُ بنُ عبدِ الملك بنِ مروان، وأمُّه ولاَّدة ابنةُ العباس بنِ مازنٍ العبسيةُ، وكان أسمر جميلاً، بوجهه آثارُ جُدَري، وكان جباراً، ذا سطوة شديدة، كثير النكاح والطلاق، يقال: إنه تزوج ثلاثاً وستين مرة.

بويع له في منتصف شوال، سنة ست وثمانين، يوم دفن أبوه بعهد منه.

والوليد هو الذي بنى جامع دمشق، قيل: إنه أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وكان فيه عشرة آلاف رجل في كل يوم، وكان فيه ست مئة سلسلة من ذهب، فلم يستطع أحد الصلاة فيه، فرُفعت في أيام عمر بن عبد العزيز، وحطت في بيت

المال، وعوضت بالحديد.

وكان في جنب الجامع كنيسة قد سلمت للنصارى، بسبب أنها في نصف البلد الذي أُخذ بالصلح، وكانت تعرف بكنيسة **مار يوحنا**[1]، فهدمها الوليد، وأدخلها في الجامع، وكان بناء الجامع **في سنة ثمان وثمانين** من الهجرة.

والوليد أولُ من اتخذ البيمارستان للمرضى، ودار الضيافة، وبنى الأميال في الطرقات، ووضع المنابر، وولى ابنَ عمه عمرَ بنَ عبد العزيز المدينةَ، فقدمها، ونزل في دار جدِّه مروان، ودعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم: عروة بن الزبير بن العوام، وعبيدالله بن عتبة بن مسعود، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سلمان، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وسالم بن عبدالله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهم، وعبيدالله بن عبدالله بن عمر، وعبدالله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد، فقال لهم عمر بن عبد العزيز: أريد أن لا أقطع أمراً إلا برأيكم، فما علمتم من تعدي عامل، أو من ظُلامة، فعرِّفوني به، فجزوه خيراً.

ثم في سنة سبع وثمانين: كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم مسجد رسول الله ﷺ، وهدم بيوت أزواج النبي ﷺ، وأن يُدخل البيوت في المسجد؛ بحيث تصير مساحة المسجد مئتي ذراع في مئتي

---

(١) في الأصل: «ماريحان».

ذراع، وأن يضع أثمان البيوت في بيت المال، فأجاب[1] أهلُ المدينة إلى ذلك، وقدمت الفَعَلَة والصنَّاع من عند الوليد لعمارة المسجد، وتجرد لذلك عمر بن عبد العزيز، وشيد مسجد رسول الله ﷺ، وأدخل فيه المنازل التي حوله، ومن الحوادث في أيامه أن الزلازل دامت أربعين يوماً، وشمل الهدم الأبنية، وفي أيامه مات عبدالله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ومات أنس بن مالك الأنصاري **سنة تسعين**، وكان عمره ستاً وتسعين سنة، وقيل: مئة وست سنين.

وتوفي علي بن الحسين بن زين العابدين **سنة أربع وتسعين**.

وفي هذه السنة، وقيل: **سنة خمس وتسعين** قَتل الحجاج سعيدَ بن جبير ـ رحمة الله عليه ـ، فضرب عنقه، وكان من أعلام التابعين، أخذ العلم عن عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعنه روى القرآنَ أبو عمرو.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: قتل الحجاجُ سعيدَ بنَ جُبير، وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو مفتقرٌ إلى علمه.

ومات الحجاج بنُ يوسف في شوال **سنة خمس وتسعين**، وله من العمر أربعة وخمسون سنة، وقيل غير ذلك، وكانت ولايته للعراق عشرين سنة.

---

(١) في الأصل: «فأجابوا».

وتوفي الوليد في يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين.

وكانت مدة خلافته تسع سنين، وسبعة أشهر، ودُفِن خارج الباب الصغير، وقيل: في مقابر الفراديس، وصلَّى عليه عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان عمر الوليد اثنتين وأربعين سنة، وستة أشهر.

أولاده: يزيد، وإبراهيم، والعباس فارسُ بني أمية، وعمرو فحلُ بني مروان، وأولاد كثيرة غير هؤلاء، يقال: إنه ركب في ستين من صلبه.

كاتبه: قرة بن شريك، ثم قبيصة بن ذؤيب، ثم يزيد بن أبي كبشة.

حجَّابُه: خالد مولاه، ثم سعيد مولاه.

نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت ومحاسَب.

والحمد لله.

* * *

خلافة المهدي بالله الداعي إلى الله سليمان بن عبد الملك

هو أبو أيوب، سليمانُ بنُ عبدِ الملك، أمُّه ولَّادة أمُّ أخيه الوليد، وكان أبيضَ طويلاً فصيحاً، لَسِناً أديباً حليماً، متوقفاً عن الدماء، شديداً في بدنه، أَكولاً، جميلاً، معجَباً بنفسه، شديدَ الشَّرَه في النكاح.

بويع له يومَ وفاة أخيه بدمشق، وهو غائبٌ بالرملة، فلما وصل إليه الخبر بعد سبعة أيام، سار إلى دمشق، ودخلها، ثم صعد المنبر، فحمد

الله، وأثنى عليه، وصلَّى على رسول الله ﷺ، ووعظ الناس، ثم نزل، وأقـرَّ عمال من كان قبلـه على عملهم، وأحسن السيرة، وردَّ المظالـم، واتخذ ابنَ عمه عمرَ بن عبد العزيز وزيراً.

وكان شرهاً في الأكل، يأكل كل يوم مئة رطل من الطعام بالعراقي، وربما أتاه الطباخ بالسفافيد فيها الدجاج المشويـة، فَلِنهْمَتِهِ يُدخل يدَه في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة، فيفصلها، ويأكلها.

وفي أيامه كثرت الزلازل، ودامت ستة أشهر.

وفي أيامه أمر ببناء المقياس بمصر، وهو الذي يقاس به اليوم.

وتوفي في أيامه عبدُالله بن عمرو بن عثمان بن عفان.

ولما اشتد مرض سليمان، وثقل، عَهِدَ لعمرَ بن عبـد العزيز، ثم مات ـ رحمه الله تعالى ـ بدابق من أرض قِنَّسرين.

وقيل: كان سبب موتـه: أنـه أتاه نصراني، وهـو نازل على دابق بزنبيلين مملوءين تيناً وبيضاً، فأمر مَن يقشر له البيض، وجعل يأكل بيضة وتينـة، حتى أتى على الزنبيلين، ثم أتوه بمخ وسكر، فأكله، فانتخم، ومرض ومات[1].

وكانت وفاته يوم الجمعـة، لعشر ليال بقين من صفر، سنـة تسع

---

(١) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٩/ ١٨٠): «كان نحيفاً جميلاً، وهي صفة لا تتفق مع ما نسبوه إليه، والذي اخترع هذه الأكاذيب نسي أن المعدة لا تقبل زيادة على حجمها، وقد قيل: إذا كنتَ كَذُوباً، فكن ذَكُوراً».

وتسعين، فكانت خلافته سنتين، وثمانية أشهر، وكان عمره خمساً وأربعين سنة، وصلى عليه عمرُ بن عبد العزيز، وترحَّم الناس عليه لاستخلافه له.

وخلف من الولد أربعة عشر ذكراً.

كاتبه: يزيد بن المهلَّب، ثم الفضل بن المهلب، ثم عبد العزيز بن الحارث.

عامله: محمد بن حزم.

حاجبه: أبو عبيدة مولاه.

نقش خاتمه: آمنت بالله مخلصاً.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

خلافة المعصوم بالله عمر بن عبد العزيز

الخليفة الراشد، والإمام العادل، هو: أبو حفص، عمرُ بنُ عبد العزيز بنِ مروانَ بنِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ، القرشيُّ الأمويُّ، التابعي بإحسان.

أجمع الناس على جلالته وفضله، ووفور علمه وصلاحه، وزهده وورعه، وعدله وشفقته على المسلمين، وحسن سيرته فيهم، وبذلِ وسعه في الاجتهاد في طاعة الله تعالى، وحرصه على اتباع آثار رسول الله ﷺ،

والاقتداء بسنته، وسنة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، الذين قضوا بالحق، وبه كانوا يعدلون، ومناقبُه أكثر من أن تحصر.

أمُّه أمُّ عاصم حفصةُ بنتُ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطاب، واسمها ليلى.

بويع بالخلافة حين مات سليمان بن عبد الملك، في صفر سنة تسع وتسعين، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، نحو خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وسَنَّ السننَ الحسنة، وأمات الطرق السيئة.

ومن أعظم حسناته: إبطال سبِّ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه على المنابر؛ فإن خلفاء بني أمية كانوا يسبونه، من سنة إحدى وأربعين، وهي السنة التي خَلع الحسن فيها نفسه من الخلافة، إلى أول سنة تسع وتسعين، آخر أيام سليمان بن عبد الملك، فلما ولي عمر، أبطل ذلك، وكتب إلى نوابه بإبطاله، ولما خطب يوم الجمعة، أبطل السبَّ في آخر الخطبة بقراءة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فلم يُسَب عليٌّ بعد ذلك، واستمر الخطباء على قراءة هذه الآية.

ومدحه كثير بنُ عبد الرحمن الخزاعيُّ، فقال:

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيّاً ولم تُخِفْ
[بَرِيّاً] وَلَمْ تَتْبَعْ سَجِيَّةَ مُجْرِمِ

وَقُلْـتَ فَـصَدَّقْتَ الَّـذِي قُلْـتَ بِالَّـذِي
فَعَلْـتَ فَأَضْـحَى رَاضِـياً كُـلُّ مُـسْلِمِ

قال سُفيان الثوري: الخلفاء خمسة: أبـو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز.

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: يُروى في الحديث: «أَنَّ اللهَ تعالى يَبْعَثُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ عَامٍ مَنْ يُصَحِّحُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ دِينَهَا»[1]، فنظرنا في المئـة الأولى، فإذا هو عمر بن عبد العزيز.

وكان رضي الله عنه أسمر نحيفاً، حسن الوجه واللحية، في وجهه شَجَّة، يقال له: أَشَجُّ بني أمية، ضربَتْه دابةٌ في وجهه.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: من ولدي رجلٌ بوجهِه شَجَّةٌ، يملأُ الأرضَ عدلاً.

ولما ولي رضي الله عنه، أُتِيَ بمركب الخلافـة، فقال: دابتي أوفقُ، وركب دابته، وصرفَ تلك الدواب، ولبس ثياب الصوف والقطن، وصرفَ عمال مَنْ كـان قبله من بني أميـة، وولَّى أصلحَ مَنْ قَدَرَ عليـه، فسلك عمالُـه طريقته.

وكان يردُّ المظالم إلى أهلها، وأمرَ بوضعِ المكسِ من كل أرض.

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٢٧)، والحاكم في «المستدرك» (٨٥٩٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان يغسل ثيابه، فما يخرج حتى تنشف؛ لأنه لم يكن له غيرُها، وما أحدث بناءً منذ ولي.

وكانت فاطمةُ بنتُ الحسن تثني على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وتقول: لو كان لنا عمرُ بنُ عبد العزيز، ما احتجنا بعده إلى أحد.

وكان رضي الله عنه محمودَ السيرة، ولم يكن بعد الخلفاء الأربعة إلى أيامه مثلُه.

وكان رضي الله عنه قد قسَّم عمره على ثلاثة أقسام: فيومٌ للقضاء، ويوم لأهله، ويوم لحوائج الناس، والليل للعبادة.

وكان إذا جَنَّه الليل، لبس جبة صوف، ووضع الغُلَّ في عنقه، والقيدَ في رجله، ونادى: يا رب! هذا عذاب الدنيا، فكيف عذابُ الآخرة؟!

وأحواله رضي الله عنه وفضائلُه غير محصورة.

ولما مرض رضي الله عنه مرضَ موته، قالت زوجته: لما اشتد عليه المرض، سهرنا معه ليلة، فلما أصبحنا، أمرتُ وصيفاً لنا ـ يسمَّى فريداً ـ أن يكون عنده، فإن كانت له حاجة، قضاها له، ونمنا، فلما كان الفجر، توجهت إليه، فرأيت فريداً خارجاً من عنده، فقلت: ما أخرجك؟ قال: هو أخرجني، وقال لي: إني أرى شيئاً، ما هو بإنس ولا جان، وسمعته يقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]، فدخلت عليه، فوجدته قد مات، بعد أن وجَّه

نفسَه إلى القبلة ـ رحمه الله ـ.

ودام مرضُه الذي توفِّي فيه عشرين يوماً.

وقيل له: من توصي بأهلك؟ فقال: إن وَلِيِّيَ فيهم الذي نَزَّل الكتابَ، وهو يتولى الصالحين.

وكانت وفاته بدير سمعان، من أعمال حمص، يوم الجمعة، لخمس بقين من رجب، **سنة إحدى ومئة**، وقبره هناك يزار ويُتبرَّك به، وهو قريب من معرة النعمان، ولم يعرض له كما عرض لقبور بني أمية.

وكان موته بالسُّم عند أكثر أهل النقل؛ فإن بني أمية علموا أنه إن امتدت أيامه، أخرج الأمرَ من أيديهم، وأنه لا يعهَد بعده إلا لمن يُصلح الأمر، فعاجَلوه، وما أمهلوه.

وكان مولدُه بمصر ـ على ما قيل ـ سنة إحدى وستين، وكان عمره أربعين سنة، وشهراً.

وكان متحرياً سيرة الخلفاء الراشدين، وأوصى أن يُدفن معه شيء كان عنده من شعر النبي ﷺ، وأظفار من أظفاره، وقال: إذا متُّ، فاجعلوه في كفني، ففعلوا ذلك.

وعن يوسفَ بن ماهك، قال: بينما نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز، إذ سقط علينا رَقٌّ من السماء فيه مكتوب:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار.

رضي الله عنه وأرضاه، وجعل مثواه الجنة.

أولاده رضي الله عنه: كان له أربعة عشر ذكـراً، منهم: عبد الملك، الولد الصالح بن الصالح، كان من أعبـد الناس وأزهدهم، توفي في خلافـة أبيه، وهو ابن سبع عشرَة سنة وستة أشهر، وكان أحد المشيرين على أبيه بمصالح الرعيـة، المُعِينِينَ على الاهتمام بمصـالح الناس، وكان وزيراً صالحاً، وبطانة خير ـ رحمه الله ـ، وكان أبرَّ أهل عصره بوالده، ودخل عليـه أبوه في مرض موتـه، فقال: يا بني! كيف تجدك؟ قال: يا أبت! أجدني في الحق، قال: يا بني! لأن تكون في ميـزاني أحبُّ إليَّ من أكون في ميزانك، فقال لـه: يا أبت! لَئِنْ يكون ما تحـب، أحـبُّ إلي من أن يكون ما أحب، فمات في مرضه ذلك ـ رحمه الله تعالى ـ.

كاتبه: رجاء الكندي.

قاضيه: عبدالله بن أسعد.

حُجَّابُه: جيش، ومزاحم مولياه.

نقش خاتمه: عمر مؤمن بالله مخلصاً.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

خلافة القادر بصنع الله يزيدَ بنِ عبد الملك

هو أبو خالـد، يزيـدُ بن عبـد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميـة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمُّه عاتكةُ بنتُ يزيدَ بن معاويةَ بنِ أبي سفيان.

بويع بالخلافة لما مات عمر بن عبد العزيز، في رجب، سنة إحدى ومئة، بعَهدٍ من سليمان بن عبد الملك إليه بعد عمر.

وفي أيامـه خرج يزيدُ بن المهلَّبِ بنِ أبي صفرة، [فأرسل إليه أخاه مسلمة، فقتله وقتَل جميع آل المهلب بن أبي صفرة،][1] وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة، وفيهم يقول الشاعر:

نَـزَلْـــتُ عَلَـــى آلِ المُهَلَّـــبِ شَـاتِياً
غَرِيباً عَـنِ الأَوْطَـانِ فـي زَمَـنِ المَحْـلِ
فَمَـا زَالَ بِــي إِحْـسَانُهُمْ وَافْتِقَـادُهُمْ
وَبِـــرُّهُمُ حَتَّـــى حَـسِبْتُهُمُ أَهْلِـــي

وفي أيامه في سنة اثنتين ومئة توفي عبيدالله بن عُتبة بن مسعود أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة.

وعبيدالله المذكور هو ابنُ أخي عبدالله بن مسعود الصحابي.

وهؤلاء الفقهاء السبعة هم الذين انتشر عنهم الفقه والفتوى.

وقد نظم بعض الفضلاء أسماءهم فقال:

أَلاَ كُـــلُّ مَـــنْ لا يَقْتَـــدِي بِأَئِمَّـــةٍ
فَقِـسْمَتُهُ ضِـيزَى عَـنِ الحَـقِّ خَارِجَـهْ

(١) ما بين معكوفتين سقط من الأصل، والمثبت من «تاريخ أبي الفداء» (١/ ١٣٩).

فَخُــذْهُمْ عُبَيْــدُاللهِ عُــرْوَةُ قَاسِــمٌ
سَـعِيدٌ سُـلَيْمَانٌ أَبُــو بَكْـرِ خَارِجَـهْ

ونذكرهم على ترتيبهم في النظم:

فأولهم: عبيدالله المذكور، وكان من أعلام التابعين، ولقي خَلْقاً كثيراً من الصحابة.

الثاني: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي، وأبوه أحدُ العَشَرة المشهود لهم بالجنة، وأمُّ عروةَ أسماءُ بنت أبي بكر ﷺ، وهي ذات النطاقين، وهو شقيق عبدالله بن الزبير، الذي تولى الخلافة، وتوفي عروةُ المذكور في سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربـع وتسعين للهجرة، وكان مولده سنة اثنتين وعشرين.

الثالث: قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وكان من أفضل أهل زمانه، وأبوه محمد بن أبي بكر الذي قُتِل بمصر.

الرابع: سعيـد بن المسيب بن حَزْن بن أبي وهب القرشيُّ، جمع بين الحديـث والفقـه، والزهـد والعبادة، وُلِـد لسنتين مضتا من خلافة عمر ﷺ، وتوفي في سنة إحدى، وقيل: ثلاث، وقيل: أربع، وقيل: خمس وتسعين.

الخامس: سليمان بن سلمة، وتوفي سنة سبع ومئة، وقيل: غير ذلك، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

السادس: أبو بكر بن عبد الرحمن بن عبـد الحارث بن هشام بن

المغيرة، المخزوميُّ القرشيُّ، وكنيته اسمه، كان من سادات التابعين، وسمي: راهبَ قرشي، وأبوه الحارث، وهو أخو أبي جهل بن هشام، وتوفي أبو بكر المذكور في سنة أربع وتسعين للهجرة، وولد في خلافة عمر بن الخطاب.

السابع: خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري، وأبوه زيد بن ثابت، من أكابر الصحابة، الذي قال رسول الله ﷺ في حقه: «أَفْرَضُكُمْ زَيْدٌ»[1]، وتوفي خارجة المذكور في سنة تسع وتسعين للهجرة، وقيل: سنة مئة، بالمدينة، وأدرك زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فهؤلاء السبعة المعروفون بفقهاء المدينة، وانتشرت عنهم الفتيا والفقه، وكان في زمانهم من هو في طبقتهم في الفضيلة، ولم يذكر معهم؛ مثل: سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، وغيره، وتوفي سالم المذكور في سنة ست ومئة، وقيل غير ذلك، وكان من أعلام التابعين.

وكان يزيد بن عبد الملك شديدَ الكِبْر والعُجب، صاحبَ لهو وشراب، ولم يشتهر أحد من الخلفاء باللهو كاشتهاره.

وهو أول من استخفَّ بالمُلْك: يأذَنُ للندماء في الكلام والضحك واللهو في مجلسه، والردِّ عليه، وهو أول من شُتم في وجهه من الخلفاء على سبيل الهزل.

ومات يزيد بحوران، يوم الجمعة، لخمس بقين من شعبان، سنة

---

(١) تقدم تخريجه.

خمس ومئة، فكانت مدة خلافتـه أربع سنين، وشهراً، وعمره أربعون سنة، وقيل غير ذلك.

وكان أخوه هشام بالرصافة في دُويرةٍ له صغيرة، فأتاه البريد بالعصا والخاتم، وسُلِّم عليه بالخلافة، فسار حتى أتى دمشق، وولي الخلافة، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المنصور هشامِ بنِ عبد الملك بنِ مروان

هو أبو الوليد، هشامُ بن عبد الملك بن مروان، وأمُّـه فاطمةُ بنت هشامٍ المخزوميّ، وكان أبيضَ مُشْرَباً بصفرة، أحولَ، يخضب بالسواد، بويع له بعد أخيه يزيد بعهده لـه، لخمس بقين من شعبان، سنة خمس ومئة، وعمره أربعاً وثلاثين سنة، وأشهراً.

وكان أعظمَ ملكٍ في بني أمية، دانت له البلاد، وأدّت إليه الجزيةَ الأُممُ، وكانت له سياسة حسنة، يباشر الأمور بنفسه، غير أنـه كان فَظّاً غليظاً، كثيرَ البُخل كوالدِه، وكان لـه من الطراز والستور والكسوة مالم يكن لأحد من قبله، ولما حجَّ، حمل ثيابَ بدنـه على ست مئة جمل، وكان قليل المعروف جداً، لم ير الناس زماناً أشدَّ من زمانه، وكان أحولَ ـ كمـا تقـدم ـ، فقال يومـاً لمن حضر مجلسه: من سبّني ولم يفحش،

فله هذه الحلة، فقال لـه أعرابي كان حاضراً: يا أحول! قال: خذهـا، قاتلكَ الله.

وعَرَض هشامُ الجنـدَ يوماً، فمر بـه رجل من أهل حمص، وهـو على فرس نَفور، فقال لـه هشام: ما حَمَلَك على أن تربط فرساً نفوراً؟ فقال الحمصي: لا والله يا أميـر المـؤمنين! ما هـو نفـور، ولكن نظـرَ حولَتَـك، فظن أنـك عزُّون البيطـار، فنفر، فقال هشام: تنحَّ، فعليك وعلى فرسك لعنـةُ الله، وكـان عزون نصرانياً ببلاد حمص بيطاراً، كأنه هشامٌ في حولته.

وفي أيامه بنى أخوه سعيد قبـةَ بيت المقـدس، وحجَّ بالناس سنة واحدة، وهي سنة ست ومئة.

وخرج يوماً وهو كئيب، فركب دابته، وسار ساعة، ومعه الأبرشُ الكلبي، فقال له الأبرش: يا أميـر المؤمنين! مالي أراك مغموماً؟ قال: وكيف لا أغتم؟ وقد زعم أهلُ العلم: أني ميتٌ بعد ثلاثـة وثلاثين يوماً؟ قال: فما انقضت المدة حتى مات بالرصافة.

وهو الذي بنى الرصافة، واختارها، وإليـه تنسب، فيقال: رصافة هشام، وكانت مدينة رومية، ثم خربت، وهي صحيحة الهواء.

وكانت وفاته لست مضين من ربيـع الآخر، سنة خمس وعشرين ومئة، وصلى عليه ابنه مسلم، فكانت خلافتـه تسع عشرة سنة، وتسعة أشهر، وعمره يوم توفي خمس وخمسون سنة.

ولما مات، لم يوجد ما يكفَّن فيـه، ولا ما يسخَّن فيه الماء؛ لأن عياضاً كاتبَ الوليد ختم على جميـع موجوده للوليد، فاستعاروا له من الجيران قُمْقُماً لتسخين الماء، وكان له ألفُ تكَّة للسراويلات، وعشرة آلاف قميص، فكفنه خادمٌ له من ماله.

وهذه موعظة عظيمة لمن تيقظ وتبصَّر.

وكان له من الولد عشرة ذكور وبنات، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

هو أبو العباس، الوليدُ بن يزيدَ بن عبد الملك، وأمُّه بنت محمدِ بنِ يوسفَ الثقفيِّ أخي الحجاجِ بن يوسف.

كان مقيماً في البرية بالأزرق؛ خوفاً من هشام، وكان في أسوأ حال في ذلك الموضع، ولما اشتد الضيق، أتاه الفرجُ بموت هشام.

وكان أبيض اللون، ربعة، قد وَخَطَه الشيب.

بويع بعد عمه هشام بعهد أبيه إليه بعـد عمه، لِستٍّ مضين من ربيع الآخر، سنـة خمس وعشرين ومئـة، بعـد أن جاوز الأربعين، ولم يـلِ الخلافة من ولد عبد الملك أكبرُ منه.

وكان شاعراً فصيحاً، مُجيداً لركوب الخيل، وكان مصروفَ الهمة

إلى الشرب واللهو والطرب.

وفي أيامه ظهر يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بخراسان، منكِراً للمظالم، وما عمَّ الناسَ من الجور، فبعث إليه الوليدُ نصرَ بن سَيَّارٍ المازنيَّ، فقَتَلَ يحيى بالمعركة بقريةٍ يقال لها: رعونة، ودفن هناك، وقبره مشهور رضي الله عنه.

ومن سيرته القبيحة، واستخفافه بالدين: أن جاريته ليلى حَظِيَتْ عنده، وكانت أخذت الغناء عن مَعْبَدٍ، وابنِ عائشةَ، وغيرهما، فغنته يوماً، فشرب حتى سكر، ووافاها وهو سكران، فلما تنحى عنها، أذن المؤذن للصلاة، فحلف أن لا يصلِّي بالناس غيرُها، فلبست ثيابه، وتعممت، وتلثَّمت، وخرجت فصلَّت بالناس، فما شكُّوا أنه الوليد.

وقرأ ذات يوم في المصحف: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[إبراهيم: ١٥] الآية، فنصب المصحف غرضاً للسهام، وأقبل يرميه ويقول: [الوافر]

أَتُوعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
فَهَا أَنَا ذَاكَ جَبَّارٌ عَنِيدُ

إِذَا مَا جِئْتَ رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرٍ
فَقُلْ يَارَبِّ مَزَّقَنِي الوليدُ[1]

---

(١) انظر: «سمط النجوم العوالي» للمكي (٣/ ٣٣٨)، قال ابن خلدون: ولقد =

ولما ظهر منه الفساد، وسلوكه غيرَ الطرائق الحميدة، رماه بنو هاشم وبنو أمية بالكفر، وغِشيانِ أمهاتِ أولاد أبيه، وكان أشدَّهم عليه يزيدُ بن الوليد، ثم إن وجوه بني أمية اجتمعوا، وسعَوا في إفساد دولته، ثم وثب عليه أهلُ دمشق، فأخرجوه وحاصروه، فقال لهم الوليد: أطلعوني في قميصي هذا، ودعوني أتوجه إلى حال سبيلي، فقالوا: لا، إلا القتل، ثم دخلوا عليه، فقتلوه، واحتزُّوا رأسه، وخرجوا بها إلى يزيد ابن الوليد، فصلبه بيده على رمح، على درج مسجدِ دمشق.

وكان قتله يومَ الخميس، لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، سنة ست وعشرين ومئة، فكانت مدته سنة، وشهرين، واثنين وعشرين يوماً، ثم حُمل ودفن بباب الفراديس، وصلى عليه إبراهيم بن الوليد.

وكان له ثلاثة عشر ولداً، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الشاكر لأنعم الله

يزيدَ بنِ الوليد بن عبد الملك بن مروان

هو أبو خالد، يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، أمُّه شاه

= ساءت المقالة فيه كثيراً، وكثيرٌ من الناس نفوا عنه ذلك، وقالوا: إنها شناعات الأعداء ألصقوها به.

فرند بنتُ فيروز بن كسرى، سباها قُتيبة بن مسلم بخراسان، وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف، فبعث بها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد، ولم تلد غيره.

وكان يزيد أسمر، نحيف البدن، مربوعاً، خفيف العارِضَين، كثيرَ العُجب، فصيحاً.

بويع له لما قُتل الوليد لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، **سنة ست وعشرين ومئة**، وسمي: يزيد الناقص؛ لأنه نقص الناس العشرات التي زادها الوليد، وقررهم على ما كانوا عليه أيام هشام، ولما تولى، قام خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، واعترف بالعجز، ووعد الرعية بكل جميل فبايعه الناس وفرحوا به فأحسن السيرة وعدل في الناس حتى مات رحمه الله.

وكانت وفاته بالطاعون، بدمشق بعيد الأضحى، **سنة ست وعشرين ومئة**، فكانت مدة ولايته خمسة أشهر، واثني عشر يوماً، وعمره ستاً وأربعين سنة، وقيل غير ذلك.

وله عقب كثير لم تعرف أسماؤهم.

وفي أيامه اضطرب أمر بني أمية، واختل نظامهم، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة [. . . .] إبراهيم بن الوليد

هو أبو إسحاق، إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، أمُّه اسمها نعمة.

مولده سنة ثمان وثمانين، وكان معتدل القامة، نحيفاً، خفيف العارضين، له ضفيرتان.

بويع له بعد وفاة أخيه يزيد بعهد منه، فلم يتم له الأمر، وكان مرة يُدْعى بالخلافة، ومرة بالإمارة، وتارة لا يسلَّم عليه بواحدة منهما؛ لاختلاف الكلمة، وسقوط الهيبة.

ثم إنه خلع نفسه، وسلَّم الأمر لمروان الجعدي بعد قتال وقع، وهرب إبراهيم، واختفى، ثم طلب الأمان، فآمنه، فقدم عليه، وبايعه في صفر، سنة سبع وعشرين ومئة، فكانت مدة ولايته سبعين يوماً، وقيل: أربعة أشهر، ولم يزل باقياً إلى سنة اثنتين وثلاثين ومئة، فقتله مروان، وصلبه، وقيل: غرق، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

خلافة [. . . .] مروان بن محمد

هو أبو عبد الملك، مروانُ بن محمد بن مروان بن الحكم، أمُّه لبانة جارية إبراهيم بن الأشتر، وكانت كُرديَّة، ويعرف بمروان الجعدي؛ لأن خاله الجعدُ بنُ درهم، فنسب إليه، وتعلم منه مذهبَه في القول

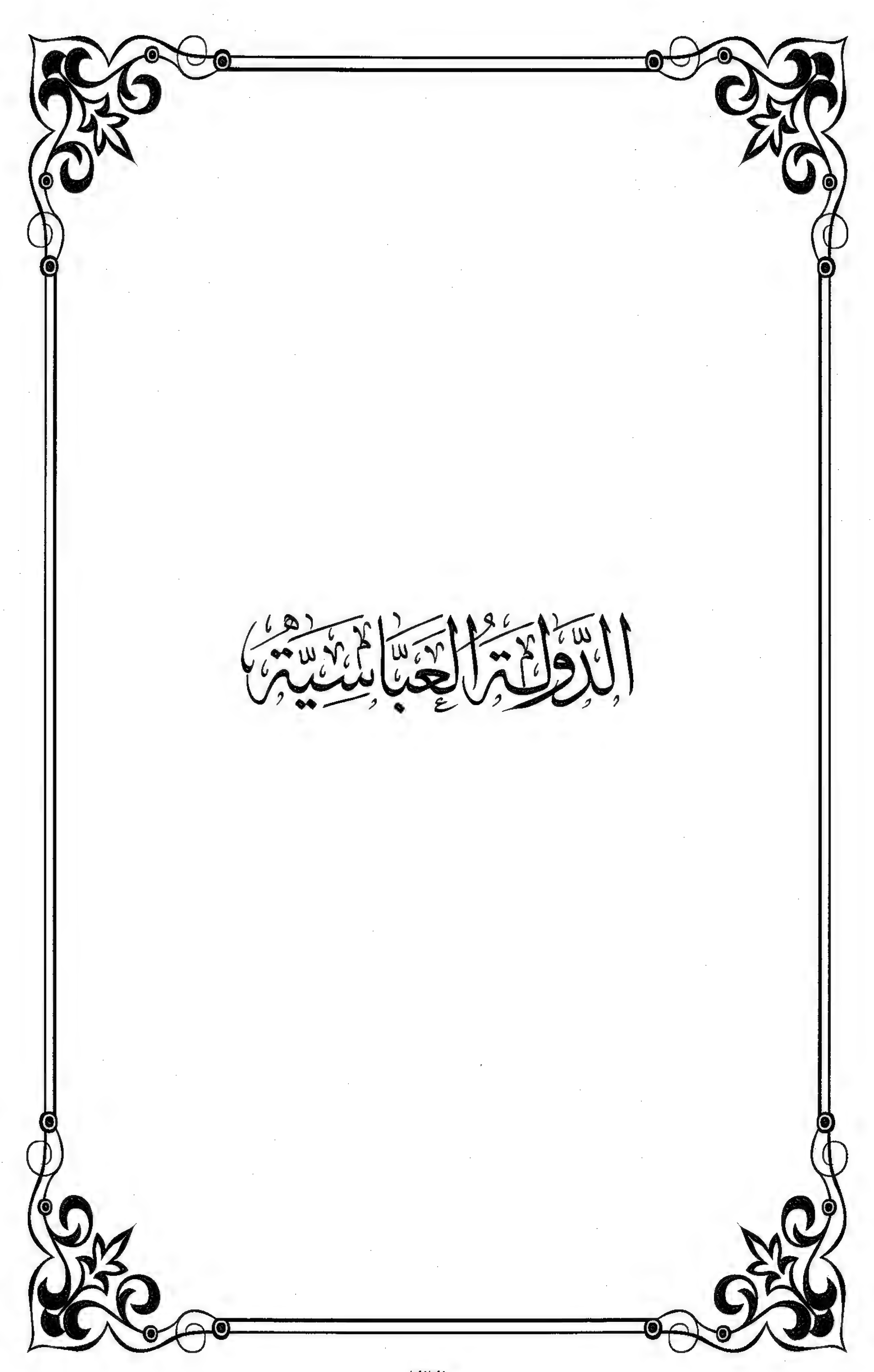
بخلق القرآن، والقدر، لقب بالحمـار؛ لأن العرب تسمِّي رأسَ كلِّ مئة سنة حماراً، وملك بني أميـة كان قـد قارب مئـة سنة في أيامه، فسمَّوه الحمار لذلك.

ومولده سنة خمس وستين، وكـان ضخم الهامـة، ربَعـة، أهدل الشفـة، أبيض اللون، كثيف اللحيـة، شجاعـاً، حازمـاً، إلا أن مدتـه انقضت، فلم ينفعه حزمه.

وهو آخـر الخلفـاء من بني أميـة، قُتِل على يد صالح بن علي بن عبدالله بن عباس، وكان صالح قـد هزمـه، وأخرجـه من الشام، فقتله ببوصير من حدود مصر في يوم الجمعة، لسبع بقين من ذي الحجة، سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وكان عمره يوم قُتِل سبعاً وستين سنة، فكانت مدة ولايته خمس سنين، وعشرة أشهر، وكان له وَلَدان: عبيدالله، وعبدالله، هربا بعد قتله، فأما عبيدالله، [فقد] صلبته الحبشة، وأما عبدالله، فإنـه هرب إلى الأندلس، فمُسِك، وحُبِـس، فلم يزل محبوساً إلى أيام الرشيد، فأُخرج ضريراً، ومات ببغداد، والله أعلم.

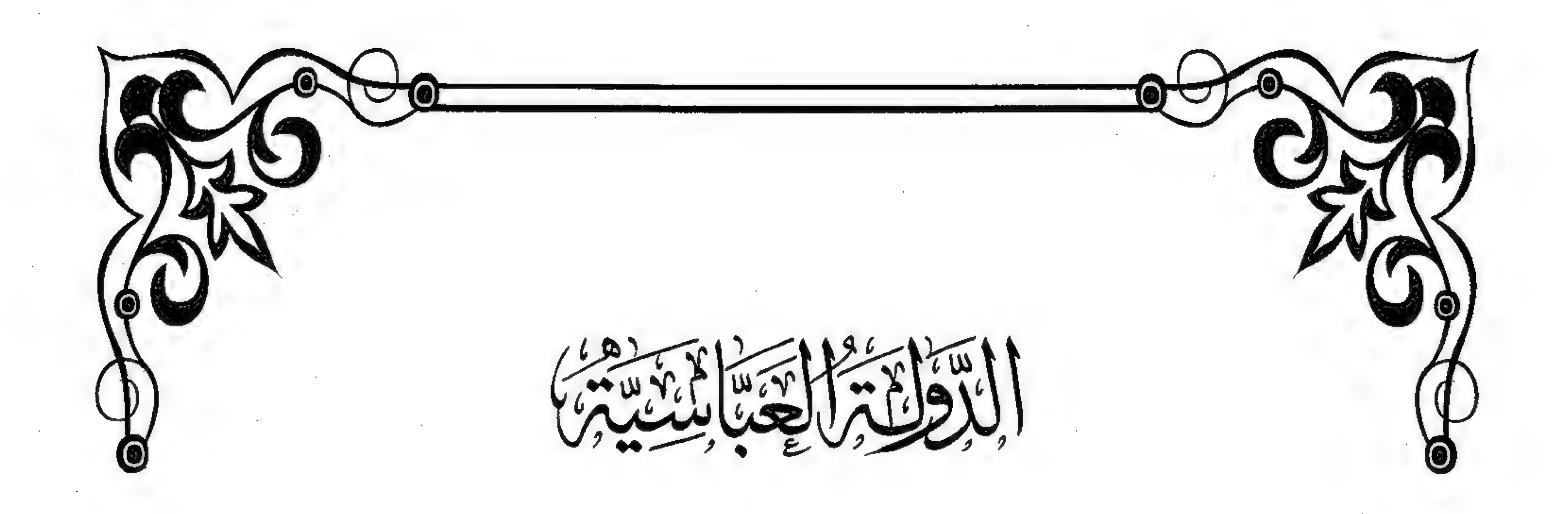
وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

❐ ❐ ❐



الدولة العباسية





الدولة العباسية

روي في بعض الأخبار: أن النبيَّ ﷺ أعلم العباسَ باستيلاء ولدِه على الخلافة بعدَ بني أمية، فاستأذنه العباسُ في أن يَجُبَّ مذاكيره، فقال: «لا، فإنه أمر كائن»[1].

وكان العباس أسنَّ من رسول الله ﷺ بثلاث سنين، وكان له من الأولاد: الفضل، وهو أكبر أولاده، وبه كان يُكنّى، وعبدالله، وهو الحبر، وأبو الخلفاء من ولده، وعبيدالله، وكان جواداً، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وغيرهم.

وأسلم العباس قديماً، وكان يكتم إسلامه، ثم أظهره يوم فتح مكة، وكان الناس إذا قحطوا على عهد عمر رضي الله عنه، خرج بالعباس، فاستسقى، وقال: اللهمَّ إنا كنَّا نتوسَّل إليك بنبيك إذا قحطنا، فتسقينا، وإنا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيك، فاسقِنا[2].

---

(١) انظر: «البدء والتاريخ» لابن طاهر المقدسي (٦/ ٥٦).

(٢) رواه البخاري (٩٦٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وتوفي العباس يوم الجمعة، لأربع عشرة خلت من رجب، **سنة اثنتين وثلاثين**، وكان قد كُفَّ بصرُه، وله ثمان وثمانون سنة، وكان من أجود قريش.

ولدُه عبدُالله بن عباس رضي الله عنهما: ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وحنّكه رسول الله ﷺ بريقه المقدَّس، ولا يُعلم أن أحداً حُنِّك بريقِ النبوةِ غيره.

وكان رضي الله عنه حبر الأمة، ويسمى: البحر؛ لغزارة علمه رضي الله عنه، قال: رأيت جبريلَ مرتين، ودعا لي رسولُ الله ﷺ بالحكمة مرتين[1].

ومن ولده علي ذو الثفنات أبو الخلفاء رضي الله عنه، وقيل له: السَّجاد؛ لأنه كان يصلِّي كلَّ يوم وليلة ألف ركعة، وكان أزهدَ أهل زمانه، وأعبدَهم.

وتوفي عبدالله بن العباس بالطائف، **سنة ثمان وستين**، وهو ابن إحدى وسبعين سنة، ولما وضع ليُصلَّى عليه، جاء طائر أبيضُ حتى دخل في أكفانه، فالتُمس، فلم يوجد، فلما سُوِّي عليه التراب، سُمِع صوت لا يُرى شخصه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، وصلَّى عليه محمد بن الحنفية ـ رضوان الله عليهما ـ.

وابتدأ أمر بني العباس يظهر، والدُّعاة لهم في البلاد تَكْثُر إلى سنة

---

(١) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٥٦١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٦١٥).

ثمان وعشرين ومئة، إلى أن صفت المملكة لبني العباس.

ثم إن عبدالله بن علي عمُّ أبي العباس، عبر الفرات، وحاصر دمشق حتى فتحها، ثم أخلاها من بني أمية، وقتلهم، وهدم سورها، ونبش قبور بني أمية، وأحرق عظامهم بالنار، فنبش قبر معاويةَ بن أبي سفيان، ونبش قبر يزيدَ ابنهِ، وقبرَ عبد الملك بن مروان، وقبر هشام بن عبد الملك، فوجِد صحيحاً، فأمر بصلبه، فصُلِب، ثم أحرقه بالنار، وذَرّاه.

وتتبع، فقتل بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم، ولم يُفْلِت منهم غيرُ رضيع، أو مَنْ هرب، وكذلك قَتَل سليمانُ بن علي بن عبدالله بن عباس جماعةً من بني أمية بالبصرة، وألقاهم في الطريق، فأكلتهم الكلاب.

ثم سار [صالح] بن علي في أثر مروان، فأدركه ببوصير من حدود مصر، فقتله، وبعث برأسه إلى أبي العباس، فبعثه إلى أبي مسلم، وأمره أن يطوف به في خراسان.

وكان مروان لما أيقن بالهلَكَة، دفنَ قضيبَ رسولِ الله ﷺ؛ كيلا يعثر عليه أحد، فدلَّهم على ذلك خَصِيٌّ من خدمه، والله أعلم.

* * *

خلافة أبي العباس السفاح القائم بأمر الله

هو أبو العباس، عبدُالله بنُ محمد بنِ علي بن عبدالله بنِ العباس

ابنِ عبد المطلب، وأمُّـه رَيْطَة بنتُ عبدالله بن عبد المدان بن الديان بن زياد بن الحارث.

وكان أبو العباس رجلاً طويلاً، أبيض اللون، حسن الوجـه، ولد في أيام هشام بن عبد الملك.

بويع بالكوفة يوم الجمعة، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيـع الأول، سنة اثنتين وثلاثين ومئة.

ثم إنه بنى مدينة الأنبار، وسماها: الهاشمية.

وكان كثير العقل، سامي الهمة، رفيـع السؤدد، يحب المفاوضة والمذاكرة، وأخبار الأعراب، والقراءة بالألحان، والحُداء، وغناء الركبان.

وكان أبرَّ خلق الله بأهله وأقاربه، وأحسنهم تعطُّفاً على بني عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان إذا تعادى رجلان من أصحابـه، لم يسمـع من أحدهما في الآخر شيئاً، ولم يقبله، وإن كان القائل عنـده عدلاً في شهادته، ويقول: إن الضغينة القديمة تولِّد العداوة، وتحمل على إظهار المباينة.

وكان سخياً، وكان يُقعد العلويَّ عن يمينـه، والأمويَّ عن شماله، ولـم يكن أحدٌ من الخلفاء يحب مسامرة الرجال كأبي العباس، ووقع لـه لطائف ومسامرات مع الشعراء.

ولما دنت وفاة أبي العباس، نظر يوماً في المـرآة، فقال: اللهمَّ إني لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك: أنا الملكُ الشابُّ، ولكن أقول:

اللهمَّ عَمِّرني طويلاً في طاعتك، ممتَّعاً بالعافية، فما استتمّ كلامه حتى سمع غلاماً يقول لغلام آخر: الأجلُ بيني وبينك شهران، وخمسة أيام، فتطَيَّر، وقال: حسبي اللهُ، لا قوةَ إلا بالله، عليه توكلتُ، وبه أستعين، فما هي إلا أيام حتى أخذته الحمَّى، واتصل مرضه، فمات ـ رحمه الله تعالى ـ بعد شهرين وخمسة أيام، وكانت وفاته بالأنبار، في يوم الأحد، في ذي الحجة، **سنة ست وثلاثين ومئة**، وله اثنتان وثلاثون سنة، وقيل: ثلاث وثلاثون سنة، وكانت خلافته أربع سنين، وتسعة أشهر من حين بويع، ومن لدن قتل مروان أربع سنين، ولما مات، صلى عليه عمُّه عيسى بن علي.

وخلّف تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمس سراويلات، وأربعة طيالسة، وثلاثة مطارف خز.

وقد كان له ولد يدعى: محمداً، مات صغيراً، وابنة اسمها: رَيْطَة، تزوجها المهديُّ.

وزيراه: أبو سلمةَ حفصُ بن سليمان الخلاَّل، وخالدُ بن بَرْمَك.

وكان قاضيه يحيى بن سعيد الأنصاري، وحاجبه أبو غسان.

* * *

خلافة أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي المنصور

هو أبو جعفر، عبدُالله بنُ محمدِ بن علي بنِ عبدِالله بنِ عباس، وأمُّه سلامة بنت بشير.

مولـدُه سنة **ثلاث وتسـعين** من الهجـرة، في خلافـة الـوليـد بن عبد الملك.

وكان أسمر، نحيف البدن، خفيف العارضين، يخضِب بالسواد، وقيل: إنه كان يغيّر شيبه بألف مثقال من المسك في كلِّ شهر.

بويع له يوم مات أخوه، وكان يومئذ بمكة، وقام عمُّـه عيسى بن علي ببيعته، وأتته الخلافة وهو بطريق مكة.

وكان حازمَ الرأي، قد عركته الأيام والتجارب، وكان كثير اليقظة والتبصر في الأمور، قد جال في الأرض، وكتب الحديـث، وتصرَّف في الأعمال، وكان من أحسن الناس خُلُقاً ما لم يخرجْ إلى الناس، فإذا خرج، اربدَّ لونه، واحمرَّت عيناه، ولم يُر في داره لهو، ولا شيء يشبه اللهو.

وكان المنصور يجلس صدرَ نهاره في إيوانه للأمر والنهي، والولايات والعزل، والخراج، وغير ذلك، ثم يتغدى، ويصلي الظهر، ويَقيل، فإذا صلى العصر، جلس لأهل بيته، ومن أحبَّ أن يسامره، فإذا صلى العشاء، نظر فيما ورد عليه من كتـب الثغـور والآفاق، وشاور سُمّاره في بعض ذلك، فإذا مضى ثلث الليل، قام إلى فراشه، وانصرف سمّارُه، فإذا مضى ثلثا الليل، قام من فراشـه، وأسبغ الوضوء، وانتصب في محرابه حتى يطلع الفجر، فيخرج، فيصلي بالناس، ثم يدخل، فيجلس في إيوانه.

وحج غيرَ مرة، وزار بيت المقدس، ووسّع المسجدَ الحرام ناحيـةَ باب الندوة، **سنة سبع وثلاثين ومئة**، وبنى مسجد الخيف.

وفي أيامه فُتحت مدائنُ كثيرة، وبني له مجلسٌ على طاق باب خراسان من مدينته التي سماها: المنصورية، وهي مشرفة على الدجلة، وهي مدينة بغداد، وقيل: إن مقدار ما أنفق المنصور في بناء بغداد وسورها وخندقها وأسواقها ودورها أربعةُ آلاف ألف، وثمان مئة، وثلاثة وثلاثون ألف دينار.

وكان الأستاذ من الصناع يعمل يومَه بقيراط فضة، وكان يعمل في بنائها في كل يوم خمسون ألف رجل.

وكان المنصور قد استشار أصحابه، منهم: خالد بن برمك في نقض المدائن، وإيوان كسرى، ونقل نقض ذلك إلى بغداد، فقال خالد: لا أرى ذلك؛ لأنه علَم من أعلام الإسلام، وفيه مصلًّى علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، فقال له المنصور: أبيتَ يا خالدُ إلا الميلَ لأصحابك العجم، وأمر بنقض القصر الأبيض، فنقضت ناحية، وحُمل نقضه، فنظروا، فإذا الذي لزمهم في ذلك أكثرُ من ثمن ما نقضوه، فدعا خالدَ بنَ برمك، فأعلمه بذلك، فقال: إني كنتُ قلتُ لمولانا أمير المؤمنين أن يتركه، والآن ما ينبغي الترك؛ لئلا يقال: عجز عنه، فأعرض عنه.

ونقَل أبوابَ واسط، فجعلها على بغداد، وباب جيء به من الشام، وباب آخر جيء به من الكوفة، كان عَمِلَه خالدُ بنُ عبدالله القَسْري.

وجعل المدينةَ مدوَّرةَ الشكل؛ لئلا يكون بعض الناس أقربَ إلى السلطان من بعض، وعمل لها سورين، الداخلُ أعلى من الخارج، وبنى

قصره في وسطها، والمسجد الجامع بجانب القصر، وكان اللَّبِن الذي يُبنى به ذراعاً في ذراع.

ولما فرغ من بنائها، وتم، حاسب المنصورُ القواد، فألزمَ كلَّ واحد بما بقي عنده، وأخذه، حتى خالدُ بنُ الصلت بقي عليه خمسةَ عشرَ درهماً، فأخذها منه.

ونُقل عن المنصور أمورٌ تدل على الشحِّ، ونقل عنه ضدُّ ذلك من السخاء والإعطاء.

وكان الابتداء في عمارة بغداد سنة خمس وأربعين ومئة.

وأراد المنصور أبا حنيفة على القضاء لما امتنع منه، وقال: لا أصلُح، فقال: أنت أبو حنيفة الفقيه، فكيف لا تصلح؟! فقال: إما أن أكون صادقاً، فيجب أن تقبل قولي، وإما أن أكون كاذباً، فقاضٍ لا يكون كذاباً، فضربه، وحبسه، ومات في حبسه، وصلى عليه المنصور، سنة خمسين ومئة.

وكان مولده سنة سبعين، وقيل: سنة ثمانين، وهو الصحيح.

وفي أيامه ولد الإمام الشافعي ﵁ بعد موت أبي حنيفة ﵁، ولِد بغزة، وأقام بها سنتين، وسار إلى مكة، فنشأ بها.

وفي أيامه تناثرت الكواكب في سنة سبع وأربعين ومئة.

وتوفي جعفر الصادق ﵁، وتوفي معن بن زائدة، والأوزاعي، وأبو عمرو بن العلاء.

وتوفي المنصور يوم السبت، لسِت ليال من ذي الحجة، **سنة ثمان وخمسين ومئة**، وله خمس وستون سنة، عند بئر ميمونة، على أميال من مكة، وهو محرِم، وصلَّى عليه ابنُه صالح، ودُفِن بالحرم الشريف.

وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً.

أولاده: محمد المهدي، وجعفر، وصالح، وسليمان، وعيسى، ويعقوب، والقاسم، وعبد العزيز، والعباس.

قاضيه: عبدالله بن محمد بن صفوان، وشريك عبدالله.

حاجبه: الربيع مولاه، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المهدي

هو أبو عبدالله، محمدُ بنُ عبدِالله المنصور، الملقبُ بالمهدي، وأمُّه أمُّ موسى بنتُ منصورِ بنِ عبدِالله بنِ سهلِ بنِ زيدٍ الحميريِّ، وكان أسمر، طويلاً، بعينه اليمنى بياض، معتدل الخلق، جَعْدَ الشعر.

بويع له يوم السبت، لِستٍّ خلَون من ذي الحجة، سنة ثمان وخمسين ومئة، بين الركن والمقام، يوم مات أبوه، وقام ببيعته الربيعُ وزيرُ المنصور، والمهديُّ ـ آنذاك ـ ببغداد، وأنفذ الربيعُ الخبرَ مع مناده مولى أبي جعفر إلى بغداد، فبايع الناسُ المهديَّ البيعةَ العامة.

ولما بويع، افتتح أمره برد المظالم، وكفِّ الأذى والقتل، وأمن

الخائف، وإنصاف المظلوم، وكان يقول: إذا جلستُ للمظالم، فأدخلوا عليَّ القضاةَ، فلو لم يكن رَدِّي للمظالم إلا للحياء منهم.

وكـان سخيـاً، وبسطَ يـدَه في العطـاء، وبنى مسجـد الرُّصافـة، وخندقها، وكان كثير الولاية والعزل بغيـر سبب، وبنى العَلَمين اللذين يُسعى بينهما.

وحجَّ بالناس **سنة ستين ومئة**، وجرَّد الكعبـة، وكساها الديباج، وطلى جدرانها بالمسك والعنبر من أعلاها إلى أسفلها، وكانت الكعبة في جانب المسجد، لم تكن متوسطة، فهدم حيطانَ المسجـد الحرام، وزاد فيه زيادات، واشترى الدور والمنازل، وأحضر المهندسين، وصَيَّر الكعبة في الوسط، ووسَّع مسجد رسول الله ﷺ، وزاد فيه، وحمل العُمُد الرخام والذهـب، ورفـع سقفه، وألبسَ خارجَ القبـر الشريف المقدس الرخامَ.

وكانت عمارته للمسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ **في سبع وستين ومئة**، وكان قبل ذلك في **سنة إحدى وستين** أمر باتخاذ المصانع في طريق مكة، وتجديد الأميال والبُرد، وبتقصير المنابـر في البلاد، وجعلها بمقدار منبر النبي ﷺ.

ولما حج المهدي، دخل إلى مسجد النبي ﷺ، فلم يبق أحـدٌ إلا قام له، إلا ابن أبي ذؤيب، فقيل له: قم، هذا أمير المؤمنين، فقال: إنما يقوم الناس لربِّ العالمين، فقال المهدي: دعـوه، فلقد قامت كل شعرة في رأسي.

توفي المهدي في يوم الخميس، لثمان بقين من المحرم، **سنة تسع وستين ومئة**، وكان ابن ثمان وأربعين سنة، وولايته عشر سنين، وشهر ونصف، وصلَّى عليه ابنُه هارون الرشيد، ودُفِن تحت شجرة جوز كان يجلس تحتها.

أولاده: هارون الرشيد، وموسى الهادي، وعلي، وعبدالله، ومنصور، ويعقوب، وإسحاق، والياقوتة، والغالية، والعباسية، وسليمة، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة موسى الهادي

هو أبو محمد، موسى بنُ المهدي، وأمُّه أمُّ الرشيد الخيزران مُوَلَّدَة، وهي أُم الخلفاء، وكان طويلاً، جسيماً، أفوه، بشفته العليا تقلص.

بويع له يوم مات أبوه، وكان غائباً بجرجان، فقدم الرشيد مدينةَ السلام، وأخذ البيعةَ للهادي.

وكان الهادي شجاعاً بطلاً أديباً، صَعْبَ المرام، جواداً، أسخى أهل عصره، أنشده مُغَنٍ أبياتاً، فطرب لها، ثم نظر إلى بُخْتِيٍّ يمشي في الدار، فقال: أَوْقِروا هذا له ذهباً، فاصطلحوا معه على ستين ألف دينار.

وله أخبار مشهورة في الجود والسخاء.

ولم يزل على جوده وسخائه حتى توفي ليلاً في يوم الجمعة، لأربع

عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، **سنة سبعين ومئة**.

وولايته سنة وشهر، وصلى عليه هارون الرشيد، وله أربع وعشرون سنة، وفي ليلة وفاته مات وهو خليفة، وولي خليفة، وهو الرشيد، وولد خليفة، وهو عبدالله المأمون.

ولم يحج الهادي في ولايته.

ولده: علي، وإسحاق، وجعفر، وعبدالله، وله بنات، منهن: أم عيسى، تزوجها المأمون.

قاضيه: أبو يوسف يعقوبُ بنُ إبراهيم.

ووزيره: الفضل بن الربيع، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة هارون الرشيد

هو أبو محمد، وقيل: أبو جعفر، هارونُ بنُ محمدٍ المهديِّ، وأمُّه الخيزران أمُّ الهادي، وكان الرشيد طويلاً، أبيض، حسن الوجه، جميلاً، سميناً، قد وَخَطه الشيب، كبيرَ العينين.

بويع له يوم الجمعة، لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول، سنة سبعين ومئة، وهو ابن أربع وعشرين سنة، وكان متضلعاً من العلم والأدب والشعر.

وفي ليلةِ توفي الهادي وُلد لهارونَ ولـدٌ سماه: عبدَالله المأمون، ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة، وولي فيها خليفة، ووُلد فيها خليفة إلا هذه الليلة.

ثم إن الرشيد استوزر البرامكـةَ، وتقدَّمـوا عنـده لأرفـع درجات الإجلال، وقال ليحيى: قد وليتك أمورَ الناس، فاحكمْ في ذلك بما ترى من الصواب، واستعملْ من اخترتَ، ودفع إليه خاتمه.

وكان الرشيد يحبُّ الشعر، ويهوى السماع، وكان يشرب في يومين من الجمعة: الأحد، والثلاثاء، وما رآه أحد يشرب نبيذاً ظاهراً.

وهـو أول من جعل المغنين طبقـات ومراتـبَ على قـدر إحسـان المحسنِ منهم، وعلى قـدر طبقـاتهم ومراتبهم كانـت تخرج جوائزهم وصِلاتهم.

وكان الرشيد سخياً كريماً، جواداً شجاعاً، كثيـر الحج والغـزو، وكان يحج سنة، ويغزو سنة، حج في خلافته ثمان حِجَج، وقيل: تسعة، وغزا ثماني غزوات.

وكان يصلي في كل يوم مئـة ركعة، لا يتركها إلا لعارض شديد، حتى فارق الدنيا.

وكان يتصدق من ماله كلَّ يوم بألف درهم.

وعقد الرشيد البيعة لابنه محمد الأمين، وكان بنو هاشم تحب ولاية محمد الأمين تعصُّباً من قبل أبيه وأمه.

وكان الرشيد والوزراء يعرفون لعبدالله المأمون مكانَه من العقل والذكاء والدهاء، والتفوق في العلم، فلم يزل أمره ينمو في نفس الرشيد، حتى عقد له البيعةَ بعد أخيه الأمين، ووافق في ذلك اليوم قدومُ الشافعي ﷺ إلى بغداد، فوجد الناس قد بَكَّروا ليهنئوا الرشيد، فجلسوا في دار العامة ينتظرون الإذن، وجعلوا يقولون: كيف يكون قولُنا؟ إن دعونا لهما، كان دعاءً على الخليفة، وإن لم ندع لهما، كان نقصاً في حقهما، فدخل الشافعي فجلس، وقال:

لاقَصَّرَا عَنْهَا وَلاَ بَلَغَتْهُمَا
حَتَّى يَطُولَ عَلَى يَدَيْكَ طِوَالُهَا[1]

وحج الرشيد بالناس في سنة خمس وثمانين ومئة، وحج معه ابناه، ووليّا عهده: محمد الأمين، وعبدالله المأمون، وفرّق في أهل مكة والمدينة ما مبلغه ألفُ ألفِ دينار، وخمسون ألف دينار، وعقد بين ولديه شرطاً، وعلقه في الكعبة، فلما رُفع الكتاب ليعلَّق بالكعبة، سقط قبل أن يعلق، فقال بعض الحاضرين[2]: هذا الأمر سريعٌ انتقاضُه قبل تمامه.

واجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره من جدٍّ وهزل.

قاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه عم أبيه

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٥/ ٢٦). وفيه: إن هذا البيت لعبدالله بن مصعب ابن ثابت بن عبدالله بن الزبير.

(٢) في الأصل: «الحاضر».

العباسُ بن محمد، وحاجبه الفضلُ بن الربيع أنبهُ الناس، ومغنيه إبراهيمُ الموصليُّ أوحدُ عصره في صناعته، وزامرُه برصوما، وزوجتُه بنتُ جعفرٍ أرغبِ الناس في الخير، وأسرعِهم إلى كلِّ بِرّ، وأمُّه الخيزرانُ أمُّ الخلفاء، ووزراؤه البرامكة الذين لم يُرَ مثلُهم في الجود والسخاء، وكانت لهم عنده الرقية العلية، والمكانة المرضية، وكانوا عنده لهم الأمر والنهي، والعقد والحل، لا يقطع أمراً دونهم، ولا يقدِّم أحداً عليهم، فساسوا أمور الناس أحسنَ سياسة، وساعدَهم المقدور، وشهد بفضلهم الجمهور، ثم بعد ذلك قبض عليهم، وألبسهم بعد العز ثيابَ الذل، ونكَّل بهم، وقتلهم وصلبهم، وقتل جعفر بالأنبار آخر يوم من المحرم، سنة سبع وثمانين ومئة، وبعث بجثته إلى بغداد، ولم يزل يحيى وابنُه الفضل في الحبس حتى ماتا.

والسبب في قتل جعفر: أن الرشيد زوَّجه أختَه عباسة؛ ليحل له النظر إليها، وشرط عليه أن لا يقربها، فوطئها، وحبلت منه، وجاءت بغلام، وقيل غير ذلك.

وتوفي الرشيد بطوس، يوم السبت، لستٍّ خلون من جمادى الآخرة، **سنة ثلاث وتسعين ومئة**، وصلى عليه ابنُه صالح.

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة، وشهرين، وثمانية عشر يوماً، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر جزاء، وكان يحب الشعراء والشعر، ويميل إلى أهل الأدب والفقه.

أولاده: محمد الأمين، وعبدالله المأمون، ومحمد المعتصم، وصالح، ومحمد أبو عيسى، والقاسم، وإسحاق، وغيرهم، وبنات،

الواحدة منهن تعـد عشرة خلفاء كلهم لها محرم: هارون أبوها، والهادي عمُّها، والمهدي جدُّها، والمنصورُ جدُّ أبيها، والسفاحُ عمُّ جدِّها، والأمينُ والمأمونُ والمعتصم إخوتها، والواثقُ والمتوكل ابنا أخيها.

كاتبه: بشرٌ مولاه، ثم الفضل بن الربيع.

وكان من [. . . .] الفضلُ بن فضالة.

والحمدُ لله وحده، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة محمد الأمين بن هارون الرشيد

هو أبو عبدالله، وقيل: أبو العباس، محمدُ بنُ هارونَ الرشيد، أمُّه أَمَةُ العزيز بنتُ جعفرِ بن المنصور، ولقبُها زُبيدة، وكانت لها مآثرُ مشهورة، ولم يلِ الخلافةَ بعد علي بن أبي طالب مَنْ أمُّه هاشميةٌ غيرُ الأمين.

وكان أبيض اللون، سميناً، صغير العينين، جميلاً.

بويع له لسبع خلون من جمادى الآخرة، **سنة ثلاثٍ وتسعين ومئة**، وله تسع وعشرون سنة، وثلاثـة أشهر، وكان من أحسن الناس وجهاً، وأكملهم أدباً، وأسخاهم على درهم ودينار، وأشرف الخلفـاء أباً وأماً، وكان عالماً بالشعر، كثير البلاغة، فصيح المقال، شديد القوة، إلا أنه كان كثير اللهو، يتبع هواه، ولم ينظر في شيء من عقباه، وكان ـ مع سخائه بالمال ـ أبخلَ الناس على طعام، وكان لا يبالي أين قعـد، ولا مـع من

شرب، ولو كان بينه وبين ندمائه حجاب من حديد، لخرقه إذا طرب، وخرج إليهم، وكان كواحد منهم.

وكان كثيـر السفك للدماء، ضعيـف الرأي، ليس عنده تبصرة في الأمور، ولا نظر في العواقب.

وتوفي الأمين لخمس بقين من المحرم، **سنة ثمان وتسعين ومئة**، ومات قتلاً، قتله طاهر بن الحسين، لما جهَّزه لقتاله المأمونُ؛ لخلاف وقع بينهما، وأخذ رأسه، وجهـزه للمأمون بخراسان، وكانت خلافتـه أربع سنين، وسبعة أشهر، والله أعلم.

* * *

خلافة أمير المؤمنين المأمون بن هارون الرشيد

هو أبو العباس، وقيل: أبـو جعفر، عبـدُالله المأمـونُ بنُ هارونَ الرشيد، وأمـه مراجلُ أُمُّ وَلَـد، وكان أبيض اللون، تعلوه صفرة، أقنى الأنف، طويل اللحية، بخده خالٌ أسود.

بويع له البيعة العامة يوم قتل أخيه، وقيل: بويـع لـه يوم الاثنين، لخمس بقين من رجب، **سنة ثمان وتسعين ومئة**، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

وكان كامل الفضل، كثير العفو، جواداً، حسنَ التدبير.

وهو أول من اتخذ الأتراك للخدمة، فكان يشتري الواحد منهم بمئة ألف، ومئتي ألف.

وكان يحب أهل العلم، ويجلس مع العلماء من أول النهار إلى آخره، يتناظرون بين يديه، فيرشدهم، ويمدهم بالأموال، ويفتقدهم إذا غابوا عنه، ويزورهم في منازلهم.

وكان يحضر مع الناس على الطعام، ويخرج من الليل يطوف في عسكره، وكان يحب [أن] يسمع أخبار الناس، وكان في سخائه لا يوصف، حتى قال فيه بعضهم: إنه أجود من السحاب الحافل، والريح العاصف.

وكان قاضيه: القاضي يحيى بن أكثم، وهو من ولد أكثمَ بنِ صَيْفي حكيمِ العرب، كان عالماً بالفقه، بصيراً بالأحكام، ذكره الدارقطني في أصحاب الشافعي رضي الله عنه، وكان يحيى سليماً من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة، وروى عنه الترمذي، والقاضي إسماعيل، وكان أحد الأئمة المجتهدين.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما عرفت فيه بدعة، وكان واسع العلم كثير الأدب.

ونقل عنه حكايات في أمر المُرْد، وكان ميلُه إليهم في الشبيبة، فلما تكهل، أقبل على شأنه، ونفيت تلك الشناعة عنه.

ولما أراد المأمون أن يوليه القضاء، دخل عليه، فاستحقره، فعلم يحيى بذلك، فقال: يا أمير المؤمنين! إن كان القصد علمي لا خَلقي، فسلني، فعرف المأمون فضله، فولاه.

وكان يحيى من أدهى الناس، وأخبرهم بالأمور، وتوفي يحيى يوم

الجمعة، منتصف ذي الحجة، **في السنة الثانيـة والأربعين بعد المئتين**، وعمره ثلاث وثلاثون سنة ـ رحمه الله، وعفا عنه ـ

وكان من وزراء المأمون: الحسن بن سهل السَّرخسي، وَزَر لـه بعد أخيه ذي الرياستين الفضل بن سهل، وحظي عند المأمون، وتزوج المأمون ابنتَه بوران، وولاه المأمون جميعَ البلاد التي افتتحها طاهرُ بن الحسين، وكان عالي الهمة، كثير العطايا للشعراء وغيرهم، وكان الحسن أحدَ الأجواد، وقيل: إنـه أنفق في وليمـة ابنتـه بوران ـ حين تزوج بها المأمون ـ أموالاً تجلُّ عن الوصف، وأوقد الحسن بن سهل للمأمون ليلة دخوله على ابنته بوران شمعة من عنبر، وزنها أربعون مَنّـاً، في شمعدان من ذهب، وكان العرس في شهر رمضان، **سنة عشر ومئتين**.

وعاشت بـوران بعـد المأمـون إلى سنة إحـدى وسبعين ومئتين، فتوفيـت وعمرهـا ثمانـون سنة، وكانـت قيمـة بعلم النجوم والحساب ـ رحمها الله تعالى ـ.

وكان من ندماء المأمون: إسحاقُ بن إبراهيم المـوصلي النـديم، وكان نديماً للرشيد قبل المأمون.

غزا المأمون الروم، وفتح منها حصوناً وقلاعاً، وكان أمره نافذاً من إفريقية الغرب إلى أقصى خراسان ووراء النهر.

وفي أيامه جاء سيل بمكة حتى بلغ الماءُ الحجر والباب، وهدم ألف دار، ومات نحو من ألف إنسان.

ومات سفيـان بن عُيينـة، ومعـروف الكـرخي في أيامـه، وتوفي

الشافعي رضي الله عنه في **سنة أربع ومئتين**، وله أربع وخمسون سنة، ومات طاهر ابن الحسين، والواقدي، والأصمعي في **سنة عشر ومئتين**، وتوفي أبو العتاهيـة، وتوفيـت زُبيـدة زوجة الرشيد، وكانت معروفة بأفعال الخير والإفضال على العلماء والفقراء، ولها آثـار كثيـرة في طريق الحجـاز، وحجَّت، فبلغت نفقتها أربعة وخمسين ألف ألف دينار.

ولزبيدةَ جماعةُ محارمَ من الخلفـاء: المنصورُ جدُّها، والمهـدي عمُّها، والرشيد زوجُها، والأمينُ ابنها، والمأمون والمعتصم ولدا زوجِها، والواثق والمتوكل ابنا زوجها.

وكان المأمون حسن الأخلاق، كثير العفو، يحب العفو ويؤثره، ولما غزا المأمون بلد الروم، وعاد، نزل بعين العشيرة، فأعجبـه ماءَها من برد وصفاء، فطاب لـه الموضع؛ لكثرة خضرتـه، وحسن بهجتـه، فأقام هناك، ثم إنـه احتُضر، ومات هنـاك، لثمان عشرة ليلة خلون من رجب، **سنة ثماني عشرة ومئتين**، وسنُّه ثمانٍ وأربعون، ودُفن بطرسوس، فكانت خلافته عشرين سنة، وخمسة أشهر، وأياماً.

والحمد لله وحدَه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المعتصم بالله صاحب سُرَّ مَنْ رأى

هو أبو إسحاق، محمدُ بنُ هارونَ الرشيد، وأمُّه ماردةُ مولَّدَةٌ كوفية.

وكان أبيض اللون، حسن الوجه، مربوعاً، طويل اللحية، شديد البدن، يحمل ألف رطل، ويمشي بها خطوات.

بويع له يوم مات المأمون أخوه، وكان بطرسوس، ثم قدم إلى بغداد، غُرَّة شهر رمضان، سنة ثماني عشرة ومئتين.

وكان شجاعاً، مقداماً، فارساً، بطلاً، صنديداً، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

وفتح عَمُّوريَّة في شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين ومئتين، لما بلغه أن الروم خرجت، فنزلت زِبَطْرَة، فتوجَّه المعتصم إليهم بنفسه، وفتحها، وقتل ثلاثين ألفاً، وأسر ثلاثين ألفاً.

وكان بلغَه أن صاحب عمورية أسرَ امرأة من المسلمين هاشميةً، فنادت: وامعتصماه! فقال ملك عمورية: ما يأتيك المعتصم إلا على أبلق، فلما بلغ المعتصمَ ذلك، سار إليها في سبعين ألف أبلق، فلما فتحها، ودخل من بابها، نادى: لبيكِ أيتها المنادية، فقَتَلَ من قتَل، وأسَرَ من أَسَر.

ومن كرمه: أنه أقطع شاعراً مدينةَ الموصل، وهذا شيء لم يتقدمه فيه أحد من الأوائل، وبنى المعتصم مدينة سُرَّ مَنْ رأى، أنفق على جامعها خمس مئة ألف دينار، وانتقل إليها، وجعلها مقر خلافته، وسميت بهذا الاسم؛ لأنه لما انتقل إليها بأهله وعساكره، سُرَّ كلٌّ واحد منهم برؤيتها.

وكان السبب في بنائها: شكوى العامة إليه الجند من النزول عليهم

في مساكنهم، وتولعهم بحَرَم الناس وأولادهم، فبُنيت في أسرع وقت، وارتحل من بغداد إليها.

واتسع ملك المعتصم جداً، حتى صار له سبعون ألفَ مملوك سوى الأحرار، ومن الخيل ما لا يحصى.

وهو الذي امتحنَ الإمامَ أحمدَ بن حنبل ﷺ في القول بخلق القرآن، فقال له الإمام أحمد: أنا رجل علمت علماً، ولم أعلم فيه هذا، فأحضر له الفقهاء والقضاة، فناظروه، فامتنع من أن يقول بقولهم، فضربه المعتصم، وحبسه.

وكان مدة حبسه ثمانية وعشرين شهراً، وبقي إلى أن مات المعتصم، فلما ولي الواثق، أَمَرَهُ أن لا يخرج من بيته، إلى أن أخرجه المتوكل، وأحسن إليه.

وكانت محنة الإمام أحمد ﷺ في سنة ثمان عشرة ومئتين.

وكان من وزراء المعتصم: محمد بن عبد الملك الزيات، ثم كان وزيرَ الواثق بعده، ثم إن المتوكل غضب عليه، وقتله، وكان سبب وزارته: أنه ورد على المعتصم كتابٌ من بعض العمال، وفيه ذكر الكلأ، فقرأه الوزير أحمدُ بن عمار على المعتصم، فقال له: ما الكلأ؟ قال: لا أعلم، فقال المعتصم: لا حول ولا قوة إلا بالله، خليفةٌ أُميٌّ، ووزير عاميٌّ، انظروا مَنْ بالباب، فوجدوا ابنَ الزيات، فأدخلوه إليه، فقال له: ما الكلأ؟ قال: العشب على الإطلاق، فإن كان رطباً، فهو كلأ، وإن كان يابساً،

فهـو حشيش، وشرعَ في تقسيم أنواع النبـات، فعلم المعتصم فضلَـه، فاستوزره، وحكم وبسط يده، وأمر أن لا يمرَّ بأحد إلا يقوم له، وكان القاضي أحمد بن أبي دُؤاد أرصدَ لـه غلاماً، إذا رآه مقبلاً، أعلمه، فيقوم يصلي حتى يجوزه ابنُ الزيات، فأنشد ابن الزيات:

صَـلَّى الـضُّحَى لَمَّـا اسْـتَفَادَ عَـدَاوَتِي
وَأَرَاهُ يَنْـسُكُ بَعْـدَهَا وَيَـصُومُ
لاَ تَعْـدَمَنَّ عَـدَاوَةً مَـسْمُومَةً
تَرَكَتْـكَ تَقْعُـدُ تَـارَةً وَتَقُـومُ

وكان ابنُ الزيات يقول بخلق القرآن.

وكان يقال للمعتصم: الخليفة المثمّن، وذلك أن الله ـ جلَّ وعلا ـ وفَّق له كلَّ شيء في العدد، **فأولها**: أنـه الخليفة الثامن من ولد العباس، وولي سنة ثمان عشرة، ومبلغُ ولايته ثمان سنين وثمانية أشهر، وثمانية أيام، ومولده سنة ثمان وسبعين، وغزا ثمان غزوات، وسنه ثمان وأربعون سنة، وخلف من المال ثمانية آلاف ألف درهم، ومثلها دنانير، وكانت أولاده يوم توفي ثمانية من الذكور، وثمانية من الإناث.

وقالوا: كان الثامنَ من ولد الرشيد، وتوفي وله ثمان وأربعون سنة، وهو أولُ من أُضيف إلى لقبه اسمُ الله تعالى من الخلفاء.

وفي أيامه زلزلت فرغانـة، فمـات بها أكثر من خمسةَ عشرَ ألفاً، ورجفت الأهوازُ رجفة عظيمةً تصدَّعت منها الجبال، وهرب أهل البلد

إلى البر والسفن، وسقطت فيها دور[1] كثيرة، وتهـدم نصف الجامـع، ومكثت ستة عشر يوماً، ومطر أهل تيماء مطراً وبرداً كالبيض، فقُتِل بها ثلاثُ مئة وسبعون إنساناً.

وتوفي المعتصم بِسُرَّ من رأى يوم الخميس، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، **سنة سبع وعشرين ومئتين**.

أولاده: ثمانية ذكور، وثمان بنات ـ كما تقدم ـ.

قاضيه: أحمد بن أبي دُؤاد.

نقش خاتمه: الله ثقة أبي إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الواثق بالله

هو أبو جعفر، هارونُ بنُ المعتصم، وأمُّه قراطيس أُمُّ وَلَد.

وكان أبيضَ اللون، حسنَ الجسم، في عينه اليمنى نكتة بياض.

بويع له يوم الخميس، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، سنة سبع وعشرين ومئتين.

وكان عالماً بكل علم يُسأل عنه، وكـان لـه جبـة صوف، وكساء

---

(١) في الأصل: «أدر».

وبرنس يلبسهم بالليل، ويقوم يصلي، ويقول: ألا يستحي بنو العباس أن لا يكون فيهم مثلُ عمر بن عبد العزيز؟!

وكان جواداً، حُكي أنه فرّق في أيامه من الأموال في الصدقة والصلة ووجوه البر ببغداد، وبسرّ من رأى، والبصرة، ومكة، والمدينة خمسةَ آلاف ألف دينار.

وقيل: إن الواثق كان يقول بخلق القرآن، وأنه ضرب الإمام أحمدَ ابن حنبل رضي الله عنه بسبب ذلك، وجعل دارَه حبساً له.

والأصحُّ: أنه لم يضرب الإمام أحمد، وإنما ضربه المعتصم، ولما ولي الواثق، بعث إليه يقول: لا تساكنني بأرض، فصار الإمام أحمد يختفي في الأماكن، ثم صار إلى منزله، فاختفى فيه إلى أن مات الواثق، وكلُّ ذلك كان بسعاية القاضي أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات وزيرِه.

وكان أحمدُ بن أبي دؤاد قاضيه، وولي للمعتصم قبله، وحَسَّنَ له القولَ بخلق القرآن، وأغراه على الإمام أحمد حتى فعل به ما فعل، ومات ابن دؤاد بمرضه الفالج في سنة أربعين ومئتين.

وتوفي الواثق بِسُرَّ من رأى، يوم الأربعاء، لستٍّ بقين من ذي الحجة، سنة اثنتين وثلاثين ومئتين، وصلى عليه المتوكل أخوه.

وكان عمره ستّاً وثلاثين سنة، وكانت مدة خلافته خمس سنين، وتسعة أشهر، وستة أيام.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة أمير المؤمنين
جعفر بن المعتصم المتوكل على الله

هو أبو الفضل، جعفرُ بنُ المعتصم، وأمه تركية، اسمها: شجاع.

وكان مربوعاً، أسمر اللون، خفيف العارِضَين.

بويع له لستٍّ بقين من ذي الحجة، سنة اثنتين وثلاثين ومئتين.

ولما تولى، أظهر العدل، وأحيا السنة، وأمر بالقبض على محمد ابن عبد الملك الزيات، وعلى ابن أبي دُؤاد اللذين كانا يقولان بخلق القرآن، وحبس ابنَ عبد الملك الزيات في التنور إلى أن مات، وأخذ جميع ضياع ابن أبي دؤاد وأمواله، وأطلق جميع من كان اعتُقل بسبب القول بخلق القرآن، ونهى عن الجدل، وأظهر القولَ بالسنة، وطعن على الواثق، ومَنْ كان قبله فيما كانوا يقولونه من خلق القرآن، وولَّى القاضي يحيى بنَ أكثم قضاءَ القضاة، وكان القاضي يحيى بن أكثم من أئمة الدين، وعلماء السنة، ومن المعظِّمين للكتاب والسنَّة.

وكان قد ولَّى من جهته حَيَّانَ بنَ بشرٍ قضاءَ الجانب الشرقي، وسوارَ ابنَ عبدالله قضاءَ الجانب الغربي، وكلاهما كان أعور، فقال في ذلك بعضُ أصحاب ابن أبي دؤاد:

رَأَيْــتُ مِــنَ العَجَائِــبِ قَاضِــيَيْنِ

هُمَــا أُحْدُوثَــةٌ فِــي الخَــافِقَيْنِ

هُمَــا اقْتَــسَمَا العَمَــى نِــصْفَيْنِ فَــذاً

كَمَــا اقْتَــسَمَا قَــضَاءَ الجَــانِبَيْنِ

وَتَحْــسَبُ مِنْهُمَــا مَــنْ هَــزَّ رَأْســاً

لِيَنْظُــر فــي مَوَارِيــثٍ وَدَيْــنِ

كَأَنَّــكَ قَــدْ وَضَــعْتَ عَلَيْــهِ دَنّــاً

فَــنَحْنُ نُــرَى لَــهُ مِــنْ فَــرْدِ عَــيْنِ

لَقَــدْ قَــالَ الزَّمَــانُ بِهُلْــكِ يَحْيَــى

إِذِ افْتَــتَحَ القَــضَاءَ بِــأَعْوَرَيْنِ

وفي السنة الرابعة والثلاثين بعد المئتين: في أيامه كانت الزلازل المهولـة بدمشق، دامـت ثلاث ساعات من ارتفـاع الضحى، وسقطت الجدران، فقُتل خلق كثير، وانكفأت قرية من عمل الغوطة على أهلها، فلم ينجُ منهم أحد سوى رجل واحد.

وهبت ريح شديدة لم يعهَـد مثلُها، وتغير ماءُ دجلة إلى الصفرة، فبقي ثلاثـة أيام، ففزع الناس لذلك، ثم صار في لون الورد، وسمع أهل أخلاط صيحةً من السماء، فمات خلق كثير، وهاجت النجوم في السماء، وجعلت تتطاير بشرر من قبل غروب الشفق إلى قرب الفجر.

ووقع طائر أبيضُ دونَ الرخمـة، وفوقَ الغراب بحلـبَ، فصاح: يا معشر الناس! اتقوا الله الله، حتى صاح أربعين صوتاً، ثم طار، وجاء من الغد، فصاح أربعين صوتاً.

ومات إنسان في بعض كور الأهواز، فسقط طائر أبيض على نعشه، فصاح بالفارسية: إن الله قد غفر لهذا الميت، ولمن شهد جنازته.

وزلزلت بلاد المغرب، حتى تهدمـت الحصون والقناطـر، فأمـر المتوكل بتفرقة ثلاثة آلاف ألف في اللذين أُصيبت منازلهم، وكل ذلك بأمر الله وقضائه وقدره، ولا رادَّ لأمره، ولا مُعَقِّب لحكمه.

وفي السنة الخامسة والثلاثين بعد المئتين: أمر المتوكل على الله أهلَ الذمة أن يتميزوا عن المسلمين، في لباسهم وعمائمهم، وفي دخولهم الحمام بالجلاجل، وأن لا يركبـوا الخيل ولا يسرج، ونهى أن يُستعملوا في الدواوين، وأن لا تتعلم أولادهم في مكاتب المسلمين، وأن تسوَّى قبورُهم بالأرض.

وفي أيامه حجَّت شجاع، وفعلت الخير الجزيل.

وفي السنة الحاديـة والأربعين: في أيامـه توفي الإمام أحمـد بن حنبل رضي الله عنه، وكان قد امتُحن بالقول بخلق القرآن، فلم يجب إلى ذلك، وذلك أن المأمون كان اجتمع عليه جماعة من المعتزلة، فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل، وزينوا له القولَ بخلق القرآن، واتفق خروجُ المأمون إلى طرسوس لغزو بلاد الروم، فعنّ له أن كتبَ إلى نائب بغداد إسحاقَ ابن إبراهيم بن مصعـب، أمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن،

واتفق ذلك في آخر عمره قبل موته بيسير، فاستدعى جماعةً من أئمة الحديث، فدعاهم إلى ذلك، فامتنعوا، فهددهم، فأجاب أكثرُهم مُكرَهين.

واستمر الإمام أحمد على الامتناع، فحمله على بعير، وسيّره إلى الخليفة، فلما قربوا من جيش المأمون، وأُنزلوا دونَه بمرحلة، فبلغ الإمامَ أحمدَ توعُّدُ الخليفة له بالقتل إن لم يُجبه إلى القول بخلق القرآن، فتوجَّه الإمام أحمدُ إلى الله بالدعاء، فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل، ففرح الإمام أحمد بذلك.

ثم جاء الخبر بأن المعتصم ولي الخلافة، وقد انضم إليه أحمدُ بن أبي دؤاد، وأن الأمر شديد، فردُّوه إلى بغداد في سفينة مع بعض الأسارى، فوصل بغداد وهو مريض في رمضان، فأودع في السجن نحو ثمانية وعشرين شهراً.

ثم أُخرِج إلى الضرب بين يدي المعتصم، فدُعي إلى القول بخلق القرآن ثلاثةَ أيام، بحضور جماعة أحضرهم الخليفة، وكان المعتصب عليه أحمد بن أبي دؤاد، كل ذلك والإمام أحمد يقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله، وسنةِ رسول الله ﷺ حتى أقولَ به، فما زال ابن أبي دؤاد وغيرُه يُغرون الخليفة عليه، ويقولون: هذا كافرٌ مُضِلٌّ، حتى اشتدَّ غضبُه، فأمر بضربه، فضُرِب بالسياط، وكان جملة ما ضرب نيفاً وثمانين سوطاً.

ووقع له في هذه المحنة أخبارٌ كثيرة، وكرامات ظاهرة؛ من ستر عورته لمّا انحل سراويله، وغير ذلك مما هو مشهور، فلما عوفي، فرح المعتصم والمسلمون بذلك، وجعل الإمام أحمد كلَّ من سعى في أمره

في حِلٍّ، إلا أهلَ البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢].

وقال أبو الوليد الطيالسي: لو كان هذا في بني إسرائيل، لكان أُحدوثة.

وقال المزني: أحمدُ بن حنبل يومَ المحنة، وأبو بكر يوم الردَّة، وعمر يوم السقيفة، وعثمان يوم الدار، وعلي يوم صِفِّين.

ومناقبه رضي الله عنه أكثرُ من أن تُحصر، وأشهر من أن تُذكر، ولم يزل الإمام أحمد على ذلك مدة خلافة المعتصم، وأيام الواثق، فلما ولي المتوكل، استبشر الناس بولايته؛ فإنه كان محباً للسنة وأهلِها، ورفعَ المحنة عن الناس، وكتب إلى نائبه ببغداد ـ وهو إسحاق بن إبراهيم ـ: أن يبعث إليه بالإمام أحمد بن حنبل، فاستدعى إسحاقُ بن إبراهيم الإمام أحمد، فأكرمه، وعظَّمه، وجهزه إلى الخليفة المتوكل بِسُرَّ من رأى، فأكرمه المتوكل غايةَ الإكرام، وأمر له بخلعة سنية، فاستحى منه، ولبسها إلى الموضع الذي كان نازلاً فيه، ثم نزعها نزعاً عنيفاً، وهو يبكي ـ رحمه الله ـ، ثم أرسل إليه المتوكل مالاً جزيلاً، فأبى أن يقبله، فقيل له: إن رددتَه، وَجَدَ عليك في نفسِه، ففرَّقَه على مستحقِّيه، ولم يأخذ منه شيئاً، وجعل كلَّ يوم يرسل إليه من طعامه الخاص، ويظن أنه يأكل منه، وكان رضي الله عنه لا يأكل منه لقمة.

وارتفعت السنَّة في أيام المتوكل جداً، وكان لا يولِّي أحداً إلا بمشورة الإمام أحمد بن حنبل، وكان مسيرُ أحمدَ إليه في سنة سبع وثلاثين

ومئتين، ثم مكث إلى حين وفاته، قَلَّ أن يأتي يوم إلا ورسالةُ المتوكل تنفذ إليه في أمور يشاوره فيها، ويستشيره.

ثم إن الإمام أحمد رضي الله عنه مرض مرضه الذي مات فيه، وكان مرضه في أول شهر ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين ومئتين، ثم كتب وصيته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى أحمد بن محمد بن حنبل:

أوصى أنه يشهد أنه لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأن محمداً عبدُه ورسوله، أرسلَه بالهدى ودين الحق، ليظهرَه على الدين كلِّه، ولو كره المشركون، وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته: أن يعبدوا الله تعالى في العابدين، وأن يحمَدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين).

ثم استدعى بالصبيان من ذُرِّيته، فجعل يدعو لهم، ثم توفي يوم الجمعة، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين ومئتين.

وأخبار جنازته مشهورة، ورئي له منامات صالحة ـ رحمه الله تعالى، ورضي عنه، وعن جميع أئمة المسلمين ـ.

وفي السنة الثالثة والأربعين بعد المئتين: توجَّه المتوكل من العراق طالباً مدينة دمشق؛ ليجعلَها دارَ إقامته، فتأسّف أهلُ العراق على ذلك، وكان للمتوكل أربعةُ آلاف سُرِّيَّة، يقال: إنه وطئ الجميع، والله أعلم.

وقتله ولدُه المنتصر، وهو في خَلْوَة مع وزيره الفتحِ بنِ خاقَان، وذلك أن المتوكل قد كان بايع الخلافة لولده المنتصر، ثم أراد عزله،

وتولية أخيه المعتز؛ لمحبته في أمه، فوجد المنتصرُ على أبيه في نفسه، واتفق مع الترك على قتل أبيه، فدخلوا عليه وهو مع وزيره في خلوة في الليل، فقطعوهما بالسيوف.

وكان من الاتفاق العجيب: أن المتوكل قد أُهدي له سيف من البحرين قاطع لم يَرَ أحدٌ مثلَه، فعرضه على جميع حاشيته، وكلٌّ يتمناه، فقال المتوكل: لا يصلح هذا السيف إلا لساعد ماعز التركي، فوهبه له دونَ غيره، فاتفق أنه كان أولَ من دخل عليه، فضربه به، فقطع حبلَ عاتقه، ثم تناولوه بالسيوف، فقطعوه هو والفتح قطعاً، حتى اختلطت لحومُهما، ودُفنا معاً.

وكانت وفاة المتوكل بِسُرَّ من رأى، ليلة الأربعاء، لثلاثٍ خلون من شوال، سنة سبع وأربعين ومئتين، وله إحدى وأربعون سنة، ودُفِن في القصر الجعفري، فكانت خلافته أربع عشرة سنة، وعشرة أشهر، وثلاثة أيام، والله أعلم.

ورآه بعضُهم في النوم وهو بين يدي الله ﷻ، فقال له: ما تصنع هاهنا؟ فقال: انتظر محمداً ابني، أخاصمُه بين يدي الله تعالى.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المنتصر محمدِ بنِ جعفر

هو أبو جعفر، محمدُ بنُ جعفرٍ المتوكلِ، وأمُّه رومية.

وكان مربوعاً، أسمر اللون، حسن الجسم، شهماً.

بويع لأربعٍ خلون من شوال، سنة سبع وأربعين ومئتين، وخلع أخويه: المعتز، والمؤيد، وكان أبوهما المتوكلُ عقد لهما البيعةَ، وأخذَ خَطَّيهما بخلع أنفسهما، بعد أن أهانهما، وأخافهما.

وهو أول من عدا على أبيه من بني العباس، وكان يسيء إلى العيال، ويبخل بالمال.

ورأى والدَه في النوم وهو يقول له: ويلك يا محمد! قتلتني وظلمتني، والله! لا تمتعتَ بالخلافة بعدي إلا أياماً يسيرة، ثم مصيرُك إلى النار، فانتبه وهو لا يملك عينيه، فكان يُسَلّى، وهو لا يسلو، ولما اعتلَّ، أتته أمُّه تعوده، فلما رآها، بكى، وقال: يا أماه! عاجلتُ فعوجلتُ، ولم يزل منكسراً إلى أن مات، وكانت وفاته ليلة السبت، لثلاثٍ خلون من شهر ربيع الآخر، سنة ثمان وأربعين ومئتين، بِسُرَّ مَنْ رأى، وعمرُه خمس وعشرون سنة، وستة أشهر، وكانت ولايته ستة أشهر.

ولما رتَّب المنتصر أسبابَ ملكه، ووضع كل شيء موضعه، فرش له مجلس بأنواع الفرش، وكان في جملة الفرش: بساط حرير، طوله عشرة أذرع، في عشرة أذرع منقوش بأنواع النقوش، وفي وسطه صورة الملك جالس على كرسي الملك، وعلى رأسه سطور مكتوبة بالفارسي، فقال: انظروا إلى من يقرأ هذه السطور التي على رأس الملك، فجاؤوا بمن قرأها، فإذا هي: أنا شيرويه بنُ كسرى، قتلت أبي، فلم أعشْ بعده إلا ستة أشهر، فتطَيَّر المنتصرُ من ذلك، وقام من ذلك المجلس، وأمر

الفراشين، فمزقوا ذلك الفرش بأسره، فلم يمكث بعد أبيه غيرَ ستة أشهر.

وفي أيامه توفيت شجاعُ أمُّ المتوكل، وكانت خيرةً، كثيرةَ الرغبة في الخير، وخلفت من الذهب العين خمسةَ آلاف ألف ألف دينار، وخمسين ألف دينار، ومن الجواهر ما قيمته ألف ألف دينار، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم[1].

* * *

---

(١) لم يذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ خلافة المستعين، وهو أحمد بن محمد بن المعتصم، ثاني عشرهم، بويع له ليلة الاثنين، لست خلون من ربيع الآخر، وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ويكنى: أبا العباس.

وفيها: ورد عليه خبر وفاة طاهر بن عبدالله بن طاهر أمير خراسان في رجب، فولى ابنه محمد بن طاهر خراسان.

وفيها: مات بغا الكبير، فولى مكانه ابنه موسى بن بغا.

وفيها: شغب أهل حمص على كيدر عاملهم، فأخرجوه.

وفيها: تحرك يعقوب بن الليث الصفار من سجستان نحو هراة.

وفيها: توفي محمد بن العلاء الهمداني من مشايخ البخاري ومسلم.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومئتين، فيها التقى المسلمون والروم بمرج الأسقف، وقتل عمر بن عبدالله الأقطع مقدم العسكر، وكان شجاعاً، وانهزم الروم، وقتل منهم، فأغار الروم إلى الثغور الجزرية.

وفيها: شغب الجند الشاكرية والعامة ببغداد على الأتراك بسبب استيلائهم على الأمور يقتلون من شاؤوا من الخلفاء، ويستخلفون من شاؤوا من غير مصلحة، ثم اتفقت العامة بسامراء، وأطلقوا من في السجون، فقتلت الأتراك من العامة جماعة حتى سكنت الفتنة. =

= وفيها: قتلت الموالي أيامش، ونهبوا داره؛ فإن المستعين أطلق يد أيامش، فاستولى على الأموال.

وفيها: توفي علي بن الجهم الشاعر.

وفيها: توفي أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب صاحبُ إفريقية، وقام موضعه أخوه أبو محمد زيادة اللهِ.

ثم دخلت سنة خمسين ومئتين فيها، ظهر أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى ابن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بالكوفة في جمع، واستولى على الكوفة، ثم جهز إليه محمد بن عبداللهِ بن طاهر جيشاً، فقتل يحيى، وحمل رأسه إلى المستعين، ثم فيها ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بطبرستان، وكثر جمعه.

وفيها: وثب أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن أخي مازيار، فقتلوه، فأرسل المستعين إليهم موسى بن بغا الكبير، فحاربوه بين حمص والرستن، فهزمهم، فافتتح حمص، وقتل خلقاً، وأحرقها.

وفيها: توفي زيادة اللهِ من ولد الأغلب، وملك إفريقية بعده ابن أخيه أبو عبداللهِ محمد بن أحمد بن محمد المذكور.

وفيها: مات الخليع الشاعر الحسين بن الضحاك، ومولده سنة اثنتين وستين ومئة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومئتين، فيها قتل بغا الصغير، ووصيف باغر التركي، فشغب الجند، وحصروا المستعين في القصر بسامراء، فهرب هو وبغا ووصيف في حراقة إلى بغداد، واستقر بها المستعين، انتهى من «تاريخ ابن الوردي» (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

خلافة المعتزِّ بالله

هو أبو عبدالله، محمدُ بنُ جعفرٍ المتوكل بنِ المعتصم بنِ هارونَ الرشيد.

ولد سنة اثنتين وثلاثين ومئتين، ولم يل الخلافة قبلَه أصغرُ منه.

بويع له عند خلع المستعين، **سنة اثنتين وخمسين**، وهو ابن تسعَ عشرةَ سنة، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق، وكانت خلافته ثلاث سنين، وستة أشهر، وأربعة عشر يوماً، ومات عن نحو ثلاث وعشرين سنة.

ثم خَلع نفسه من الخلافة، وقُتل.

وكان سبب خلعه: أن الجند اجتمعوا، وطلبوا منه أرزاقهم، فلم يكن عنده شيء يعطيهم، فسأل أمه أن تقرضه شيئاً يدفعهم به عنه، فلم تعطه شيئاً، وأظهرت أن لا شيء معها، فاجتمع الأتراك على خلعه، ثم دخلوا عليه، فتناولوه بالدبابيس يضربونه، وما زالوا به حتى خلع نفسَه من الخلافة، ثم سلَّموه إلى من يسومه سوءَ العذاب، ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام، حتى جعل يطلب شربة من ماء البئر، فلم يُسق، ثم أدخلوه سرداباً فيه جص، فدسوه فيه، فأصبح ميتاً، فاستلُّوه من الجص سليمَ الجسد، وأشهدوا عليه جماعةً من الأعيان أنه مات، وليس به أثر، وكان ذلك اليوم الثاني من شعبان، **في السنة الخامسة والخمسين بعد المئتين**، وصلى عليه المهتدي، ودُفِن عند أخيه المنتصر، إلى جانب قصر الصوامع.

وكان طويلاً، جسيماً، وسيماً، أقنى الأنف، مدوَّر الوجه، حسنَ المضحَك، أبيضَ اللون، أسود الشعر، حسن العينين، ضيق الجبين، أحمرَ الوجنتين، ولم يُعذَّب أحدٌ من الخلفاء ما عُذِّب المعتز، على صغر سنه، وهو ثالث خليفة خُلِع من بني العباس، ورابع خليفة قُتِل منهم، وكان له من الولد جماعة، لم يشتهر منهم إلا عبدُالله.

في هذه السنة ظهر عند أمه قبيحة أموال عظيمة، وجواهر نفيسة، كان من جملة الذهب ما يقارب ألفي ألف دينار، ومن الزمرد الذي لم يُرَ مثلُه مقدارُ مَكُّوك، ومن اللؤلؤ مَكُّوك، وكَيْلَجَةُ ياقوتٍ أحمر لم يُرَ مثلها، هذا وقد كانت الأتراك طلبوا من ولدها المعتز خمسين ألف دينار تصرف في أرزاقهم، فلم يكن عنده من ذلك شيء، فطلب من أمه قبيحة ـ قبحها الله تعالى ـ أن تقرضه ذلك، فأظهرت أن لا شيء عندها، ثم ظهر عندها من الأموال ما ذكرناه، وقد كان لها من الغلات ما يعدل كل سنة عشرةَ آلاف دينار، واستمرت الخلافة للمهتدي بعد المعتز.

والمعتز هو الذي ولَّى أحمدَ بنَ طولون على مصر، ثم استولى ابن طولون على دمشق والشام، وأنطاكية والثغور، في مدة شغل الموفق بمحاربة الزنج.

وكان أبو العباس أحمدُ بنُ طولون عادلاً، شجاعاً، جواداً، متواضعاً، حسنَ السيرة، ويحبُّ أهل العلم، وبنى الجامعَ المنسوب إليه بظاهر القاهرة، قيل: إنه أنفق على عمارته مئة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، إلا أنه كان طائش السيف، سَفَّاكاً للدماء، أُحصي من قتله صبراً،

فكان جملتهم ـ مع من مات في حبسه ـ ثمانيةَ عشرَ ألفاً، وكان من أطيب الناس صوتاً بالقراءة؛ فإنه حفظ القرآن، وأتقنه، وطلب العلم، وملك الديار المصرية وعمره أربعون سنة، سنة أربع وخمسين ومئتين، فملكها بضع عشرة سنة.

وخلَّف أموالاً كثيرة، وثلاثة وثلاثين ولداً ذكراً وأنثى، وكان أبوه مملوكاً، أهداه نوح بن أسد الساماني إلى المأمون في جملة رقيق، ويقال: إن طولون تبنى أحمد، ولم يكن ولدَه ـ رحمه الله، وسامحه ـ.

* * *

خلافة المهتدي بالله

هو محمدُ بنُ الواثقِ بالله بنِ المعتصمِ، الخليفةُ الصالح، وأمُّه رومية.

بويع له لليلة بقيت من رجب، **سنة خمس وخمسين ومئتين**، وكان أسمر اللون، رقيقاً، مليح الوجه، حميد الطريقة، ورعاً، زاهداً، عابداً، عدلاً، كثير العبادة، قوياً في أمر الدين، بطلاً شجاعاً، لكنه لم يجد ناصراً ولا معيناً على الخير، وكان خاشعاً ناسكاً، يكاد يكون في الهاشميين كعمر بن عبد العزيز في الأمويين، ولم يكن في ملوك بني العباس أزهدُ منه، وكان قد طرح الملاهي، وحرّم الغناء، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم، وكان له سَفَطٌ فيه جبة صوف، وكساء وبرنس، كان يلبسه بالليل، ويصلي فيه.

ولما قتله الأتراك، تضاربوا على السفط المذكور؛ ظناً منهم أن فيه ذخيرة نفيسة، فلما اطلعوا على ما فيه، أظهروا الندامة.

وكان السبب في قتله: أنه لما رأى تغلُّب الأتراك والديلم والمغاربة، علم أن سلفه أخطؤوا في تقدمتهم، وجعل يقدم الأعراب، ويأنس بهم، ثم إن الترك خرجوا عليـه، فظفروا بـه، وعزلوه، ثم زجُّوه بالخناجر، ومَصَّ أحدُهم دمه حتى روي منه، ومات بين أيديهم ـ رحمه الله تعالى ـ لأربع عشرة ليلة خلت من رجب، سنة ست وخمسين ومئتين، وله تسع وثلاثون سنة.

وكان له من الأولاد: سبعة عشر ذكراً، وست بنات، وأولاده أعيانُ أهل بغداد، وهم الخطباء بالجوامع، ومنهم العدول، ولم يبقَ ببغداد من أولاد الخلفاء أكثرُ من ولده.

ومن شعره:

أَمَـا وَالَّـذِي أَعْلَـى السَّمَاءَ بِقُـدْرَةٍ
وَأَبْعَـدَ مَـا بَـيْنَ الثُّرَيَّـةِ وَالثَّـرَى

لَـئِنْ تَـمَّ لِـي التَّدْبِـيرُ فِيمَـا أُرِيـدُهُ
لَتُفْتَقَـدَنَّ التُّـرْكُ يَوْمـاً فَـلاَ تُـرَى

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المعتمد على الله

هو أبو العباس، أحمدُ، وقيل: أبو جعفر، المتوكل، وأمُّه أمُّ وَلَد.

وكان حسنَ الجسم، طويل اللحية، واسع العينين، طويلاً.

بويع له لأربع عشرة ليلة خلت من رجب، **سنة ست وخمسين ومئتين**، وكان يقبل على اللذات، ويشتغل عن الرعية، كثيرَ العزل والتولية، وجعل أخاه طلحةَ وليَّ عهده، ولقَّبه: الموفق بالله، فاستعدَّ الموفقُ لمحاربة الخبيث صاحبِ الزنج، الذي ادعى أنه علي بن محمد ابن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وليس كذلك، وإنما قيل بأنه: علي بن محمد بن أحمد بن رحيب، رجلٌ من العجم، من قرية من قرى الري، ونشأ بسامراء، فتأدب بها، وخدم في الديوان، وقال الشعر، واستماح به.

ثم حدث في نفسه الكفر والخبث، ودعوى الإمامة، وعلم الغيب، والخروج عن الأئمة، فقدم البصرة، وأقام بهجر، ودعا الناس إلى طاعته، فمال إليه عبيدُ هجر، وخَلْقٌ من أهل البحرين، والتأموا عليه، وكثر أتباعه، واستغوى مَنْ لقيه من الأعراب، وأوهم أنه يعلم منطقَ الطير، وعمد إلى خرقة حرير، فكتب فيها بالأخضر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[التوبة: ١١١] إلى آخر الآية، وكتب عليها اسمه واسم أبيه، وعلَّقها، وخرج ينادي في الناس، فاجتمع عليه ألوف من الزنوج وغيرهم، فقام فيهم خطيباً، ووعدهم أن

يملكهم الأموال، ولم يزل ينهب ويقتل، وادعى أن نساءه امتُحِنَّ بصحبته، وحرمن بعدَه على الرجال، وقال: لي بذلك أسوة برسول الله ﷺ، وبأئمة الهدى من بعده.

فقيل له: إن أبا بكر وعمر تزوج الناسُ بنسائهما، فقال: ليس فيهما قدوة، وأما علي، فقد أثم من تزوج نساءه بعده.

وادعى أنه عبدالله الذي قام يدعوه، وأنه أنزل فيه قرآناً.

وادعى أنه الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وقال: أُنزلت فيّ سورة من القرآن مجردة، ليس فيها ذكر غيري، وهي: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[البينة: ١].

وادعى أنه تكلَّم في المهد صبياً.

ثم إن الموفق انتدب لقتاله، فوجَّه ولدَه أبا العباس في نحو عشرة آلاف فارس وراجل لقتال الزنج، فسار نحوهم، وكان بينهم من القتال والوقعات المشهورة ما يطول شرحه، فنصر الله أبا العباس، وأعلى كلمته، وفتح على يديه، وأسبغ نعمه عليه، وهذا الشابّ هو الذي ولي الخلافة بعد عمه المعتمد، ولقب بالمعتضد.

وركب الموفَّق من بغداد في صفر سنة سبع وستين ومئتين في جيوش كثيفة، فدخل واسط، فتلقاه ابنه أبو العباس، وأخبره عن الجيش الذي معه، وما عملوا في حرب الزنج، فخلع عليه، وعلى الأمراء كلهم خِلَعاً سَنِيَّة.

ثم سار بجميع الجيوش إلى صاحب الزنج، وهو بالمدينة التي أنشأها، وسماها بالمنيعة، فقهرهم الموفق، ودخلها عَنْوة، وهدم أسوارها، وسار إلى غيرها من البلاد، وهدم ونهب.

ثم سار الموفق في جيوش عظيمة ـ نحو خمسين ألف مقاتل ـ إلى مدينة صاحب الزنج الكبرى التي بناها وسماها: المختارة، وقدّم ولده أبا العباس بين يديه، وحاصر قصرَ الملك محاصرة لم يحاصر مثلها، وتعجب الزنج من إقدامه وجرأته مع صغر سنه، فهزمهم بإذن الله، وفرّ الخبيث صاحب الزنج هارباً، وترك حلائله وأولاده، وأمواله فأخذها الموفق ـ ولله الحمد والمنة ـ، وشرحُ ذلك يطول.

ثم ركب الموفق، فأسر عامة من كان يصحبه من خاصته، وأبادهم بالقتل، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل الخبيث صاحبِ الزنج في المعركة، وجيء برأسه إليه، فخر لله ﷻ ساجداً، ثم رجع، ودخل مدينته التي أنشأها، وسماها: الموفقية، وكان يوماً مشهوداً، وفرح المسلمون بذلك في المشارق والمغارب.

ثم قدم ولدُه أبو العباس بين يديه إلى بغداد، ومعه رأسُ الخبيث، فكان لدخوله يوم مشهود، وانتهت أيام صاحب الزنج الكذاب ـ قبحه الله تعالى ـ.

وفي سنة سبعين ومئتين: أقبلت الروم في مئة ألف مقاتل، فنزلوا قريباً من طرسوس، فخرج المسلمون إليهم، وقتلوا منهم في مقتلة واحدة نحواً من سبعين ألفاً ـ ولله الحمد ـ، وغنم المسلمون منهم غنيمة عظيمة.

ولما قتل الموفق صاحبَ الزنـج، وكسر جيوشـه، تلقـب بناصر دين الله، وصار إليه الحل والعقد، والولاية والعزل، وكـان يُخطب لـه على المنابر، فيقال: اللهمَّ أصلح الأميرَ الناصرَ لدين الله أحمدَ الموفقَ بالله، وليَّ عهد المسلمين، أخا أمير المؤمنين.

وتوفي طلحةُ الموفقُ قبل أخيه المعتمد، وكان غزير العقل، حسن التدبير، كريماً، محمود السيرة، وله محاسن كثيرة، وكانت وفاته في صفر **سنة ثمان وسبعين ومئتين**.

واستمر المعتمد في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة، وستة أيام.

وتوفي المعتمـد لإحدى عشرة ليلة بقيـت من رجـب، **سنة تسع وسبعين ومئتين** ببغداد، وكان عمـره يوم مات خمسين سنة، وستة أشهر، وكان أسنَّ من أخيه الموفق بستة أشهر، وكان أول خليفة انتقل من سامراء إلى بغداد، ولم يَعُدْ إليها أحد من الخلفاء، بل جعلوا دار إقامتهم بغداد.

والحمد لله وحده، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المعتضد

هو أبو العباس، أحمدُ بنُ طلحةَ الموفقِ بنِ جعفرٍ المتوكل، وأمـه ضرار أمُّ وَلَد، وكان نحيفاً، ربعة، خفيف العارضين.

بويع له لإحـدى عشرة ليلـة بقيت من رجـب، **سنة تسع وسبعين**

ومئتين، وكان عادلاً، ضابطاً، وأمر بردِّ المظالم، وأسقط المكوس التي كانت تؤخـذ بالحرمين، وبذل المال، وحجَّ وغزا، وجالس المحدِّثين وأهلَ الفضل والدين، وأحسن التدبير، وقمع الفجـار، وبالغ في العمارة، ورفق بالرعية، وأمر أتباعه بلزوم الطرائق الحميـدة، وعرَّفهم أن من أفسد من غلمانهم، أُخـذ بـه مولاه، فأخـذ بعضُ غلمان الأجناد حِصْرِماً من كرم، فأحضر أستاذَه الأميـر، وضرب عنقه، ثم قال لوزيره عبيدِالله بن سليمان: لعلك أنكرتَ قتلَ هذا الأمير بجرمٍ جَنَاهُ عبدُه؟ قال: هـو ذلك يا أمير المؤمنين، قال: كنتُ في خلافة المعتمد قد رأيتُ هذا الأمير قتل رجلاً بغير ذنب عمداً، ولـم يكن له وارث، فنـذرتُ لله تعالى إن ولاني الخلافة، قتلتُه به، فلما ولاني الله الخلافة، طلبتُ له العثرات حتى قتلتُه.

وهذا من فقه هذا الخليفة ودينـه، وقال: والله ما حللت سراويلي على حرام قَطّ.

ومحاسنهُ كثيرة، ولـم يل الخلافة من بني العباس بعدَ السفاح مَنْ لم يكن أبوه خليفة إلا المستعين، والمعتضد.

وتزوج قطرَ الندى ابنةَ خمارويه بن أحمد بن طولون، **سنة إحدى وثمانين**، وأصدَقَها ألف ألف درهم.

ثم توفي المعتضد ببغداد، ليلة الاثنين، لسبعٍ بقين من شهر ربيع الآخر، **سنة تسع وثمانين ومئتين**، وعمره ست وأربعون سنة.

ويقال: إن وزيره إسماعيلَ بنَ بلبل سَمَّه.

وكانت خلافته تسع سنين، وتسعة أشهر، وأربعة أيام، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المكتفي بالله

هو أبو محمد، عليُّ بن المعتضد بالله، أمُّه أم ولد، اسمها خاضع.

بويع له لسبع بقين من ربيع الآخر، **سنة تسع وثمانين ومئتين**، وكان أسمر اللون، قصيراً، حسن الوجه، أمواله جَمَّة، وعساكره كثيرة، وليس في الخلفاء مَن اسمه عليٌّ غيرُ أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، والمكتفي هذا، وليس في الخلفاء من كنيته أبو محمد سوى الحسن بن علي رضي الله عنهما، والمكتفي.

وهو الذي بنى جامع البصرة، وأباد القرامطةَ الخارجين على الإمام.

وفي أيامه فتحت أنطاكية، وفي أيامه مات الزنديق أحمد بن يحيى ابن إسحاق المعروف بالراوندي، **في سنة ثلاث وتسعين ومئتين**، وهو المتكلِّم، وصنف عدة كتب في الكفر والإلحاد ومناقضة الشريعة، ووضع لليهود والنصارى كتاباً يتضمن مناقضة دين الإسلام، وكان موته ـ لعنه الله ـ برحبة مالك بن طوق، وقيل: مات سنة خمس وأربعين، وقيل: سنة خمسين ومئتين، وعمره ست وثلاثون سنة.

وتوفي ببغداد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس

وتسعين ومئتين، وعمره إحدى وثلاثون سنة، وشهور، ومدةُ خلافته ستُّ سنين، وستةُ أشهر، وعشرون يوماً.

وولي من أولاد المعتضد ثلاثة: المكتفي، والمقتدر، والقاهر، كما أن أولاد الرشيد ولي منهم ثلاثة: الأمين، والمأمون، والمعتصم.

* * *

خلافة المقتدر بالله

هو أبو الفضل، جعفرُ بنُ المعتضد، أُمه أُم ولد.

بويع له لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة، **سنة خمس وتسعين ومئتين**، ولم يل الخلافة أصغرُ منه سناً.

وكان ربع القامة، أحور العين، وأفضت الخلافة إليه وله ثلاثَ عشرةَ سنة، وشهران إلا أياماً، فدبر الوزراء والكتاب الأمور، وغلب النساءُ على أمره، حتى إن جارية لأمه تعرف بثمل القهرمانة، كانت تجلس للمظالم، وتحضُرها القضاة والفقهاء والوزراء.

وبطل الحج في أيامه، فلم يحج أحد **سنة سبع عشرة وثلاث مئة**؛ لدخول سليمان القرمطي صاحبُ البحرين مكة، وأخذ الحجر الأسود، في يوم الاثنين، لسبعٍ خلون من ذي الحجة، وأخذ الحجر يوم الأحد، لثلاث عشرة ليلة خلتْ من ذي الحجة، وأقام بمكة ثمانية أيام، وقتل مَنْ كان بمكة من الحجاج وغيرهم قتلاً ذريعاً، ورمى القتلى في زمزم، وأخذ الحجر، وعَرَّى الكعبةَ، وخلع بابها، وبقي الحجر الأسود عندهم

اثنتين وعشرين سنة إلا أشهراً، ثم رده الله تعالى، ولم يبطل الحج منذ كان الإسلام غير تلك السنة.

ويأتي ذكر ذلك في ترجمة المهدي بالله العلوي.

واستوزرَ اثني عشر وزيراً، يولِّي هذا اليوم، ثم يعزله غداً، إلى أن قتله بعضُ البربر بالسيف، في الحرب بينه وبين مؤنس الخادم، وأخذ رأسه، وخلع ثيابه وسراويله، فمر به رجل من الأكراد، فستر سوءته بحشيش، ثم حفر له ودفنه، وعَفَّى أثره.

ولما ولي المقتدر الخلافة، اجتنى من الأموال سبع مئة ألف ألف دينار، وخمسين ألف ألف دينار، خارجاً عما وجده في بيوت الأموال، فأنفق ذلك كله، ومات في أيامه خمسةَ عشرَ ألفَ أمير ومتقدم ومذكور، فكانت والدته تطوي عنه الرزايا والفجائع، وتقول: إظهارها يؤلم قلبه، فأدى ذلك إلى انتشار الفساد في مملكته، وكان الناس قد مَلُّوا أيامه لطولها، حتى إذا تصرمت، تمنوا ساعة منها، فأعوزتهم، وتعاقبتهم الحوادث.

وفي أيامه ظهرت الدولة العلوية الفاطمية ـ كما سيمرُّ بك في ترجمة المهدي بالله أول خلفائهم ـ.

وقُتل المقتدر يوم الأربعاء، لثلاثٍ بقين من شوال، **سنة عشرين وثلاث مئة**، وعمره ثمانٍ وثلاثون سنة، وشهر وأيام.

وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة، وأحد عشر شهراً، وأربعة عشر يوماً.

وماتت أمه بعده بسبعة أشهر وثمانية أيام، بعد مصادرات ونوازل، ولم يكن لامرأة من الخير ما كان لزبيدةَ ولها بعدَها، وكانت مواظبة على صلاح شأن الحج، وإنفاذ خزانة الطب والأشربة إلى الحرمين، وإصلاح المصانع والحياض، وكان يرتفع لها من ضياعها ألف ألف دينار في كل سنة تتصدق بأكثرها.

وكان له من الأولاد: اثنا عشر ولداً ذكوراً.

وكان من وزرائه: أبو الحسن بن الفُرات، وكان كريماً، ثم عُبيدالله ابن خاقان، وكان جواداً كريماً، ثم عليُّ بن عيسى بن داود بن الجراح، وكان موصوفاً بالعلم والدين، خدم الخلفاء سبعين سنة، لم يُزل فيها نعمةَ أحد، ولم يقتل أحداً، ولم يسعَ في دمه، فبقيت عليه نعمتُه، وعلى ولده، بعد أن شُحِذَت له المُدى، فدفع الله عنه، ولم يهتك قَطُّ لأحدٍ حرمة، فلم يهتك الله له حرمة.

وقيل مكتوب على خاتمه: لله صنعٌ خفي في كل أمر تخاف.

ـ رحمه الله تعالى ـ.

* * *

خلافة القاهر بالله أبي منصور

هو محمدُ بنُ المعتضد، وأمه قبول أُمُّ وَلَد.

بويع له يوم الخميس، لليلتين بقيتا من شوال، سنة عشرين وثلاث مئة، بعد أن بقيت بغداد يومين بغير خليفة.

وكان موصوفاً بالظلم، مقداماً على سفك الدمـاء، محبـاً لجمـع المال، قبيح السياسة، صادر جماعـة من أمهات أولاد المقتدر وأولاده، وضرب أمَّ المقتدر، وعلَّقها بفرد رجل في حبل البرادة، حتى ماتـت، وحلَّ وقفَها على الحرمين والثغور، وباعه.

وزاد بطشه وقتلُه لأرباب الدولـة، فخاف وزيره أبو علي بنُ مُقْلَة منه، وبذل لمنجِّمٍ ـ كان يخدم بعض قواده ـ مئتي دينار حتى قال للقائد من طريق النجوم: إني أخاف عليك من القاهر، فاجتمعوا عليه، وخلعوه، وسَمَلُوه، وارتكبوا منـه أمـراً لم يُسمع بمثله في الإسلام، وذلك لستٍّ خلون من جمادى الأولى، سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة.

وكان أولَ من سُمل من الخلفاء، فكانت ولايته سنة، وستة أشهر، وثمانية أيام، وتوفي لثلاثٍ خلون من جمـادى الأولى، سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة، ودُفن إلى جنب أبيه المعتضد بالله، وعمره اثنتان وخمسون سنة.

ويقال: إنه بعد أن سُملت عيناه، وخُلع، أقام مدة، ثم خرج إلى جامع المنصور، وقام، فعرف الناس بأمره، وسألهم أن يتصدقوا عليه، فقام إليه ابن أبي موسى الهاشمي، فأعطـاه ألف درهم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

والحمدُ لله وحدَه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الراضي بالله

هو محمدُ بنُ المقتدر، وأمُّه ظَلومُ أُمُّ وَلَد.

بويع له بعد عمه القاهر يوم الأربعاء، لستٍّ خلون من جمادى الأولى، **سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة**.

وكان أسمر اللون، خفيف العارضين، وكان أديباً شاعراً، وهو آخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة.

ولما أراد الخطبةَ، أرسل إلى الفقيه إسماعيل بن علي، وقال له: قد عزمتُ على أن أصلي بالناس غداً صلاة الجمعة، فكيف أقول إذا بلغتُ الدعاء لنفسي؟ قال: تقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾[النمل: ١٩] الآية، فقال: حسبك وهزء بقوله.

وأفسد دولته أبو علي بنُ مُقْلَة؛ فإنه كتب إلى بجكم التركي، يُطمعه في بغداد، فكان من أعلمَ الخليفة بذلك، فأمر بقطع يده، وقال: هذا سعى في الأرض الفساد، فكان ابن مقلة ينوح على يده، ويقول: خدمت بها ثلاثة خلفاء، وكتبت بها القرآن مرتين، وتُقطع كما تقطع اللصوص، ولم يكن في زمانه من يساويه في حسن الخط واللباقة.

ولما غضب الخليفة على ابن مقلة، وأمر بقطع يده، لم يأت أحد إليه متوجعاً، ثم في أثناء ذلك رضي الخليفة، وخلع عليه، فأتته الناس يهنونه أفواجاً فأنشد:

تَحَــــالَفَ النَّـــــاسُ وَالزَّمَـــــانُ

فَحَيْــــثُ كَـــانَ الزَّمَـــانُ كَـــانُوا

عَــــادَانِيَ الـــدَّهْرُ نِــــصْفَ يَــــوْمٍ

فَانْكَـــشَفَ النَّـــاسُ لِـــي وَبَـــانُوا

يَـــا أَيُّهَـــا المُعْرِضُــــونَ عَنَّــــا

عُــــودُوا فَقَـــدْ عَـــاوَدَ الزَّمَـــانُ

وتوفي الراضي بالله في منتصف ربيـع الأول، **سنة تسع وعشرين وثلاث مئة**.

* * *

خلافة المتقي لله

هو أبو إسحاق، إبراهيمُ بنُ المقتدر، بويع لـه يوم الأربعاء، لعشر بقين من شهر ربيع الأول، **سنة تسع وعشرين وثلاث مئة**، وكان أبيض، أشهل العينين، أشقر الشعر، وكان في أيامه غلاء وشدة، وكان عابداً، كثيرَ الصلاة والصوم، ولم يشرب النبيـذ قـط، وكان يقول: المصحف نديمي، ولذلك لقبه الصولي: المتقي لله، ولم يغدر بأحد قط، إلا أن الله لم يوفق له أصحاباً، غدر به الترك، وسملوه في صفر، **سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة**، فكانت خلافته ثلاث سنين، وأحد عشر شهراً، وعاش بعـد ذلـك أربعاً وعشرين سنـة، وتوفي ليلة النصف من شعبان، سنـة سبع

وخمسين **وثلاث مئة**، وعمره ستون سنة، وأيام، والله أعلم.

* * *

خلافة المستكفي بالله

هو أبو القاسم، عبدُالله بن المكتفي بالله، بويع لـه لعشرٍ بقينَ من صفر، **سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة**، وسنُّه إحدى وأربعون سنة، وسبعة أيام، في سن المنصور حين ولي الخلافـة، وكان مليح الوجه، قد وَخَطَه الشيب، وتلقَّب بهذا اللقب، وبإمام الحق.

وقبض عليه معزُّ الدولة أبو الحسن بنُ بويه الديلميُّ في يوم الخميس، لسبع بقين من جمادى الآخرة، **سنة أربع وثلاثين وثلاث مئـة**، وسُمل بعد خلعه، وحُبِـس، وتوفي في محبسه ليلة الجمعة، لأربعَ عشرةَ ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، سنة أربع[1] وثلاثين وثلاث مئة.

وخلافته سنة واحدة، وأربعة أشهر، وثلاثة أيام، والله أعلم.

* * *

خلافة المطيع لله

هو أبو القاسم، الفضلُ بنُ المقتدر، بويع لـه لثمان بقين من جمادى الآخرة **سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة**، وهو أولُ من طال عمره من خلفاء

---

(١) في الأصل: «ثمان».

بني العباس على من تقدم؛ لأنه بقي في الخلافة إلى ذي القعدة، **سنة ثلاث وستين وثلاث مئة**، فكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة، وأربعة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً، ولم يكن له من الخلافة سوى الاسم، والمدير للأمور والحاكم على الجمهور معزُّ الدولة أحمدُ بن بويه الديلمي، وحمل الخليفةَ معه إلى البصرة، ولم يدخل البصرة خليفة محارب إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والمطيع لله، وكان كريماً، حليماً، سخياً على قلة ذات يده.

وكان يُجري على ثلاثة خلفاء خُلعوا وسُملوا، وهم: القاهر والمستكفي، والمتقي، لكل واحد منهم في كل شهر مئة دينار، ولم يتعرض لأحد من قرابته بسوء، وخلع نفسه في منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاث مئة.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الطائع لله

هو أبو بكر، عبدُ الكريم بنُ الفضل، أُمُّه أُمُّ وَلَد.

بويع له يوم الأربعاء، في منتصف ذي القعدة، **سنة ثلاث وستين وثلاث مئة**، وعمره ثمان وأربعون سنة، وأقام خليفة سبع عشرة سنة، وتسعة أشهر، وستة أيام، ولم يتقلد الخلافة مَنْ له أبٌ حيٌّ إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والطائع لله، وكلاهما يكنى بأبي بكر.

وخُلع الطائع من الخلافة، ورُمي من فوق السرير، وقَبض عليه بهاءُ الدولة بنُ عضد الدولة؛ بسبب طمعه في مال الطائع، ولما أراد ذلك، أرسل إلى الطائع، وسأله الإذنَ ليجدد العهد به، فجلس الطائع على كرسي، ودخل عليه بعض الديلم، وقد كان مد يده ليسلم عليه، فجذبه عن سريره، والخليفة يقول: إنا لله، وإنا إليه راجعون، ويستغيث فلا يُغاث، وحُمِل إلى دار بهاء الدولة، وأشهد عليه بالخلع، وذلك في داره، بموضع المدرسة النظامية، ونهبتِ الدَّيلمُ دار الخلافة، وكان خلعه في شعبان، **سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة**.

ولمّا تولى القادر، حُمل إليه الطائع، فبقي عنده مكرماً، إلى أن توفي في ليلة عيد الفطر، **سنة ثلاث وتسعين وثلاث مئة**.

ورثاه الشريفُ الرضيُّ بقصيدة أولها:

مَا بَعْدَ يَوْمِكَ مَا يَسْلُو بِهِ السَّالِي
وَمِثْلُ يَوْمِكَ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِي

والحمد لله وحده.

* * *

خلافة القادر بالله

هو أبو العباس، أحمدُ ابن الأمير إسحاق بنِ المقتدر بالله بنِ المعتضد.

بويع له لسبع بقين من شعبان، **سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة**، وكان مقيماً بالبطيحة، فأرسل إليه بهاءُ الدولة خواصَّ أصحابه ليُحضروه، ولما قرب من بغداد، خرج بهاءُ الدولة وأعيانُ الناس لملتقاه، ودخل دار الخلافة، ثاني عشر رمضان، وبايعه الناس، وخُطب له ثالث عشر رمضان.

وكان من حسن الدين والتهجد والورع على طريقة مشهورة، وكان امرأً صالحاً ورعاً تقياً، حسنَ الخليقة، حميدَ الطريقة، صلفَ النفس، كثير المعروف، بلغ من العمر ستاً وثمانين سنة، وتسعة أشهر، وأياماً، وأقام خليفة إحدى وأربعين سنة، وثلاثة أشهر، وواحداً وعشرين يوماً.

وتوفي في الحادي عشر من ذي الحجة، **سنة اثنتين وعشرين وأربع مئة**، ولم يبلغ أحد من الخلفاء قبله مدةَ ولايته، ولا طولَ عمره، وفي أيامه فُتحت السند والهند، والله أعلم.

وكُتب ببغداد محضر بأمر القادر يتضمن القدح في نسب العلويين خلفاء مصر، وكتب فيه جماعة من العلويين والقضاة، وجماعة من الفضلاء، وأبو عبدالله بن النعمان فقيه الشيعة.

ونسخة المحضر المذكور: هذا ما شهد به الشهود: أن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد منتسب إلى ديصان بن سعيد الذي تنسب إليه الديصانية، وأن هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والدمار ـ ابن معد بن إسماعيل بن

عبد الرحمن بن سعيد ـ لا أسعده الله ـ، وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ـ عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين ـ أدعياءُ خوارجُ، لا نسبَ لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن ما ادعوه من الانتساب إليه زورٌ وباطل، وأن هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفارٌ وفساق زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلُّوا الخمور، وسَبوا الأنبياء، وادَّعوا الربوبية.

وتضمن المحضر المذكور نحو ذلك.

وفي آخره: وكتب في شهر ربيع الآخر، **سنة اثنتين وأربع مئة**.

والحمد لله.

* * *

خلافة القائم بأمر الله

هو أبو جعفر، عبدُالله بنُ القادر بالله، كان أبوه قد عهِد إليه، وبايعه بالخلافة، فجددت له البيعة، وكان كريماً حليماً، حسنَ السيرة، قد اجتهد في صلاح الدين.

وزال في أيامه ملكُ العجم الذين كانوا يحجُرون على الخلفاء، واستقلَّ هو بالأمر، ودُعي له بإفريقية، أقام دعوته بها المعزُّ بن باديس.

وفي أيامه قتل البساسيري كبيرُ الترك ببغداد، لما ظهر منه من المخالفة والعصيان، قتله طغرلبك، وأرسل رأسه إلى الخليفة، فصُلب قبالة الباب النوبي، في سنة إحدى وخمسين وأربع مئة.

وكان سخياً، وكان كثير الصلاة والصيام، وكان سبب كثرته الصيام: أن الخطيب كان يخطب يوم الجمعة فيقول: اللهم أصلح عبدك وخليفتك الإمام الصوام القوام، فقال مجيباً له: والله لا كذبتُكَ، فكان يصوم النهار، ويقوم الليل ولا يمسك من المال إلاَّ قوته خاصة وقوت عياله.

وفي أيامه غرقت بغداد حتى خرج الماء على الخليفة من تحت سريره، فنهض إلى الباب، فلم يجد طريقاً، فحمله خادمٌ على ظهره حتى أخرجه، وأخذ الخليفة بُردةَ رسولِ الله ﷺ، فلبسها، ثم أخذ القضيبَ بيده، ووقف يصلِّي ويتضرع إلى الله تعالى، وهو صائم يومه، ولم يطعم ليلته، ففرَّج الله عن الناس.

وتوفي في ليلة الخميس، ثالث عشر شعبان، **سنة سبع وستين وأربع مئة**، وعمره أربع وسبعون سنة، وثمانية شهور، وثمانية أيام، وخلافته أربع وأربعون سنة، وثمانية أشهر، ويومان.

* * *

خلافة المقتدي بأمر الله

هو أبو القاسم، عبدُالله بنُ محمد الذخيرة بنِ القائم.

بويع له بالخلافة لما توفي القائم، وحضر مؤيدُ الملك بنُ نظام الملك والوزير ابنُ جهير، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وابن الصباغ، ونقيب النقباء طَرَّاد الزينبي، والقاضي أبو عبدالله الدَّامغاني، وغيرهم من الأعيان، فبايعوا بالخلافة، ولم يكن للقائم ولد ذكرٌ سواه؛ فإن محمد بنَ

القائم، وكان يلقب يعني الخليفة ذخيرة الدين، توفي في حياة أبيه القائم.

وكان لمحمد بن القائم لما توفي جارية اسمها أرجوان، فلما توفي محمد، ورأت أرجوان ما نال القائمَ من المصيبة بانقطاع نسله، ذكرت أنها حامل من محمدٍ ابنِه، فولدت عبدالله المقتدي إلى ستة أشهر من موت محمد، فاشتد فرحُ القائم بـه، وعظُم سروره، فلما بلغ المقتدي الحلمَ، جعله القائمُ وليَّ عهـده، وتوفي المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبدُالله فجأة، يوم السبت، خامس عشر المحرم، سنة **سبع وثمانين وأربع مئة**، وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة، وثمانية أشهر، وأياماً، وخلافته تسع عشرة سنة، وخمسة أشهر، وأمُّه أمُّ ولد أرمنية تسمى: أرجوان، أدركت خلافته، وخلافةَ ابنه المستظهر بالله، وخلافة ابن ابنه المسترشد بالله.

وكان المقتدي قوي النفس، عظيم الهمة ـ رحمه الله ـ.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المستظهر بالله

هو أبو العباس، أحمدُ بنُ المقتدي بأمر الله.

بويع له بالخلافـة لما توفي المقتدي، وكان عمره ست عشرة سنة، وشهرين.

وفي أيامه، في **سنة اثنتين وتسعين وأربـع مئـة** أخـذ الفرنج بيت المقدس ـ على ما يأتي ذكره في ترجمة المستعلي بأمر الله العلوي ـ.

وتوفي المستظهر بالله في سادس عشر ربيع الآخر سنة **اثنتي عشرة وخمس مئة**، وكان عمره إحدى وأربعين سنة، وستة أشهر، وأياماً، وخلافته خمساً وعشرين سنة، وثلاثة أشهر ـ رحمه الله، وعفا عنه ـ.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور، فضلُ بنُ أحمدَ المستظهرِ.

أخذ البيعة على الناس للمسترشد القاضي أبو الحسن الدامغاني لما توفي المستظهر.

ثم وقع الحرب بين المسترشد، وبين السلطان مسعود، وسببه: أن جماعة من عسكر مسعود فارقوه مغاضبين، واتصلوا بالخليفة، وهوّنوا عليه قتال السلطان مسعود، فاغتر بكلامهم، وسار من بغداد لقتاله، فصار غالب عسكر الخليفة مع مسعود، وانهزم الباقون، وأُخذ الخليفة أسيراً مع مسعود.

ثم سار به من همدان إلى مراغة، وهو معه في خيمة منفردة، وكان اتفق مع الخليفة على مال يحمله الخليفة إليه، وأن لا يعود يخرج من بغداد، واتفق وصول رسول السلطان سنجر أبي مسعود، فركب مسعود لملتقاه، فوثبت الباطنية على المسترشد وهو في تلك الخيمة، فقتلوه، ومثّلوا به، فجدعوا أنفه وأذنيه، وقُتل معه نفر من أصحابه.

وكان قتل المسترشد يومَ الأحد، سابع عشر ذي القعدة، **سنة تسع وعشرين وخمس مئة**، بظاهر مراغة، وكان عمره لما قتل ثلاثاً وأربعين سنة، وثلاثة أشهر، وكانت خلافته سبع عشرة سنة، وستة أشهر، وعشرين يوماً.

وأمُّه أم ولد، وكان فصيحاً، حسن الخط، شهماً.

وفي أيام المسترشد في **سنة ثلاث عشرة وخمس مئة** ظهر قبر إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ، وقبرا ولديه إسحاق ويعقوب بالقرب من بيت المقدس، ورآهم كثير من الناس لم تَبْلَ أجسادُهم، وعندهم في المغارة قناديلُ من ذهب وفضة.

ويأتي ذكرُ ذلك في ترجمة الآمر بأحكام الله العلوي.

والحمد لله وحده.

* * *

خلافة الراشد بالله

هو أبو جعفر، المنصورُ بنُ المسترشد بالله.

بويع له لما قتل والده، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته، ثم بعد قتله جُددت له البيعة، في يوم السابع والعشرين من ذي القعدة، **سنة تسع وعشرين وخمس مئة**، وكتب مسعود إلى بغداد بذلك، فحضر بيعته واحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء.

ثم خلع الراشد، وسببه: أنه اتفق مع بعض ملوك الأطراف؛ مثل: عماد الدين زنكي وغيره، على خلاف السلطان مسعـود، وطاعـة داود ابن السلطان محمود، فلما بلغ مسعوداً ذلك، سار إلى بغداد، وحاصرها، فلم يظفر بها، فارتحل، وسار الخليفة الراشدُ من بغداد مع عماد الدين زنكي إلى الموصل، فلما سمع مسعود بمسير الخليفـة مع زنكي، سار إلى بغداد، واستقر بها في ذي القعدة، **سنة ثلاثين وخمس مئة**، وجمع مسعود القضاة وكبراءَ بغداد، وأجمعوا على خلع الراشـد؛ بسبب أنه كان قد عاهد مسعوداً على أنه لا يقاتله، ومتى خالف ذلك، فقد خلع نفسه، وبسبب أمور كبيرة ارتكبها، فخُلع، وحُكم بفسقه وخلعه.

وكانت مدة خلافة الراشد أحدَ عشر شهراً، وأحد عشر يوماً.

والحمد لله وحدَه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المقتفي لأمر الله

هو أبو عبدالله، محمدُ بن المستظهر.

لما خلع الراشد، استشار السلطان مسعود فيمن يقيمه في الخلافة، فوقع الاتفاق على محمد بن المستظهر، فأُحضر، وجلس في الميمنة، ودخل إليه السلطان مسعود، وتحالفا، ثم خرج السلطان، وأَحضر الأمراء وأربابَ المناصب، والقضاةَ والفقهاء، وبايعوه، ولقبوه: المقتفي لأمر

الله، والمقتفي عمُّ الراشد المذكور، هو والمسترشد ابنا المستظهر وَلِيا الخلافة، وكذلك السفاحُ والمنصورُ أخوان، وكذلك المهدي والرشيدُ أخوان، وكذلك الواثقُ والمتوكل.

وأما ثلاثة إخوة ولوا الخلافة، فالأمين، والمأمون، والمعتصم أولادُ الرشيد.

وكذلك المكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد، والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر.

وأما أربعة إخوة ولوها، فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان، لا يعرف غيرهم.

وعُمل محضر بخلع الراشد، وأرسل إلى الموصل، وزاد المقتفي في إقطاع عماد الدين زنكي وألقابه، وأرسل المحضر، فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل، وخُطب للمقتفي في الموصل في رجب، **سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة.**

وفي سنة خمس وثلاثين وخمس مئة وصل رسولُ السلطان سنجر، ومعه بردةُ النبي ﷺ، والقضيب، وكانا قد أُخذا من المسترشد، فأعادهما إلى المقتفي.

وفي سنة اثنتين وخمسين: خلع المقتفي الخليفة بابَ الكعبة، وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة المذهبة، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً يدفن فيه.

وتوفي المقتفي لأمر الله في ثاني ربيع الأول، **سنة خمس وخمسين وخمس مئة** بعلة التراقي[1].

وكان مولده ثاني ربيع الآخر، سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وأُمُّه أم ولد.

وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة، وثلاثة أشهر، وستة عشر يوماً، وكان حسن السيرة، وهو أول من استبدّ بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد، حتى كان لا يفوته منها شيء.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

خلافة المستنجد بالله

هو أبو المظفر، يوسفُ بنُ المقتفي لأمرِ الله محمدٍ، وأمُّه أمُّ وَلَد، تدعى طاوس.

بويع له لما توفي والده المقتفي، ولقب: المستنجد بالله، ولما بويع المستنجد بالخلافة، بايعه أهله وأقاربه، فمنهم: عمُّه أبو طالب، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي، وكان أكبر من المستنجد بالله، ثم بايعه الوزير ابن هبيرة، وقاضي القضاة، وغيرهم.

---

(١) في الأصل: «المراقيا».

وتوفي في تاسع ربيع الآخر، **سنة ست وستين وخمس مئة.**

ومولده مستهل ربيع الآخر، سنة عشرٍ وخمس مئة.

وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية.

وكان سبب موته: أنه مرض، واشتد مرضه، وكان قد خاف منه أستاذ داره عضدُ الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قيماز المقتفوي، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد، فاتفقا ووصَّيا الطبيب، أن يصف له ما يُهلكه، فوصف له دخول الحمام، فامتنع منه لضعفه؛ ثم إنه دخلها، وأغلق عليه الباب، فمات ـ رحمه الله ـ.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المستضيء بأمر الله

هو أبو محمد، الحسنُ بن المستنجد بالله.

ولما مات المستنجد، أحضر عضدُ الدين وقطب الدين المستضيءَ بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً: أن يكون عضدُ الدين وزيراً، وابنُه كمال الدين أستاذ الدار، وقطبُ الدين أميرَ العسكر، فأجابهم إلى ذلك.

ولم يلِ الخلافة من اسمُه حسن غيرُ الحسن بن علي، والمستضيء، فبايعوه بالخلافة يوم مات أبوه بيعة خاصة، وفي غده بيعة عامة.

وكان المستضيء بأمـر الله حسنَ السيرة، أطلق كثيراً من المُكُوس،

وكان شديداً على أهل العبث والفساد.

وفي أيامه كان انقطاع الدولة الفاطمية من المملكة في أول سنة سبع وستين وخمس مئة ـ كما يأتي ذكره في ترجمة الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب إن شاء الله تعالى ـ.

وتوفي المستضيء في ثاني ذي القعدة، سنة خمس وسبعين وخمس مئة، وأمه أمُّ ولد أرمنية، وكانت خلافته نحو تسع سنين، وسبعة أشهر.

وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمس مئة.

وكان عادلاً، حسن السيرة، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار بعد قتل عضد الدين الوزير، والله أعلم.

* * *

خلافة الناصر لدين الله

هو أبو العباس، أحمدُ بنُ المستضيء بأمر الله بنِ المستنجد بالله يوسف بنِ المقتفي محمد بنِ المستظهر أحمد بنِ المقتدي عبدالله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد بنِ القائم عبدالله بن القادر أحمد ابنِ الأمير إسحاق بن المقتدر جعفر بن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق.

قيل: اسمه طلحة، وقيل: محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد هارون بن المهدي محمد بن المنصور عبدالله بن محمد ابن علي بن عبدالله ابن عمِّ النبي ﷺ العباسِ بن عبد المطلب بن هاشم.

بويع له بالخلافة لما مات المستضيء.

قام ظهير الدين بن العطار، وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله، ولما استقرت البيعـة للإمام الناصر، حكم أُستاذ الدار مجدُ الدين أبو الفضل، فقبض في سابع القعدة على ظهير الدين بن العطار، ونقل إلى التاج، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء، ثاني عشر ذي القعـدة، فثارت بـه العامـة، وألقـوه عن رأس الحمال، وشدوا في ذكره حبلاً، وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة يعني: أنها قلم، وقد غمس تلك المغرفة في العذرة ويقولون: وقِّع لنا يا مولانا، هذا فعلُهم به مع حُسن سيرتـه فيهم، وكفِّه عن أموالهم، ثم خُلّص منهم، ودفن.

وتوفي الإمام الناصر لدين الله في أول شوال، **سنة اثنتين وعشرين وست مئة**.

وكانت خلافته نحو سبع وأربعين سنة، وعَمي في آخر عمره، وكان موته بالدوسنطاريا، وكان عمره نحـو سبعين سنة، وكان قبيح السيرة في رعيته، ظالماً لهم، خرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وكان يتشيع، وكان مُنْصَرِفَ الهمة إلى رمي البندق.

وقد نُسب الإمام الناصر أنه هـو الذي كاتـب التتر، وأطمعهم في البلاد، بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة؛ ليشتغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر، محمدُ ابنُ الإمام الناصر لدين الله.

بويع له لما توفي والده، فأظهر العدل وحسن السيرة، وأزال المكوس، وأخرج المحبسين، وظهر للناس، وكان الناصر ومَنْ قبله لا يظهرون إلا نادراً.

ولم تطل به مدته في الخلافة سوى تسعة أشهر، وتوفي في رابع عشر رجب، **سنة ثلاث وعشرين وست مئة**.

وكان متواضعاً، محسناً إلى الرعية جداً، وأبطل عدة مظالم، منها:

أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة، يقبضون بها المال، ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس، وكان زائد الصنجة في كل دينار حبة، فخرج توقيع الخليفة الظاهر بإبطال ذلك، وأولُه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، وعمل صنجة المخزن مثلَ صنجة المسلمين.

وكان مضادداً لأبيه في كثير من أحواله، منها: أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة، ومدة خلافته كانت قصيرة، وكان أبوه متشيعاً، وكان الظاهر سُنِّياً، وكان أبوه ظالماً جَمَّاعاً للمال، وكان الظاهر في غاية العدل،

وبذل الأموال للمحبوسين على الديون، وللعلماء ـ رحمه الله تعالى، وعفا عنه ـ.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المستنصر بالله

هو أبو جعفر، المنصورُ بنُ الظاهرِ بأمرِ الله محمد.

ولي الخلافة لما توفي والده الظاهر، وكان للظاهر ولد آخر يقال له: الخفافي في غاية الشجاعة، وبقي حياً حتى أخذت التتر بغداد، وقتل مع من قُتل، والمستنصرُ هو الأكبر.

ولما تولي الخلافة، سلك في العدل والإحسان مسلكَ أبيه الظاهر، توفي المستنصر بُكْرة الجمعة، لعشرٍ خلون من جمادى الآخرة، سنة أربعين وست مئة، وكانت خلافته سبع عشرة سنة إلا شهراً.

وكان حسنَ السيرة، عادلاً في الرعية، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافاً جليلة على أنواع البر ـ رحمه الله، وعفا عنه ـ.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

خلافة المستعصم بالله، وهو آخرهم

هو أبو أحمد، عبدُالله بنُ المستنصرِ بالله منصورٍ.

لما مات المستنصر، اتفق آراءُ أرباب الدولة؛ مثل: الدوادار، والسراي على تقليد الخلافة ولدَه عبدالله، ولقبوه: المستعصم بالله.

وكان ضعيف الرأي، فاستبد كبراءُ دولته بالأمر، وحَسَّنوا له قطعَ الأجناد، وجمع المال، ومداراة التتر، ففعل ذلك، وقطعَ أكثرَ العساكر، والله سبحانه أعلم.

* * *

ذكر استيلاء التتر على بغداد، وانقراض الدولة العباسية

في أول سنة ست وخمسين وست مئة قصد هولاكو ملكُ التتر بغداد، وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصمَ بالله.

وسبب ذلك: أن وزير الخليفة مؤيدَ الدين بنِ العلقمي كان رافضياً، وكان أهلُ الكرخ ـ أيضاً ـ روافض، فجرت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد على جاري عادتهم.

فأمر أبو بكر بنُ الخليفة، وركنُ الدين الدوادار العسكرَ، فنهبوا الكرخ، وقتلوا النساء، وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتبَ التترَ، وأطمعَهم في ملك بغداد.

وكان عسكر بغداد يبلغ مئة ألف فارس، ففضَّهم المستعصم؛

ليحمل إلى التتر متحصلَ إقطاعاتهم، وصار عسكرُ بغـداد دون عشرين ألـف فارس، وأرسـل ابنُ العلقمي إلى التتـر أخاه يستدعيهم، فساروا قاصدين بغداد في محفل عظيم، وخرج عسكر الخليفة لقتالهم، ومقدمهم ركن الدين الدوادار، وانصفُّوا على مرحلتين من بغـداد، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر الخليفة، ودخل بعضهم بغداد، وسار بعضهم إلى جهة الشام، ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي، ونزل باجو - وهو مقدم كبير - في الجانب الغربي على القرنة قبالة دار الخلافة.

وخرج مؤيدُ الدين الوزيرُ العلقمي إلى هولاكو، فوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم، وقال: إن هولاكو يُبقيك في الخلافة؛ كما فعل بسلطان الروم، ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحَسَّن لـه الخروجَ إلى هولاكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأُنزل في خيمة، ثم استدعى الوزيـرُ الفقهـاء والأماثل، فاجتمـع هناك جميع سادات بغداد، والمدرسون، وكـان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يُخرج إلى التتار طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا، قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر، وعدَّا[1] باجو ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا [على] دار الخلافة، فقتلوا كلَّ من فيها من الأشراف، ولم يسلَمْ إلا من كان صغيراً، فأُخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان.

---

(١) أي: اجتاز.

وأما الخليفة، فإنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقيل: خنق، وقيل: وضع في عِدْل، ورفسوه حتى مات، وقيل: غرق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكان هذا المستعصم، وهو أبو أحمد عبدُالله بن المستنصر، ضعيفَ الرأي، قد عَلَتْ عليه أمراء دولته؛ لسوء تدبيره، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر بالله في سنة أربعين وست مئة، وكانت خلافته نحو ست عشرة ـ سنة تقريباً ـ، وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد.

وكان ابتداء دَولتهم في سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وهي السنة التي بويع فيها السفاح بالخلافة، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية.

وكانت مدة ملكهم خمسَ مئة سنة، وأربعاً وعشرين سنة ـ تقريباً ـ، وعدةُ خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة.

وحكى القاضي جمالُ الدين بنُ واصل، قال: لقد أخبرني مَنْ أثق به: أنه وقف على كتاب عتيق، فيه ما صورته: أن علي بن عبدالله بن عباس بن عبد المطلب بلغَ بعضَ خلفاء بني أمية عنه: أنه يقول: إن الخلافة تصير إلى ولده، فأمر الأموي بعلي بن عبدالله، فحُمل على جمل، وطيف به، وضرب، وكان يقول عند ضربه: هذا جزاءُ من يفتري، ويقول: إن الخلافة تكون في ولده.

وكان علي بن عبدالله ـ رحمه الله ـ يقول: أي والله! لتكوننَّ الخلافة في ولدي، لا تزال فيهم حتى يأتيهم العِلْج من خراسان، فينزعها منهم،

فوقع مصداقُ ذلك، وهو ورودُ هولاكو، وإزالته ملك بني العباس.

وخُتمت خلافتهم ببغداد بعبدالله المستعصم من بني العباس، كما افتتحت بعبدالله السفاح منهم.

وقد تقدم أن جملة أيام بني العباس من السفاح إلى هذه السنة خمس مئة سنة، وأربع وعشرون سنة، والخلافة التالية لزمان رسول الله ﷺ كانت ثلاثين سنة؛ كما نطق بها الحديث الصحيح[1]، وكان فيها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم ابنه الحسن ستة أشهر.

ثم كانت مُلكاً، فكان أول ملوك الإسلام معاوية، ثم ابنه يزيد، ثم معاوية بن يزيد، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية، المختتم بمعاوية.

ثم ملك مروانُ بنُ الحكم بن أبي العاص بن أمية، وملك بعده الأمويون واحداً بعد واحد، وآخرُهم مروانُ الحمار، فكان أولهم مروان، وآخرهم مروان.

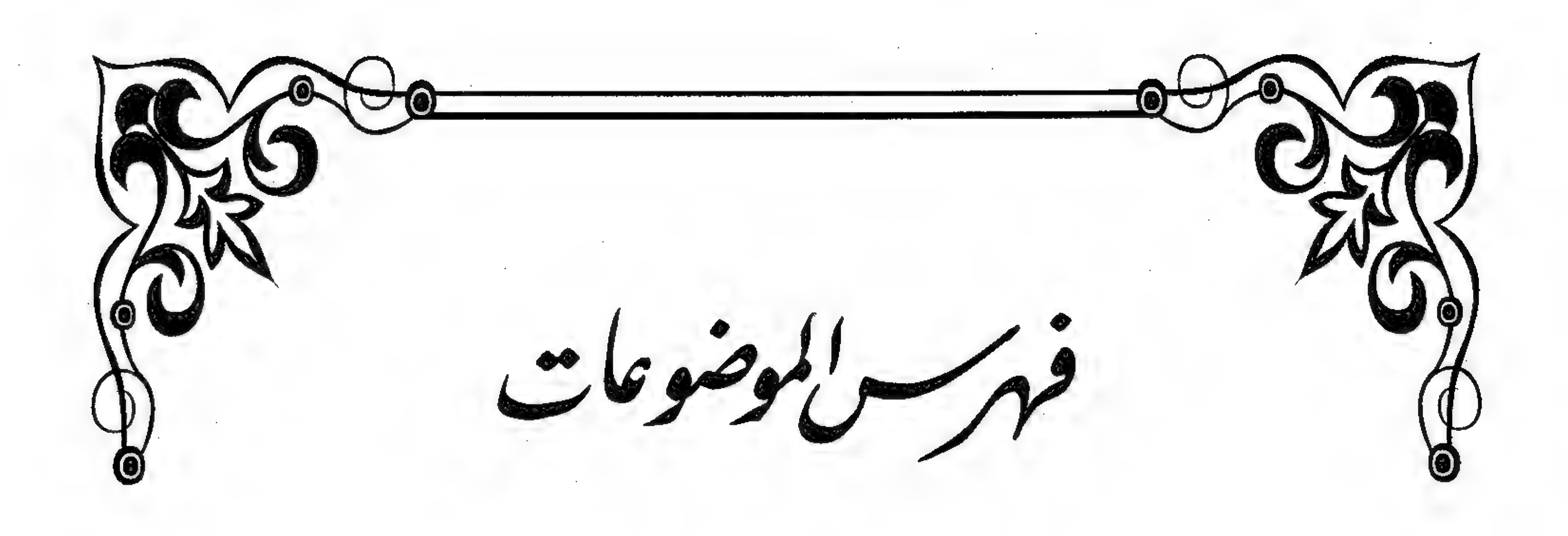
وكذلك الدولة العلوية الفاطمية، كان أول خلفائهم عبيدالله المهدي، وآخرهم عبدالله العاضد، والله أعلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.



---

(١) تقدم تخريجه.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الخلافة الراشدة

الدولة الأموية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

□ □ □

